رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

الآداب
مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
بيروت
ص.ب. ٤١٢٣ — تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

العدد الخامس
ايار (مايو) ١٩٥٨
السنة السادسة

No. 5 Mai. 1958
6ème année

العقل الانقلابي والجمهورية العربية المتحدة

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

عندما قام المسؤولون في مصر وسوريا يستجيبون لنداء الشعب وضغطه ويحققون تلك الخطوة القومية والانسانية الكبرى ، خطوة الوحدة بين الاقليمين ، وعندما اقبلوا على هذا العمل التاريخي الجبار دون ما استثناء او تلكؤ ، كانوا ينفذون حركة ثورية جذرية على الميدان السياسي من الوحدة العربية : وكانوا ينقلبون على كثير من المفاهيم التي آمن بها كثير من الناس وآمنوا بها هم انفسهم ردحا من الزمن .

وبهذا كانت هذه الخطوة خطوة انقلابية ثورية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، لانها حملت بين ثناياها ثورة القائمين بها على عادات عقلية سابقة وعلى رواسب نفسية قديمة .

وقد تجلى هذا الموقف الانقلابي لدى المنفذين السياسيين للوحدة في امور كثيرة ابرزها في نظرنا ثلاثة :

اولها مقاومة موقف نفسي وعاطفي اصيل ، يعز على كل عربي ويجله كل عربي ، ألا وهو الموقف الذي يشق عليه ان تقوم الوحدة بين البلدان العربية مقسطة منجمة ، ويتمنى لو تكتمل الوحدة منذ البداية فتكون شاملة ، ويحرص على ان تكون الحركة النضالية في البلاد العربية كلها حركة متواقتة متوازية في سائر أوجه نشاطها .

لقد كان كل عربي يؤمن بوحدة النضال وبوحدة الصف المناضل في البلاد العربية ، وكان يدرك ان اي تغيير في وضع بعض البلدان العربية لا يمكن ان يكون كاملا عميقا الا اذا ادى الى تغيير مماثل في البلدان العربية الاخرى .

غير ان المسؤولين الواعين في مصر وسوريا ادركوا ان مثل هذه الامنية الغالية ينبغي الا توقعنا في حرفية وحدة النضال العربي ، فنأخذ هذا المدلول على ظاهره اللفظي الشكلي ، ويخيل الينا ان وحدة النضال تستلزم مجيء سائر الخطوات موحدة شاملة ، وتفترض التواقت الزمني في كل شيء . فالبلدان العربية ، رغم وحدة المستوى القومي بين شعوبها ، تخضع لاعتبارات سياسية متباينة ، ترجع الى طبيعة الفئات الحاكمة فيها، ولا بد بالتالي من التفريق بين النضال الموحد على مستوى الشعوب وبين العمل الموحد على المستوى السياسي.

وهكذا ادرك القائمون على الامر ان النضال في سبيل الوحدة كثيرا ما يقتضي النضال ضد الوحدة ، اي ضد الوحدة بين الفئات الحاكمة ، تلك الوحدة بين الحكام التي لا يمكن ان تقوم الا على اساس المسايرة والتنازلات والمساومات والخيانات القومية احيانا .

ولهذا كانت الحركة الانقلابية التي خلقت الجمهورية العربية المتحدة جريئة في موقفها هذا ، منقلبة فعلا على مفاهيم كانت تعيش في النفوس ردحا من الزمن ، مدركة ان من الواجب في سبيل الوصول الى الوحدة الشاملة فصل الفئات الحاكمة الرجعية في البلدان العربية عن صف الوحدة ، وفصل الوحدة عن هذه الفئات والتفريق بين وحدة الشعوب ووحدة الحكام .



وبهذا حقق الجيل الذي انفذ الوحدة بين الاقليمين انقلابا على مفهوم الجامعة العربية القديم ، ذلك المفهوم الذي ضلل فريقا من الناس ، وفريقا من المخلصين برهة من الزمن . وبهذا ايضا اعطوا للنضال العربي الموحد الشامل معنى ايجابيا ومضمونا فعالا، بعد ان كان معناه سلبيا متخاذلا ،

وذلك حين جعلوا الجمهورية العربية الجديدة مركز الانطلاق الشعبي والحكومي معا في سبيل النضال العربي الشامل . وهم حين حققوا وحدة النضال العربي هذا بين الشعب والحكومة في الجمهورية الفتية جعلوا النضال في سبيل تحرير البلدان العربية الاخرى نضالا اكثر نتاجا وعطاء ، وأغروا الحركات الشعبية المناضلة في سائر البلدان العربية بالاقتباس والاقتداء ، اي بتحقيق الوحدة بين الشعب والحكام كبداية لتحقيق الوحدة بين بلدهم والبلاد الاخرى.

لقد ادركوا ، بقول موجز ، ان الوصول الى الوحدة القومية المكينة لا يكون قبل تمزيق اوصالها المريضة ، وأن لا بد قبل الجمع من الفرق ، على حد تعبير قول المتصوفة ، وأن الفصل سبيل اولى للوصل ، وان التوتر طريق الاستقرار .

والامر الثاني الذي عبر عن هذه العقلية الانقلابية لدى هؤلاء الذين عملوا على وحدة البلدين تجلى في تلك الخطوة الجريئة التي جعلتهم يلقون بأنفسهم اولا وباديء ذي بدء في الوحدة السياسية ليذللوا ضمن هذه الوحدة وبقوة الوحدة مشكلات الوحدة .

لقد اخذ الناس في البلدان العربية فترة من الزمن بفكرة الفوارق بين الكيانات العربية القائمة . وكان كثير من المخلصين للفكرة العربية يتهيبون الوصول اليها نتيجة لما يرونه من فوارقه ظاهرية بين قطر وقطر . وكثيرا ما كانوا يعددون العقبات الكثيرة التي تعترض الوحدة ، سواء من الوجهة السياسية او الاقتصادية او الثقافية او غيرها .

وكثيرا ماكان بعضهم يردد الفكرة الشهيرة التي لقيت رواجا كبيرا ، فكرة « اصفار سعد زغلول » ! ونعني بها تلك الفكرة التي ترى ان توحيد البلدان العربية صعب ، قبل ان يتحرر كل واحد منها على حدة وقبل ان ينضج كل واحد منها على حدة ، وقبل ان يتم التقارب عن طريق التباعد .

وهكذا اخذ الناس بفكرة تكاد تكون نقيض الفكرة الاولى التي كنا نتحدث عنها ، نعني فكرة التواقت في النضال وفي الوحدة ، وحسبوا ان لا بد من فراق طويل اولا ، آملين ان يؤدي هذا الفراق الى لقاء . وهم بهذا أخذوا من حيث لا يشعرون بالواقع المصطنع الذي خلقه الاستعمار ، فحسبوا الكيانات القائمة اصيلة وحسبوا الفرقة الزائفة طبيعية ، وحسبوا العقبات التي خلقها الاستعمار ومعه الفئات الحاكمة عقبات من جوهر الاوضاع ومن طبائع الاشياء .

اما الذين حققوا وحدة الاقليمين فلم يخفهم الفساد ولم ترعهم بذوره المتكاثرة ، وعلموا ان الفساد لا بد ان ينفرط عقده منذ ان تنفرط حبته الكبرى . لقد علموا ما هنالك من فوارق في النظم والاوضاع والحياة الاقتصادية وغيرها ولكنهم علموا ان هذه الفوارق لم توجد الا لان الوحدة السياسية غير قائمة ، وأن انحلالها وزوالها نتيجة طبيعية للوحدة . لقد كانت الفوارق قوية ذات شأن وكان تذليلها صعبا عندما كان البحث في تذليلها يجري على افق التفاوض بين دولتين تشعر كل واحدة منهما باستقلالها . سوى ان هذه الفوارق غدت في طريق الزوال من تلقاء نفسها بعد ان اصبح البحث في ازالتها يجري على افق الدولة الواحدة.

وهكذا تحقق جانب من احلامنا ، نحن المتأثرين بأجواء الفلاسفة . فلقد كنا نقول – وكثيرا ما لا نجد من يصدقنا ما نقول – ان النظر الى الصعوبات وتعدادها شيء مخيف لا ينجي منه الا انكارها وتجاهلها ، اي مجاوزتها الى خطوة فوقها تقضي عليها . لقد كنا نردد ان معالجة الفوارق القائمة بين البلدان العربية ذرة ذرة وقطرة وقطرة تؤدي الى استشرائها وزيادة الشعور بها ، وأن التغلب عليها يكون بعمل متعال عليها، على حد تعبير الفلاسفة، اي بقيمة ثورية جديدة محملة بالقوة والقدرة على الصهر ، وهذه القيمة الثورية المدخرة للقوة والحرارة هي الوحدة نفسها ، هي الوحدة السياسية التي تصدر عنها بعد ذلك سائر جوانب الوحدة.

وهكذا حقق موجهو وحدة الاقليمين انقلابا عميقا على مفهوم كان قوي الجذور في النفوس ، وعرفوا ان يخطوا خطوة البطولة الحقة ، تلك الخطوة التي لا تعترف على العقبات وتعدها غير موجودة وتقذف نفسها في تيارها لتصارعها بعد ذلك . وهم بلغوا هذه الرتبة حين اتحد لديهم العقل المدرك بالارادة الصادقة ، حين التحم عندهم قطبا القوة ، نعني الفكر والايمان . وقد جاء الواقع بعد ذلك مصدقا نبوءتهم وحدسهم ، فاذا بالوحدة تلهب الشعب وتلهب النفوس ، واذا بها تخلق مواطنين مستعدين لتناسي كل شيء في سبيل الهدف الاسمى ، واذا بالبحث في توحيد

النظم والاوضاع يغدو ميسرا سهلا ما دامت وراءه ارادة الوحدة.

لقد حقق رواد الوحدة انقلابا على المفاهيم السائدة وعلى نفوسهم حين انقلبوا على فكرة البدء بالوحدات الجانبية الجزئية (من اقتصادية وعسكرية وثقافية وسياسية واجتماعية) من اجل الوصول الى الوحدة الكلية . فبدأوا بالكل وأخذوا يسحبون من الاجزاء ، وهبطوا من العام الى الخاص ، بدلا من ان يصعدوا في طريق طويلة غير مضمونة المخارج ـ من الشعاب والوديان ليشرفوا بعد ذلك على القمة.

لقد تخلصوا حقا من آفات التحليل العقلي الذي يوهم ان الشيء لا يصنع الا من اجزائه وعناصره ، وادركوا ان العمل الخلاق يصوغ البنية في جميع تقاطيعها وأجزائها ثم ينضج هذه الاجزاء ، وان كل كائن حي نتيجة كيان كلي وبنية متآخذة تتفتح معها اجزاؤها مع الزمن .

اما الامر الثالث الذي حمل هذه العقلية الانقلابية لدى موجهي الوحدة بين الاقليمين ، وهو أمر ينتج عن النقطة السابقة ، فهو قطع الطريق حتى نهايتها في شبوط واحد، بدلا من قطعها على اشواط ومراحل ، وذلك عن طريق الاخذ بالوحدة التامة بدلا من الاتحاد :

ان كل عمل ثوري عمل جديد فيه زيادة وخلق . ولا يصح ان يكون العمل الثوري مجرد تسجيل لواقع ومجرد تكريس لشيء قائم ، ولا بد فيه من خطوة جريئة ، خطوة تجاوز الواقع القائم . والواقع القائم في مصر وسوريا قبل الانقلاب كان واقعا اتحاديا ، وكان اعلان الاتحاد لا يحتاج الى اكثر من تكريس التسمية وبعض الخطوات البسيطة الاخرى . فمصر وسوريا كانتا خلال السنوات الماضية اشبه ما تكونان بالدولتين الاتحاديتين فعلا ، بحكم ما بينهما من وحدة في السياسة والثقافة والشعور. ولهذا كان اعلان الاتحاد بينهما ، على شكل دولتين اتحاديتين ، ضربا من وضع الشعار على شيء موجود فعلا . وما كان مثل هذا العمل جديرا بأن يسمى ثوريا بكل ما في الكلمة من معنى . وكان لا بد لارواء عواطف الجماهير التي جاوزت طور الاتحاد بين دولتين ، من خطوة حقيقية واضحة ، كان لا بد من الوحدة . ولهذا كان الاحتفال بالوحدة عميقا بهيجا ألهب النفوس . فالوحدة تبدت حقا عملا بطوليا ،أي عملا فيه زيادة جديدة عن مقدماته، فيه خلق جديد، فيه تحسس برغبات الشعب وتحقيق لها . أليس البطل من يتحسس بالرغبات الدفينة للشعب فيظهرها الى العيان ويجعلها صريحة بعد اضمار ؟

لقد شهدنا الناس في العام الماضي عندما كان البحث في اقامة اتحاد فدرالي بين مصر وسوريا يسير على الالسن . فما انسنا اكثر من التأييد والقبول . ما انسنا هذا الانقلاب في النفوس والمشاعر الذي شهدناه يوم تحققت الوحدة . ذلك ان حدس الشعب صادق عميق ، مهما يكن فطريا . والشعب العربي عاش منذ صغره على فكرة الوحدة التامة واغتذى بلبانها ، وما كان له ان يهبط بهذا الحلم الى صورة باهتة له .

والحق ان المخاطرة التي تولد من اقامة اتحاد ، اكبر من المخاطرة التي تولد من اقامة وحدة تامة،خلافا لما قد يخيل الى بعضهم . فالوحدة كما ذكرنا تذيب الفوارق بحكم كونها وحدة وبحكم كون التوجيه فيها واحدا . اما الاتحاد فمعروض الى خلق بعض الفوارق المصطنعة والى تغذية البقية الباقية من روح الانفصال ، ما دام الاتصال لم ينعقد بعد تماما . والوحدة تشق طريقها جارفة قوية لانها مؤيدة بروح الشعب وحماسته . اما الاتحاد فلا يقوى على اثارة روح الثورة في الشعب كاملة . يضاف الى هذا كله ان المولود ما دام غير كامل بعد ، فالامل في القضاء عليه اقوى، وهو يفرض وجوده ويقطع السبيل على اهل الردة اذا ولد كاملا مضمون الحياة .

هذا جانب من الروح الانقلابية التي حركت اولئك الذين عملوا على تحقيق الوحدة في الاقليمين. وغني عن البيان بعد هذا ان هذه الروح الانقلابية التي تمت على المجال السياسي تحتاج الى روح انقلابية مماثلة تنبث في سائر المجالات ولا شك ان الحماسة اللاهبة التي خلقتها الوحدة في نفوس المواطنين تبشر بانهم سيقوون على تحقيق الانقلاب اللازم في نفوسهم ، الا نقلاب الذي يستلزمه العهد الجديد . ومع ذلك فنحن لا نريد ان نعد الوصول الى مثل هذه الروح الانقلابية شيئا هينا لينا ياتي من تلقاء نفسه ولا يحتاج الى تغذية وتوجيه . فمما لا شك فيه أن رواسب الانفصال قائمة ، وان التغلب على عقلية الفرقة ليس بالامر السهل. وهنالك بون كبير بين الايمان بالوحدة وبين القدرة على تجاوز روح الانفصال . وشتان بين الحماسة للوحدة وبين بنائها قوية منيعة .

لقد ربي اكثر الناس في بلادنا ـ بحكم ظروف الاستعمار والاستثمار الطويلة ـ على عادات فكرية وروحية تحتاج الى مقاومة مستمرة ، ومجاهدة دائمة . واولى هذه العادات الروح الفردية التي لم تعهد اسلوب التعاون والعمل الجمعي. ولا نقول جديدا اذا قلنا ان التربية التي تلقاها افراد الشعب عندنا في الماضي تربية تنمي الانانية الفردية على حساب التعاون الجمعي. والتعليم عندنا مسؤول الى حد كبير عن هذه الناحية : فكل شيء في مدارسنا التقليدية مجعول لتنمية روح التطاحن الفردي. وفيها يلعب « الانا » دورا كبيرا ولا نجد مجالا « للنحن » على حد تعبير الفلاسفة . فأنا الذي اتقدم في الدراسة ، وانا الذي اتفوق ، وانا الذي انجح ، وانا الذي اعمل . اما العمل المشترك الذي يذوب فيه الافراد ضمن اطار الجماعة فلا نلقى له اثرا في مدارسنا المألوفة . وغني عن البيان ان محاربة هذه الروح الفردية ، امر له قواعده التربوية واصوله في العالم : من مثل تعويد الطلاب على نظام « الفرائق المدرسية » ، وانشاء التعاونيات المدرسية ، واقامة اعمال مشتركة كالمجلة المدرسية والطباعة وغيرها . ومن مثل ربطهم اليومي بنشاط بيئتهم ومجتمعهم ومن مثل تغييرنظام العقاب والثواب الخ.. ومهما يكن التوجيه عن طريق الثقافة والتربية امرا يحتاج الى وقت ،

فلا بد من البدء به لانه اضمن طريق وابقى وسيلة . على ان هذا لا يحول دون محاربة رواسب الثقافة الانانية الفردية لدى الجيل الذي نشأ عليها بوسائل اخرى مباشرة اكثر . يصدر اكثرها عن طريق تخطيط دقيق لاجهزة الدولة وتوجيه متصل من قبل المشرفين عليها . واذا كان من واجبنا في هذه المرحلة ان نتحدث عن التخطيط الاقتصادي للجمهورية الجديدة ، فمن واجبنا الا ننسى التخطيط الروحي الفكري ، فهو سند كل تخطيط . وما دام الهدف بناء مجتمع تعاوني اشتراكي ، فلا بد ان يغذي التنظيم الاقتصادي والاجتماعي فيه توجيه روحي يغرس العقل التعاوني الاشتراكي ويحسن صياغته . واذا كان العمل في كثير من الاحيان سبيلا مثلى للوصول الى الفكرة المحركة للعمل ، فمن الصحيح ايضا ان من غير الجائز ان يسد العمل النظر ويتردى في الالية وانعدام الشعور . فالافكار قوى، وكل فكرة قوية تحمل من الحركة ما يجعلها تنقلب الى عمل جديد وما يجعلها تولد دوما من العمل عملا مبتكرا اخر ..

ولن يقدر لنا في هذه الكلمة ان نستوفي جوانب الروح الانقلابية التي يتوجب غرسها في النفوس خلال هذه المرحلة، وحسبنا ان وقفنا هذه المرة عند جانب نعده اهمها ، نعني القضاء على عادات العمل الفردي الاناني وقلب روح التفكير بالذات الى روح تعاونيه اشتراكية يعرف فيها الافراد ان يحتجبوا في سبيل المجموعة . لقد بدأ العهد الجديد بقذف جو جديد في هذا الميدان ، جدير بأن يتابع ويغذى . فلقد اشعر الناس منذ البداية ان تولي امورهم لم يعد مغنما او متعة ، وانه يعني التعب والنصب في سبيل خدمة المجموع . وقد بدأ الناس يدركون أن التسابق على مناصب الدولة بدأ يقام على ارض التباري في القدرة على تحمل المسؤوليات والمشقات والمخاطر . وعاد الى اولياء الامور بعض من شعور العربي القديم ، ولاسيما في صدر الاسلام ، ذلك الشعور الذي كان يملي على الافراد ان الولاية عبء لا يقبل عليه الا من شعر بانه اقدر على تحمل مسؤولياته ومتاعبه. ولعل هذه البداية تجر وراءها يوما بعد يوم انقلابا في فهم الناس للصلة بين الشعب والحكومة، قوامه ادراك الشعب ان من واجبه تخفيف العبء على حكامه المناضلين في سبيله وذلك عن طريق التعاون التام ونكران الذات وتقدير المسؤوليات .

وبعد ان امام العهد الجديد ميدانا اساسيا لا بد ان يقتحمه منذ الايام الاولى ، ميدان النفوس ، وان عليه بعد الجهاد الاصغر جهادا اكبر ، جهاد النفس ، ولا بد ان يبدأ العمل لصياغة النفوس وتوجيهها منذ الفترة الاولى ، وذلك للاستفادة من حرارة الاندفاعة الاولى نحو الوحدة . وكل عمل انقلابي لا بد ان يرافقه عمل انقلابي في عقول الناس ، ولن نستطيع ان ننزع اي انحراف في اعمال الناس قبل ان ننزعه من عقولهم .

عبدالله عبد الدائم

الدوحة ــ قطر ــ الخليج العربي

مِن ملحمة الجزائر

للشاعر سليمان العيسى

روعة الجرح فوق ما يحمل اللفظ ، ويقوى عليه اعصار شاعرْ
أأغني هديرها .. والسماوات صلاة لجرحها ، ومجامرْ ؟
أأناجي ثوارها ... ودوي النار ابياتهم ، وعصف المخاطر ؟
بين جنبيّ عبقة من ثراها ونداء - أنى تلفت - صاهر
ما عساني أقول ؟ والشاعر الرشاش ، والمدفع الخطيب الهادرْ
والضحايا المزقون ، وشعب صامد كالاله يلوي المقادر
فوق شعري ، وفوق معجزة الالحان ، هذا الذي تخط الجزائر!
يا بلادي ... يا قصة الالم الجبار ... لم يَحنِ رأسه للمجازر
ما عساني أقول ؟ والنار لم تلفح جبيني هناك ، والثأر دائر
ودوي الرشاش لم يخترق سمعي ، ويسكب في جانحيّ المشاعر
لم أذق نشوة الكمين يدوي فاذا السفح للصوص مقابر
لم اعصّب جرحي ، وكفي على النار ، وعيناي في العدو الغادر
ألف عذر .. يا ساحة المجد،يا ارضي التي لم أضمها.. يا جزائر!
الف عذر .. اذا غمست جناحي من بعيد بماحقات الزماجر
بيديك المصير .. فاقتلعي الليل، وصوغيه دافق النور، باهر
لك في الشرق جانح عربي يتمطى عن معجزات البشائر
لك هذا الجوار ينسحق الغدر على سفحه وتُملى المصائر
رفعته الاكباد في مصر الشام مضيئا كطلعة الله ظافر
وحدة .. مثلما اشرأب بقاب الموج طود نائي الشماريخ قاهر
وحدة .. ديدبانها لهب الشعب ، وربانها الى الشط ناصر

***

انه مولد الضحى فتحدي به القدر
قصفةً بعد قصفةٍ وسلي موكب الظفر
عن حكايات غاصب فوق كثبانك إنتحر
ما فرنسا ومجدهامجدهاالكالح الصور
غير ذكرىغدا علىشط«وهران»اوخبر

يا قلاعَ الطغاة .. قد نفض العملاق عن جفنه عصور الضبابِ
والتقينا من غير وعد على الثأر .. شهابٌ يضيء درب شهابِ
سفحتنا الصحراء فجراً سخياً بالبطولات ، بالعتاق العرابِ
أمةٌ .. ظنها الغزاة اضمحلت وتلاشت وراء الف حجاب
في افترار الربيع لا يسأل السَرْوُ شموخا عن حاقد الاعشاب
والعتيق الاصيل لا يخطيء الشوطَ ، وضجي يا حانقاتِ الذئاب!
المروآت قد تنام عن الخلد ، وتكبو في رحلة الاحقاب
ويعيث اللصوص في حرم التاريخ .. ظفرٌ دامٍ وشرعةُ غابِ
فجأةٌ ... يستفيق في جانب البيد نبيٌ ، وسورة من كتابِ
ويدوي على الرمال نفير عربي ، فالارض رجعُ جواب
واذا الدهر من جديدٍ نشيد صاغه اسمر لحـالمٍ رباب

***

من سقى الرمل في الجزائر رعشاً وحياة تمور مَوْرَ العباب!
مَن أحال الجبال زأر براكين ، وجدران معقلٍ غلاب!
يتحدى قوى الجريمة في الارض .. فتبدو كسيحة الانياب
انها أمتي ... تشد جناحيها ، فوجهُ التاريخ فجر انقلابِ
حادثُ الجيل .. عودة الفارس الاسمر حل الميدان بعد الغياب
لا تسلني عنه .. تَلفَّتْ تر الانجم وشيا على جناح عقاب
لا تسلني .. طلائعي تملأ الافق ، كأن السماء بعض الرحاب
لا تسلني .. جزائري تخضب التاريخ عطرا بحفنة من تراب..
انها امتي .. تعود الى الساح نبيا ، وآية من كتاب !

***

معكم في صراعكم يا صقور الجزائرِ
معكم كل خافق ولكم كل ناظر
معكم .. والضحى لنا عربي الغدائر
لي بوهران سكرة يوم أروي محاجري
من ترابي محررا عابقا بالمفاخر

***

أين مني عينان، خلف جدار السجن، مكحولتان بالكبرياءِ !
وجبينٌ ، والف نجمة صبح لألأت فوق جرحه الوضاء !
وفم .. تعجز الحروف وتعيا فيه عن محو بسمة زهراء
بسمةٍ .. لخصت بها شرف التاريخ صِدِّيقةٌ من الصحراء
يلعق الوحش جرحها ، فترد الطرف كبراً في صامتٍ من اباء
وهي مذهولة : أتبلغ يوماً مثلَ هذا نذالةَ الاحياء ؟!
أين مني جميلة .. تزأر الساحات من صمتها بالف حداء !
أي سر في الصمت يرسله الابطال ناراً ، وصاعقات فداء !
أي سر ... هزت به الشفة السمراء قلب الدنيا بغير نداء
أتراها في السجن قديسة الصحراء تطوي جراحها في حياء
عَظُمت صيحة الفداء وعزَّت ان توارى في دامس الظلماء
هي فينا سحر القصيد ، اذا غنى ، ووهج النارية البتراء
هي في غضبة الملايين تهوي فوق جلادها سياط ازدراء
في بلادي ، في الصين، في شفتي راع يغني على الذرى الخضراء
وَهِمَ المجرمون .. لن يطفئوا الشمس بارهاب غيمةٍ سوداء
تتحداهم جميلة بالصمت رهيبا ، والبسمةِ الزهراء
تتحداهم صخورك يا (أوراس) ان يوقفوا زئير القضاء
موجةٌ .. تحمل العروبةَ فيها من جديدٍ مقدسات السماء

حلب **سليمان العيسى**

من ديوانه الجديد « قصائد عربية »

حول كتاب « جندي مع العرب » للجنرال كلوب

حقائق ... واكاذيب !

بقلم محمد توفيق حسين

نكبة فلسطين قضية تاريخية فاجعة الاحداث ، متعددة النواحي ، غامضة التفاصيل . هيأت لها دول عديدة ، وخاضت غمار الحرب فيها جيوش عديدة ، وحمل مسؤوليتها اشخاص كثيرون . وعلى الرغم من انقضاء عشرة اعوام على هذه النكبة فما زال كثير من حقائقها مجهولا ، وما زال سر كثير من احداثها مكتوما في صدور الرجال ، مصونا في مخفي الاضابير. والكثير مما نشر عن اسرار هذه القضية مشوب بالدعايات المضللة ، والاتهامات المغرضة ، والدفاع عن النفس . وليس بامكان المؤرخ المنصف ان يقول كلمة الحق في هذه القضية حتى يمسك بخيوطها جميعا . وكتاب « جندي مع العرب » (١) الذي ألفه باللغة الانكليزية الجنرال غلوب ، على ما فيه من دعاوى باطلة وافكار خاطئة ، من الوثائق المهمة التي تكشف عن موقف الاردن ، حكاما وجيشا ، من قضية فلسطين عامة ، ومن حرب فلسطين خاصة .

وصف الجنرال غلوب في كتابه نشوء الجيش الاردني ونموه وقوته وتسليحه ، والمعارك التي خاضها في حرب فلسطين . وبين موقف الملك عبدالله ، والحكومات الاردنية المتعاقبة ، وموقفه هو ، من الاحداث التي ادت الى قيام اسرائيل . وحلل الاحداث السياسية التي المت بالاردن ، وبالعالم العربي ، منذ نهاية حرب فلسطين الى ان ابعد عن الاردن سنة ١٩٥٦ . و « جندي مع العرب » كتاب ضخم لا يمكن عرض كل القضايا التي يتناولها في مقال موجز ، ولهذا سأقتصر على مناقشة بعض القضايا المهمة التي تلقي ضوءا على جوانب حرب فلسطين ، وتوضح اسلوب الجنرال في فهم الحوادث التاريخية ، وعرضها ، وتحليلها . سأتكلم في هذا المقال عن نشوء الجيش الاردني ، ومعركة القدس، ومسؤولية بريطانية في حرب فلسطين ، وعن التخلي لليهود عن اللد والرملة .

قدم جون باغوت غلوب الى العراق ١٩٢٠ ، ضابطا نظاميا في الجيش البريطاني . وفي سنة ١٩٢٦ ترك الخدمة في الجيش البريطاني واصبح ضابطا في القوات العراقية . وكانت مهمته القضاء على ثورات العشائر، واخضاع القبائل المتمردة ، وقمع الغزوات التي كانت تشنها بعض القبائل بعضها على بعض . وفي سنة ١٩٣٠ ترك غلوب العراق والتحق بخدمة الحكومة الاردنية حيث اصبح آمرا لقوة البادية . وقد تمكن ، خلال مدة قصيرة ، من اخضاع العشائر المتمردة ، وكسب ولائها للحكومة الاردنية . وفي نيسان ١٩٣٩ عهدت اليه قيادة « الفرقة العربية » او ما يسمى غالبا بالجيش العربي الاردني . وظل في منصبه هذا حتى عزل وأبعد عن الاردن سنة ١٩٥٦ (٢٦) (٢)

كان الجيش الاردني ، عندما بدأت الحرب العالمية الثانية في ايلول ١٩٣٩ ، يتألف من ١٣٥٠ جنديا ، كان الف منهم يؤلفون قوة الشرطة ، اما الباقون فكانوا منظمين تنظيما شبه عسكري ، مهمتهم منع تسرب الثوار الفلسطينيين الى شرق الاردن . (ص ٤١) واشترك الجيش الاردني ، مع الجيش البريطاني ، في القضاء على حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق في ايار ١٩٤١ . واشترك ، مع الجيش البريطاني الذي كانت تسانده قوة صغيرة من قوات فرنسا الحرة ، في احتلال سوريا من ٨ حزيران الى ١١ تموز ١٩٤١ . وقد اهتمت الحكومة البريطانية بهذا الجيش الصغير ، بعد ان لمست مقدرته الحربية في حرب العراق وسوريا ، فأوصت الملك عبدالله ان يزيد عدد جنوده ، وان يتوسع في تسليحه . وكانت مهمة الجيش الاردني ، خلال سنوات الحرب العالمية ، القيام بغارات صاعقة على خطوط الجيش الالماني في الصحراء الغربية بأفريقيا. واصبحت مهمته ، بعد هزيمة الالمان في العلمين ، المحافظة على خطوط تموين الحلفاء الممتدة من حيفا الى بغداد الى ايران . وبعد انتهاء الحرب العالمية بقيت قوات من هذا الجيش في فلسطين لمساعدة الحكومة البريطانية . كان الجيش الاردني ينمو خلال الحرب حتى اصبح عدده في السنة الاخيرة منها ٨٠٠٠ جندي . وكان يتبعه قوة من الشرطة المدنية يبلغ عدد افرادها الفين . وكان الجنرال غلوب ، الى جانب قيادته لقوات الجيش والشرطة ، مسؤولا بصورة مباشرة عن البادية وقبائلها ، كما كان يقوم بوظيفة ضابط ارتباط مع الحكومة السعودية (ص ٤١ — ٤٨) ولكن سياسة الاقتصاد في النفقات ، التي اتبعتها بريطانيا بعد الحرب ، ادت الى خفض قوة الجيش الاردني في فلسطين فاصبح عدده ، سنة ١٩٤٨ ، حوالي ٦٠٠٠ جندي (ص ٣٣٦) ولولا ان بريطانيا كانت بحاجة الى الجيش الاردني في فلسطين بعد الحرب العالمية ، حيث كان يحرس مخازن الذخيرة والمواقع العسكرية المهمة ، لخفضت عدده الى اقل من هذا . يتبين من هذا العرض الموجز لتاريخ الجيش الاردني ، قبل حرب فلسطين ، انه لم يكن جيشا لدولة عربية مستقلة ، وانما كان فرقة تابعة للجيش البريطاني . ومن هنا تسميته « بالفرقة العربية » باللغة الانكليزية ، تمييزا له عن بقية فرق الجيش البريطاني . وكانت الحكومة البريطانية تتحمل ميزانية الجيش ، كما كانت تمده بالذخيرة والعتاد من مخازن جيوشها ، وكان الضباط البريطانيون ، المعارة خدماتهم من الجيش البريطاني ، يشغلون المناصب القيادية المهمة فيه (٣) . هذه حقائق مهمة يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار عند البحث في موقف الجيش الاردني من المعارك التي دارت في حرب فلسطين . يشهد غلوب ان الجنود الاردنيين كانوا متحمسين للحرب ، يلحون في الدخول الى المعارك . ولكن

---

(١) Sir John Bagot Glubl, A Soldier with the Arabs, London 1957

(٢) الارقام الموضوعة بين حاصدتين تشير الى رقم الصفحات في الاصل الانكليزي

(٣) امرت الحكومة البريطانية ، بعد قيام الحرب بين العرب واليهود ، بسحب جميع الضباط البريطانيين المعارة خدماتهم للجيش الاردني (ص ١٣٣)

الجنرال غلوب كان مهتما بالمحافظة على سلامة الجيش اكثر من اهتمامه بانقاذ فلسطين من اليهود ، وحماية سكانها من مجازرهم .

كان عدد الجيش الاردني ، عشية حرب فلسطين ، ٦٠٠٠ جندي (٤) ،ما عدا قوات الشرطة المدنية ، كان بالامكان انزال ٤٥٠٠ منهم الى ساحة القتال (ص ٨٤) ولكن الجيش الاردني لم يكن مستعدا لدخول الحرب في فلسطين . فلم تكن لديه طيارات (ص ١٣٢) ، وكان ينقصه العتاد والسلاح الثقيل (ص ٩١ ، ١٣١) وكان كل ما لديه من عتاد المدافع ، ومدافع الهاون ، لا يكفي الا لمعركة واحدة . (٩٢) ويعود سبب ذلك الى ان الجيش الاردني لم يكن يملك مخازن للعتاد ، وانما كان يعتمد في تموينه على مخازن الجيش البريطاني .

يقول الجنرال : اننا ، حتى اذار ١٩٤٨ ، لم نكن نتوقع ان تقوم حرب بين العرب واليهود بعد اعلان التقسيم ، ولهذا لم نستعد . فلما اصبحت الحرب امرا محقق الوقوع طلبت من القائد العام للجيش البريطاني في الشرق الادنى ان يرسل لنا في الحال الى العقبة باخرة محملة بأنواع معينة من العتاد . وقد اجاب القائد العام طلبي . ولكن الباخرة ، ما كادت تغادر خليج السويس حتى قادتها سفينة مصرية وأرجعتها الى الميناء ، حيث انزلت حمولتها ، ونقلت في سيارات شحن تعود للجيش المصري . وحال قرار هيئة الامم المتحدة ، القاضي بمنع ارسال السلاح للطرفين ، دون ارسال اي سلاح للجيش الاردني (ص ٩١ - ٩٢ - ، ٢١٣) ولم تخصص الحكومة الاردنية اي مبلغ من المال في ميزانيتها لتغطية نفقات الحرب . وعندما قال غلوب لرئيس الوزراء توفيق ابو الهدى : انه بحاجة الى مقدار اضافي من المال ، لان نفقة الجيش في حالة الحرب تزيد عن نفقته في وقت السلم ، وانه لا يستطيع دخول الحرب دون الحصول على المال اللازم ، اجابه توفيق ابو الهدى : « ليس عند الحكومة الاردنية مال تعطيك اياه .. وعلى الذين يصرون على دخول الحرب ضد اليهود ان يعطوك ما تحتاج من المال » (ص ٨٢) . على ان عبد الرحمن عزام ،الامين العام لجامعة الدول العربية ، وعد غلوب بأن تدفع له جامعة الدول العربية مبلغ ثلاثة ملايين جنيه ، وسلمه منها ربع مليون جنيه (ص ٨٥) وسدد غلوب بهذا المبلغ بعض نفقات الحرب . ولكن الجامعة العربية ، بعد الهدنة الاولى ، رفضت تسليم بقية المبلغ بحجة ان الحكومة الاردنية لا تؤيد السياسة المصرية تأييدا كافيا (ص ١٧٨)

لا تقتصر مسؤولية بريطانيا في نكبة فلسطين على كونها اعطت اليهود ، بوعد بلفور ، حق الهجرة الى فلسطين ، ولا على كونها استغلت انتدابها على فلسطين فمكنت اليهود من اغتصاب اراضي العرب ،وتثبيت سلطانهم فيها ، ولا على كونها قضت على ثورة العرب في فلسطين من سنة ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ ، وشنت عليهم حرب افناء تركتهم عند انتهاء الانتداب منزوفي القوى ، ان بريطانيا مسؤولة ، مسؤولية مباشرة ، عن تسليم فلسطين لليهود سنة ١٩٤٨ . ويوضح الجنرال غلوب هذه القضية بجلاء وعدالة . عندما فشلت بريطانيا في الوصول الى حل يرضي العرب واليهود احالت القضية الى هيئة الامم المتحدة . وفي التاسع والعشرين من تشرين ١٩٤٧ اصدرت الامم المتحدة قرارها بتقسيم فلسطين ، واعلنت بريطانيا عن تخليها عن الانتداب ،وقررت سحب قواتها العسكرية من فلسطين في الخامس عشر من ايار ١٩٤٨ . كانت بريطانيا مسؤولة ،بحكم انتدابها على فلسطين ، عن رعاية حق السكان العرب والمحافظة على ارواحهم ومصالحهم . ولكنها لم تقم بواجبها هذا ، وانما سمحت لليهود بتخطي حد التقسيم ، واحتلال الاراضي العربية . اخذ اليهود ، قبيل انتهاء الانتداب ، يلقون بقواتهم لاحتلال القدس بكاملها ، وكانت القوات البريطانية تراقب الغارات التي يشنها اليهود على الاحياء العربية دون ان تحاول التدخل لمنعهم (ص ١٧١) وبينما كان الجيش البريطاني يلح على الجيش الاردني بالانسحاب من فلسطين كان اليهود قد اجتازوا خط التقسيم واحتلوا مساحات واسعة من حصة العرب حتى في المناطق التي كانت خاضعة لسيطرة الجيش البريطاني (ص ٩٨) ولم يكتف الجيش البريطاني بعدم التدخل لايقاف زحف اليهود على الاراضي العربية ،ولمنع مجازرهم التي اوقعوها في السكان العرب، بل انه اصر على الجيش الاردني ان ينسحب من فلسطين نهائيا . وقد تم انسحاب الجنود الاردنيين من فلسطين ، وعسكروا شرقي نهر الاردن ، في ١٣ ايار ١٩٤٨ وكان انسحاب الجيش الاردني من فلسطين ، قبيل انتهاء الانتداب،ورجوعه اليها بعد انتهاء الانتداب ، مهزلة تاريخية ارادت بها بريطانيا تبرير موقفها ديبلوماسيا امام الصهاينة وامام الامم المتحدة ، واعطاء فرصة لليهود لاحتلال ما يستطيعون احتلاله من فلسطين ، وربما ارادت بها ايضا اظهار الملك عبدالله منقذا لفلسطين . كان المقرر ان ينتهي الانتداب البريطاني في منتصف ليل ١٤ - ١٥ ايار . ولكن الجيش البريطاني انسحب من القدس في صباح يوم ١٤ ايار . وبقيت المدينة دون قوة عسكرية تحميها. واصبح المجال مفتوحا امام اليهود لغزو الاحياء العربية . يقول الجنرال غلوب : ان انسحاب الجيش البريطاني المبكر ، وعدم السماح للجيش الاردني بالبقاء في القدس ، مسؤول عن الدمار الذي نزل بقسم عظيم من القدس ، وعن الارواح العديدة التي ازهقت فيها (١٠٧) واصبح المجاهدون العرب يدافعون ، وحيدين ، عن القدس ضد القوات اليهودية التي تفوقهم عددا وسلاحا . كان اليهود مصممين على احتلال القدس ، متحدين قرار الامم المتحدة ، وكانوا يستخدمون مدافع الهاون ، والسيارات المصفحة ، الى جانب الاسلحة الخفيفة .

عاد الجيش الاردني الى فلسطين في صباح يوم ١٥ ايار . وفي اليوم السابع عشر وصلت كتيبتا المشاة الاولى والثامنة جبل الزيتون ،المشرف على القدس من الناحية الشرقية ، وعسكرتا فيه . ولكن الجنرال غلوب لم يأذن للجنود بالدخول الى القدس . كانت نداءات سكان القدس المتتابعة تتوالى على الملك عبدالله تخبره ان اليهود يقصفون القدس القديمة ، ويتقدمون لاحتلالها . « انقذونا ، انجدونا ، ها هم على باب يافا ،لقد احتلوا الشيخ جراح ، انهم يتسلقون سور المدينة القديمة . انقذونا اغيثونا ! » (ص ١٠٨) . وفي الثامن عشر دخل اليهود القدس القديمة من باب صهيون ، بعد ان نسفوه ، واتصلوا بالحي اليهودي في المدينة. ولم يستطع الملك عبدالله ان يصم اذنيه وقلبه عن استغاثة السكان العرب فطلب من غلوب ان يرسل قوة من الجيش للدفاع عن المدينة القديمة .ولكن غلوب لم يتحرك . وكتب اليه وزير الدفاع يخبره ان الملك يصر على ارسال قوة من الجيش الاردني لمهاجمة اليهود . ولكن غلوب لم يتحرك (ص ١١٠ ، ١٢٧) من هو سيد الجيش : الملك ام غلوب ؟ واخيرا قرر غلوب ان يأمر الجيش الاردني بدخول معركة القدس ، بعد يومين من وصوله جبل الزيتون ، بعد ثمان واربعين ساعة كانت كل لحظة فيها تعني احتلال اليهود لبيت عربي ، واغتصاب قطعة من القدس ، والفتك بمجاهد عربي . كان غلوب يأمل ان يتمكن المجاهدون العرب من حماية

---

(٤) بلغ عدد الجيش الاردني ، سنة ١٩٥٦ ، ٢٣،٠٠٠ (ص٣٣٦)

- ٢ - ملحمة نجيب محفوظ الروائية

بقلم أنور المعداوي

- ٣ -

في آخر صفحة من « قصر الشوق » ، يرسم لنا نجيب محفوظ خط اتجاه نفسي جديد لشخصية كمال ، وهـو يتلقى الصدمة الثانية بموت زعيمه وزعيم الشعب : سعد زغلول*.. كان خط الاتجاه النفسي الاول ، حين ركز كل اهتماماته العاطفية في حب فتاة من طبقة غير طبقته ،ثم خرج من هذا الصراع الطبقي وهو مهزوم .. لقد فقد في الصدمة الاولى حبه العاطفي ، وفقد في الصدمة الثانية حبه القومي ، وكلاهما كان نقطة ارتكاز موجهة ، لابرز انطلاقات السلوك الفكري والموقفي بالنسبة الى شخصية كمال في « السكرية » ، وهي الجزء الاخير من هذه الرواية الطويلة.

« مات سعد .. المنفى والثورة والحرية والدستور مـات صاحبها .. كيف لا يحزن وخير ما في روحه من وحيـه وتربيته » ؟! وماتت عايدة .. بمعنى انها خرجت مـن حياته . ان الموت حادث نسبي، مضمونه الشعوري بالنسبة الينا ، هو ان يخرج من حياتنا انسان نحبه .. ولقد هـز موتهما ـ موت حبه القومي وموت حبه العاطفي ـ جانبـا كبيرا من قيم وجوده : الامل ، والتفاؤل ، والخطوة الزاحفة الى المستقبل فوق معبر من الطموح والثقة بالنفس !

صورة طبيعية لشخصية انسانية صميمة ، لونها نجيب محفوظ ، دون ان يلجأ الى افتعالية الرتوش .. انه يقـدم الينا عنصر التبرير الموضوعي لتحول هذه الشخصية مـن موقف الى موقف . اقوى الاقوياء لا تخلو حياتهم من لحظات الضعف ، ولكن افتعالية الرتوش هي التي تظهر لنا الصورة الانسانية وقد خلت من الوان تلك اللحظات ، وكأن الانسان آلة تسيرها قوة منظورة الى طريق مرسوم .. نجيـب محفوظ ـ كدارس سيكولوجي واجتماعي من خـلال العمل الروائي ـ لا يتورط في فرض تلك الآلية على ابطاله. ومن هنا تبدو شخصياته وهي بعيدة عن قابلية التحول من موجات نفسية تندفع وتنحسر في نهر الحياة ، الى دمـى خشبية تفرض عليها الاصابع المحركة ان تتخذ اوضاعـا معينة !

في الفصل الرابع من « السكرية » نرى كمال وهو يندفع مع الجموع الشعبية الى سرادق الاحتفال بعيد الجهـاد الوطني .. « كان هذا ثامن عيد يشهده ، وكان كالآخرين قد امتلأ بمرارة التجارب السياسية التي خلفتها الاعـوام السابقة ، الاعوام التي تلت موت سعد . وقال لنفسه وهـو يستعيد ذكريات تلك المرارة : لقد عاصرت عهد محمد محمود الذي عطل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد واغتصب حرية الشعب . كما عشت سنين الارهاب والعهر السياسي التي فرضها اسماعيل صدقي على البلاد .. كان الشعب يثق في قوم ويريدهم حكاما له ، ولكنه كان يجد فوق رأسه دائما اولئك الجلادين البغضاء ، تحميهم هراوات الكونستبلات الانجليز ورصاصهم . وسرعان ما يقولون له بلغة او بأخرى: انت شعب قاصر ونحن الاوصياء .. والشعب يخوض المعارك دون توقف فيخرج من كل معركة وهو يلهث ، حتى اتخذ في النهاية موقفا سلبيا شعاره الصبر والسخرية ،فخلا الميدان الا من الوفديين من ناحية والطغاة من ناحية اخرى ، وقنع الشعب بموقف المتفرج وراح يشجع رجاله في همس ، دون ان يمد لهم يدا .. ان قلبه لا يستطيع ان يتجاهل حياة الشعب ، انه يخفق معه دائما ، رغم عقله التائه في ضباب الشك » !

من خلال هذا التسجيل النفسي والتاريخي ، يتخذ نجيب محفوظ من شخصية بطله كمال ، احدى اللافتات المضيئة التي تشير الى منعطفات الدروب الاتجاهية ، بالنسبة الـى جيل بدأت خطواته وهي ثابتة ثم انتهت وهي متعثرة ، لان رصيده من أسلحة المقاومة لم يكن متكافئا مع رصيـد اعدائه من اسلحة القمع والارهاب .. وفي ضوء هـذه اللافتة ، نرى كمال وقد بدأ يتأزم ، نراه وقد بدأ ايمانـه بالقيم يهتز .. هذا الشعب الذي استكان للطغاة في سلبية مثيرة ، اهو ذلك الشعب الذي كان يلتقي به في الجهـاد الوطني ، فيذكره هديره العاصف بأن في « مكتبته ـ اي مكتبة كمال ـ اصدقاء قليلين ممتازين مثـل دارون وبرجسون ورسل ، وفي هذا السرادق ألوفا من الاصدقاء يبدون بلا عقول ، ولكن يتمثل في مجتمعهم شرف الغرائز الواعية ، وليسوا في النهاية دون هؤلاء المفكرين خلقـا للحوادث وصنعا للتاريخ » ؟! ان ايمان كمال بالشعب ، بدأ يعتريه الشك .. وزحف الشك بعد ذلك الى ايمانه بالعلم وبالفلسفة .. لقد اصبح من رأيه أن « الفلسفات قصور جميلة ، ولكنها لا تصلح للسكنى » ! اما العلم فقد غدا مـن خلال رؤيته العقلية : « دنيا مغلقة من حولنا لا نعرف الا بعض نتائجها القريبة . لقد اطلع على آراء نخبة من العلماء يرتابون في مطابقة الحقيقة العلمية للحقيقة الواقعية ، وآخرين ينوهون بقانون الاحتمال ، وغيرهم ممن تراجعوا عن ادعاء الحقيقة المطلقة .. فلم يلبث ان حرك رأسـه مرتابا » !

كان له ايمانه الديني ثم ايمانه بالحقيقة ، ولم يلبث الله ان خرج من عالم كمال ، ولم يلبث ان خرج بعده رسل وبرجسون واسبينوزا وداروين .. ويقول له صديقه عبدالعزيز الاسيوطي صاحب مجة « الفكر الحر » التي يشارك في تحريرها ببحوثه ودراساته : « انت اعزب في فكرك كما انت اعزب في حياتك » ! ويقول كمال لنفسه : « ترى اكانت عزوبته نتيجة لفكره ، ام كان فكره نتيجة لعزوبته ، ام ان الاثنين كانا نتيجة لشيء ثالث » ؟!

في هذا المنولوج الداخلي الموجز ، يقدم نجيب محفوظ خريطة المعالم النفسية لازمة بطله كمال . وعلى امتداد الخطوط في هذه الخريطة ، نستطيع ان نحدد تضاريس تلك الازمة التي صنعت شتى الاتجاهات الاخيرة لشخصيته .. ان مضمون الفكر الاعزب والحياة العزباء ، هو في جوهره مضمون الوحدة المقلقة ، وهذه الوحدة كما تساءل كمال بينه وبين نفسه ـ كانت نتيجة لشيء ثالث ، والشيء الثالث كان في ضوء الواقع شيئين : لقد هزم الشعب ـ بعد موت سعد ـ في صراعه القومي ضد الاقلية والاستعمار والقصر ، وهزم هو ـ اي كمال ـ في صراعه الطبقي ضد عايدة .. ومن هنا ، من هذين المنبعين الرئيسيين ، انبثق تيار الازمة العقلية والنفسية جارفا معه ايمان كمال بأكثر مما اعتنقه من قيم . وتدفقت بعد ذلك في حياته تيارات اخرى من منابع جديدة ، عمقت مجرى الازمة وجسمت معالم المشكلة .. لقد سيطر الانحلال الخلقي على المجتمع ، واصبح المنحلون اخلاقيا ـ من امثال رضوان ابن اخيه ياسين ـ هم اصحاب الحظوة والنفوذ لدى المسؤولين من رجال الحكم ، اما هو ـ الانسان الجاد الذي كان مرتبطا في حياته بقيم ومبادىء ـ فقد بقي مدرسا مغمورا يلقن مبادىء اللغة الانجليزية لتلاميذه الصغار ، واستمر موظفا صغيرا لم يتخط بعد عشرة اعوام من العمل المرهق حدود الدرجة السادسة . وحين يتقرر نقله الى اقاصي الصعيد لا يجد من يتوسط له ويبقيه في القاهرة ، غير ابن اخيه الناعم المنحل الذي لا يعرف مبادىء الشرف .. وماذا كانت النتيجة التي خرج بها من ايمانه بالثقافة ؟ لقد ادرك اخيرا ان الثقافة لا كرامة لها في بلده ! ان اخاه الجاهل ياسين ـ بفضل المكانة المرموقة لنجله المنحرف ـ قد سبقه في ميدان المكاسب المادية من وظائف الحكومة .. وصديقه فؤاد ـ ابن جميل الحمزاوي الذي كان عاملا في محل ابيه السيد احمد عبدالجواد ـ اصبح يخاطب رب نعمته بلغة التعالي والكبرياء وقد وضع ساقا على ساق ، لانه اليوم وكيل للنيابة بعد ان تخرج في مدرسة الحقوق او مدرسة النفوذ ، ولم يتخرج كما فعل هو في مدرسة المعلمين او مدرسة الثقافة .. والدراسات الجادة العميقة التي كان ينشرها في مجلة « الفكر الحر » ، لم تجد من يقدرها في مجتمع تسوده في ميدان الفكر والخلق والسياسة كل اسباب التدهور !

ويقول له صديقه رياض قلدس الكاتب القصصي الذي كان يشاركه في تحرير تلك المجلة : « انك تعاني ازمة فريدة ، كل ما عندك مزعزع الاركان ، عبث وقبض الريح ، نضال اليم مع اسرار الحياة والنفس ، وملل وسقم ، اني ارثي لك .. انك توحي الي بشخصية الرجل الشرقي الحائر بين الشرق والغرب ، الذي دار حول نفسه كثيرا حتى اصابه الدوار » ! ويقول كمال لنفسه وقد تفجر في داخله احد المنبعين الرئيسيين لازمته : « يتكلم عن الشرق والغرب .. ولكن من اين له ان يعرف عايدة ؟ قد تكون التعاسة متعددة الجوانب » !

هل انتهى كمال الشخصية المصرية الصميمة المعبرة عن واقع جيل مأزوم ، والتي انتزع لها نجيب محفوظ ـ من خلال لحظات ضعفها النبيل ـ كل ما في نفوسنا من ايجابية الثورة على مجتمع بشع ، تعود ان يحطم اروع ما يستقر في نفوس افراده من ايمان بالقيم ؟!

لقد انتهى كمال ليبدأ من نقطة النهاية .. ليبدأ في شخصية اخرى رسمها نجيب ، لتكون واجهة عرض جديدة للجيل المتطور الذي مهد لثورة ١٩٥٢ . انها شخصية احمد شوكت ، المكافح الشاب صاحب الافكار التقدمية ، المعبر عن انتفاضة الشعب الناطقة بعد صمت طويل .. انتهى

فهمي ليبعث في كمال ، وانتهى كمال ليبعث في ابن اخته احمد ، من خلال قطاع طولي ممتد عبر العمل الروائي على مدار الاجزاء الثلاثة . ومن وراء الزجاج الشفاف لواجهة العرض الجديدة ، نلمح مجموعة القيم العقائدية لشخصية احمد شوكت :

« ان الوفد حزب الشعب ، وهو خطوة تطورية وطبيعية في آن .. كان الحزب الوطني حزبا تركيا دينيا رجعيا ، اما الوفد فهو مبلور القومية المصرية ومطهرها من الشوائب ، الى انه مدرسة الوطنية والديمقراطية ، ولكن المسألة ان الوطن لا يقنع ولا ينبغي له ان يقنع بهذه المدرسة .. نريد مرحلة جديدة من التطور ، نريد مدرسة اجتماعية لان الاستقلال ليس بالغاية الاخيرة ، ولكنه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والانسانية ... اما الادب فهو وسيلة من وسائل التحرير الكبرى ، ولكنه قد يكون وسيلة للرجعية ، فمن الازهر ودار العلوم خرجت آداب مرضية عملت اجيالا على تجميد العقل والروح ... والعلم اساس الحياة الحديثة ، ينبغي ان ندرس العلوم وان نتشبع بالعقلية العلمية . الجاهل بالعلم ليس من سكان القرن العشرين ولو كان عبقريا ، وعلى الادباء ان ينالوا حظهم منه . لم يعد العلم وقفا على العلماء ، اجل لهؤلاء التضلع والتعمق والبحث والكشف ، ولكن على كل مثقف ان يضيء نفسه بنوره وان يعتنق مبادئه ومناهجه .. ادرس الاداب كما تشاء ، ولكن لا تنس العلم الحديث . ولا يجب ان تخلو مكتبتك ـ الى جانب شكسبير وشوبنهور ـ من كونت وداروِن وفرويد وماركس وانجلز . لتكن لك حماسة اهل الدين ، ولكن ينبغي أن تذكر ان لكل عصر انبياءه .. وأن انبياء هذا العصر هم العلماء » !

هذه الافكار والمبادىء ، تلقاها البطل الثاني للسكرية عن استاذه عدلي كريم رئيس تحرير مجلة « الانسان الجديد » وسرعان ما آمن بها ، واستقرت جذورها في اعماقه ، واتخذ منها شعاره القومي والانساني في معركة المصير .. ولقد كان احمد شوكت معجبا بخاله كمال ، ككاتب يمثل الطبقة المثقفة في جيله . ولكنه يتلقى من زميلته سوسن حماد ـ الصحفية المستنيرة التي اصبحت فيما بعد شريكة حياته ـ يتلقى من نقدها الموضوعي لموقف كمال الثقافي ، ما يضيف الى وجوده الفكري مزيدا من اللحظات المضيئة .. ان كمال الكاتب ، من خلال المنظار النقدي لسوسن : «واحد من الذين يهيمون في تيه الميتافيزيقيا .. انه يكتب كثيرا عن الحقائق القديمة : الروح .. المطلق .. نظرية المعرفة . هذا جميل ، ولكنه ـ فيما عدا المتعة الذهنية والترف الفكري ـ لا يفضي الى غاية ! ينبغي ان تكون الكتابة وسيلة محددة الهدف ، وأن يكون هدفها الاخير تطوير هذا العالم ، والصعود بالانسان في سلم الرقي والتحرر .. الانسانية في معركة متواصلة ، والكاتب الخليق بهذا الاسم حقا يجب ان يكون على رأس المجاهدين . اما وثبة الحياة فلندعها لبرجسون وحده .. عندما يكون الانسان متألما يركز اهتمامه في ازالة اسباب الالم ، مجتمعنا متألم جدا فيجب ان نزيل الالم قبل كل شيء .. ولنا بعد ذلك ان نلهو وأن نتفلسف » !

هذه اللحظات المضيئة التي تصنعها الكلمة الموجهة ، تبرز موقف الكاتب من مشكلات عصره .. انها تمثل دورا قياديا بالنسبة الى المحيط الفكري للمجموع القارىء . ونجيب محفوظ لا يقتصر على الواقعية الايحائية لابراز مثل هذا الموقف الالتزامي ، ولكنه يجسم عملية العرض بمجموعة من الاحداث المتشابكة ، التي يربط فيها بين السلوك الداخلي والسلوك الخارجي لشخصياته .. ومن هنا يمكننا ان نتابع خطوات احمد شوكت ـ النموذج الصاعد للجيل الذي مهد لثورتنا الاخيرة ـ وهو يشق طريقه الى هدف محدد ، تقوده اضواء باهرة من الايمان بقيم جديدة ، عمادها التطلع الى حياة افضل !

لقد انتهت هذه الخطوات بصاحبها الى المعتقل ، ومن وراء القضبان كانت افكار احمد شوكت ومبادئه تتسلل الى الخارج ، لتنضم الى امواج المد التطورية في نضالها الزاحف .. وعلى اصداء تلك الافكار والمبادىء استيقظ ماضي الجيل المأزم ممثلا في كمال وبدأ يرتبط بالحاضر ويتفاءل بالمستقبل .. ويقول كمال لصديقه رياض قلدس بعد ان هزت ضميره قوى الدفع الجديدة : « ان من المستحسن دائما ان يتأمل الانسان ما يراود نفسه من احلام ، وعلى ذلك فالتصوف هروب ، كما ان الايمان السلبي بالعلم هروب ، واذن فلا بد من عمل ، ولا بد للعمل من ايمان ، والمسألة هي كيف نخلق لانفسنا ايمانا جديرا بالحياة .. دعني اخبرك بما قال لي احمد شوكت عندما زرته في سجن القسم قبل نقله الى المعتقل . لقد قال لي: ان الحياة عمل وزواج وواجب انساني عام ، وليست هذه المناسبة للحديث عن واجب الفرد نحو مهنته او زوجه ، اما الواجب الانساني العام فهو الثورة الابدية ، وما ذلك الا العمل الدائب على تحقيق ارادة الحياة ممثلة في تطورها نحو المثل الاعلى .. اتدري ماذا قال ايضا ؟ قال اني أومن بالحياة وبالناس ، وارى نفسي ملزما باتباع مثلهم العليا ما دمت اعتقد انها الحق ، اذ النكوص عن ذلك جبن وهروب .. كما ارى نفسي ملزما بالثورة على مثلهم ما اعتقدت انها باطل ، اذ النكوص عن ذلك خيانة .. وهذا هو معنى الثورة الابدية » !!

لقد بدأ كمال يفيق من الاغماءة النفسية الطويلة ، بدأ يستعيد ايمانه بنفسه ، وبالشعب ، وبالحياة .. لقد انتفض مع الانتفاضة الجديدة .. وحين التقى القطب السالب بالقطب الموجب ، اندلعت الشرارة المقدسة التي اضاءت للجموع الزاحفة معالم الطريق !

ـ ٤ ـ

المضمون الاجتماعي والاتجاهي ـ كما عرضناه في نقدنا

لهذه الملحمة الروائية ـ ينحصر حتى الان في نطاق القطاع الطولي لمجرى الاحداث والمواقف ، اما القطاعات العرضية فيستخدمها الكاتب ـ كما اشرنا الى ذلك في الفصل الاول من هذه الدراسة ـ كروافد فنية ، تعين المجرى الرئيسي على الانطلاق ، هذه القطاعات او هذه الروافد تمثل الاطراف المتقابلة على جوانب الحيز الامتدادي لخط التطور، كما رسمه الواقع التاريخي للمجتمع المصري ، وكما لونه الالتزام الموقفي لنجيب محفوظ .

ان الاطراف المتقابلة تواجهنا مرة من داخل الاطار السلوكي للشخصية ، وتواجهنا مرة اخرى من داخل الاطار الاتجاهي للثقافة ، وتواجهنا مرة ثالثة من داخل الاطار المذهبي للعقيدة السياسية والدينية .. هناك تقابل من ناحية المفهوم الثقافي والسياسي بين كمال واحمد شوكت ، وتقابل من ناحية المفهوم القومي والديني بين كمال رياض قلدس، وتقابل من ناحية العقيدة المذهبية بين احمد شوكت واخيه عبد المنعم ، وتقابل من ناحية الوضع الاجتماعي بين امينة وسوسن حماد . فبينما نجد مفهوم الثقافة عند الجيل الذي يمثله كمال ، هو مفهوم القراءة والاطلاع لمجرد الترف العقلي والمتعة الذهنية ، نرى هذا المفهوم يتطور عند الجيل الذي يليه والذي يمثله احمد شوكت ، بحيث تتحول الكلمة المقروءة من عملية اضاءة بالنسبة الى الفرد ، الى عملية قيادة بالنسبة الى المجموع .. الى تحقيق مصير عادل بالنسبة الى قضية الانسان . وبينما نرى كمال يؤمن بالوفد كحزب يمثل الاغلبية الشعبية وامانيها في الاستقلال، ويقف بايمانه عند هذا الحد كنقطة نهائية لهدفه الاتجاهي، نرى احمد شوكت وهو يتخطى بتفكيره هذه النقطة ، وينظر الى الوفد على انه مرحلة انتقالية يجب ان تعقبها مراحل اخرى من البناء الهادف الى اسعاد الجماهير .. وكمال وعايدة ـ يقابلهما داخل الاطار السلوكي للشخصية ـ احمد شوكت وعلوية صبري . نفس الصراع الطبقي الذي ينتهي هنا كما انتهى هناك ، بهزيمة الطرف الممثل للطبقة الوسطى من الشعب ! ولكن حين يتأزم كمال وتترك الازمة رواسبها العميقة في نظرته الى الحياة والناس ، يتماسك احمد شوكت ويرتفع بطموحه فوق مستوى الموقف ، ويرتبط بفتاة من طبقته ويحول الهزيمة الى انتصار .. لقد بقي كمال مأزوما حائرا حتى بعد ان احب بدور اخت عايده ، ولم يستطع ان ينتصر على نفسه ليرتبط بهذه الفتاة التي ارغمها الزمن ، على ان تهبط من عليائها الى المستوى الطبقي الذي ينتمي اليه !

يقول له صديقه رياض : « أمن المعقول ان تحبها وأن يكون في وسعك ان تتزوجها .. ثم تمتنع عن زواجها »؟ فيجيبه بأنه يحبها ولكنه لا يحب الزواج ! فيقول له محتجا: « ان الحب هو الذي يسلمنا للزواج ، فما دمت لا تحب الزواج كما تقول فأنت لا تحب الفتاة » ! فيجيبه باصرار : « بل أحبها وأكره الزواج » ! فيقول له : « لعلك تخاف المسؤولية » . فيجيبه محتدا : « اني احمل من اعباء المسؤولية في بيتي وفي عملي ما لا تحمل بعضه » !ويعقب رياض : « لعلك اناني اكثر مما اتصور » . فيقول ساخرا : « وهل يتزوج الفرد الا مدفوعا بأنانيته الظاهرة والخفية »؟! ويقول له : « لعلك مريض فاذهب الى طبيب نفساني لعله يحللك » ! فيجيب : « من الطريف ان مقالتي القادمة في مجلة الفكر عن : « كيف تحلل نفسك » ! فيقول له :«اشهد لقد حيرتني » . فيكون جوابه : انا الحائر الى الابد » !

كان مصابا بانقسام الشخصية من ناحية ، وبدا له الحب من ناحية اخرى « دكتاتورا » وقد علمته الحياة السياسية في مصر ان يمقت الدكتاتور من صميم قلبه .. ففي بيت العالمة جليلة كان يهب « عطية » جسده ثم سرعان ما يسترده ، وكأن ما كان لم يكن ! اما هذه الفتاة المستكنة في حيائها فلن تقنع بما دون روحه وجسده جميعا الى الابد »!

.. اننا مرة اخرى امام لحظة تفجير لاحد المنبعين الرئيسيين لازمة كمال ، امام هزيمة الشعب في صراعه السياسي ضد الدكتاتورية ! لقد مرت بنا لحظة تفجير اخرى للمنبع الاخر ، حين أثار رياض في نقاشه مشكلة الشرقي الحائر بين الشرق والغرب ، فأثار بها في نفسه مرارة الذكرى المترسبة من مشكلته مع عايدة .. لقد كره الدكتاتور الطبقي في شخص عايدة ، كما كره الدكتاتور السياسي في شخص صدقي ومحمد محمود . وعلى طول المدى الانفعالي بهذه الديكتاتورية السياسية والطبقية، تعذب كل ما فيه حتى الحب !!

واذا ما انتقلنا الى القطاع العرضي الذي نرى من خلاله كمال كرمز للاكثرية المسلمة ، ورياض قلدس كرمز مقابل للاقلية المسيحية في المجتمع المصري ، رأينا نجيب محفوظ يطالعنا بوجهة نظر موقفية لمشكلة الوضع الديني والقومي لهذه الاقلية ، مع التزامية الصدق التاريخي في عرض جوانب المشكلة .. يقول رياض لصديقه كمال : « ان الاقباط جميعا وفديون ، ذلك ان الوفد حزب القومية الخالصة .. القومية التي تجعل من مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم . اعداء الشعب يعلمون ذلك ، ولهذا كان الاقباط هدفا للاضطهاد السافر طوال عهد صدقي ، وسيعانون ذلك منذ اليوم » ! ويقول له كمال في دعابة : « ها انت تتحدث عن الاقباط ، انت الذي لا يؤمن الا بالعلم

ويعقب رياض في حماسة : « اني حر وقبطي معا ، اشعر في احايين كثيرة بأن المسيحية وطني لا ديني ، وربما اذا عرضت هذا الشعور على عقلي اضطربت . ولكن مهلا ،

أليس من الجبن ان أنسى قومي ؟ شيء واحد خليق بأن ينسيني هذا التنازع ، الا وهو الفناء في القومية المصرية الخالصة كما ارادها سعد زغلول » ! ويقول كمال وصدره يجيش بالعواطف : « لا تؤاخذني ، فقد عشت حتى اليوم دون ان اصطدم بمشكلة العنصرية .. فمنذ البدء لقنتني امي ان احب الجميع ، ثم شببت في جو الثورة المطهر من شوائب التعصب ، فلم اعرف هذه المشكلة » ! ثم يسأله : « وكيف نستأصل مشكلة كهذه من الجذور » ؟ ويجيب رياض : « من حسن الحظ انها ذابت في مشكلة الشعب كله ، مشكلة الاقباط اليوم هي مشكلة الشعب .. اذا اضطهد اضطهدنا ، واذا تحرر تحررنا » !

ان التزامية الصدق التاريخي هنا ، تبدو لنا من خلال الواقع الاجتماعي الذي يصوره نجيب محفوظ بأمانة ... ذلك لان اضطهاد الاقباط في تلك الفترة بواسطة الدكتاتورية الحاكمة وأشياعها من ابناء الرجعية الشعبية ، كان بسبب الاتجاه السياسي ولم يكن بسبب العقيدة الدينية ، ولعل نجيب محفوظ يرمز الى الوحدة الشعورية كرباط قومي بين الاكثرية المسلمة والاقباط ، بتلك الصداقة الخالصة من التعصب بين كمال ورياض قلدس . وكل خلاف طائفي يمكن النظر اليه على ضوء الجانب الموقفي للكاتب ، وهو جانب الدعوة الى الفناء في القومية المصرية .. ولقد اتسع الافق المذهبي اليوم لهذه الدعوة ، حتى شمل المفهوم الانساني العام لمعنى « الفناء » بالنسبة الى القومية العربية!

وفي مجال الاسرة الصغيرة ـ اسرة شوكت ـ يدير نجيب محفوظ صراعا مذهبيا بين احمد شوكت وأخيه عبدالمنعم .. انه الصراع الذي شهده المجتمع المصري بين اتجاهين متناقضين ، لكل منهما نظرته العقائدية الخاصة الى تنظيم الحياة الاجتماعية على اسس معينة . ومن داخل هذا القطاع العرضي الجديد نتابع خط السير الفكري لاحمد التقدمي المتطور ، والخط الاخر المضاد الذي يتخذه عبدالمنعم كشعار اتجاهي للاخوان المسلمين .. يقول عبد المنعم في معرض النقاش بينه وبين احمد : « لسنا جمعية للتعليم والتهذيب فحسب ، ولكننا نحاول فهم الاسلام كما خلقه الله ، دينا ودنيا وشريعة ونظام حكم .. ماذا تعرف عن الاسلام حتى تهرف بما لا تعرف » ؟! ويرد احمد بهدوء : « اعرف انه دين ، وحسبي ذلك ، انا لا أومن بالاديان » ! ويتساءل عبدالمنعم مستنكرا : « ألديك برهان على بطلان الاديان » ؟! ويجب احمد بنفس الهدوء : «الديك انت برهان على حقيقتها » ؟! ويعقب عبدالمنعم محتدا: «عندي وعند كل مؤمن ، ولكن دعني اسألك اولا كيف تعيش » ؟ ويقول احمد باعتداد : « بايماني الخاص ، ايماني بالعلم وبالانسانية وبالغد ، وبما ألتزمه من واجبات ترمي في النهاية الى تمهيد الارض لبناء جديد » ! ويصيح عبدالمنعم في غضب : « لقد هدمت كل ما الانسان انسان به » !ويواصل احمد انطلاقه الجدلي : « بل قل ان بقاء عقيدة اكثر من الف سنة ليست آية على قوتها ، ولكن على حطة بعض بني الانسان .. ذلك ضد معنى الحياة المتجددة . ما يصلح لي وأنا طفل يجب ان أغيره وأنا رجل .. طالما كان الانسان عبد للطبيعة والانسان ، وهو يقاوم عبودية الطبيعة بالعلم والاختراع كما يقاوم عبودية الانسان بالمذاهب التقدمية . ما عدا ذلك فهو نوع من الفرامل الضاغطة على عجلة الانسانية الحرة » !!

هكذا يرافق نجيب محفوظ موكب التطور الحياتي للمجتمع المصري من مختلف زواياه ، وما تزال الروافد الجانبية في العمل الروائي تصب في المجرى الكبير ... فشخصية سوسن هي الامتداد التطوري لشخصية امينة. لقد حطمت المرأة المصرية قضبان السجن وخرجت الى الحياة .. من البيت الى الشارع ، ومن رق الزوجية الى حرية الارادة ، ومن جمود الانطواء الى حركة الانطلاق ،ومن سلبية الوضع الاجتماعي الى ايجابية المشاركة في توجيه المصير . ونظرة الرجل الى المرأة تتفاوت هي الاخرى على مدار الاجيال : ينظر اليها احمد عبدالجواد في صورة امينة، كمصنع آدمي لانتاج النسل ، وكجارية تناديه دائما بكلمة « يا سيدي » تجسيما للعبودية المعترفة بالاستبداد كحق مشروع ! وينظر اليها في صورة زنوبة ، وزبيدة وجاليلة كنموذج ترفيهي في مجال العلاقة الجنسية .. وينظر اليها فهمي في صورة مريم جارته الجميلة ، التي تبلغ من فهم الحياة مرحلة تتساوى فيها مع اختيه خديجة وعائشة ، وتتفوق فيها نسبيا على امه .. وينظر اليها كمال في صورة عايدة ، كنموذج للمستوى المعيشي الرفيع والجمال الارستقراطي الباهر والثقافة الفرنسية المتميزة ، كرد

كلمات لا تعرف السعادة

ما يولد في الظلمات يفاجئه النور ...
فيعريه
لا يحيا حب غوار في بعض الشك او التمويه
لا يقتات الانسان فم الجرح الصديان، ويلتذ
لا توضح كف في نار ، لا تهتز
اشباح الماضي ـ بئس الرؤيا ـ حين تجهنمها الغيره
فاذا لاقى قلبان تقيلان الدنيا
ظنا ما مات يكفن في الكلمات الحلوه
في الالفاظ البيض المجلوه
في العهد المسبل فوق الامس ، ودون اليوم ، وحول
(الذكرى

وهما قالا للنسيان
يا نسيان ، اجمع ذكرانا واقذفها في البحر
يا نسيان ، اجعل ماضينا من اصداف ، مستقبلنا من تبر
فهما قلبان ، وان فرحا بالعمر شقيان
عشنا .. عشنا ..
في مضجعنا ، مما عشناه ، نخبي جزءا ، نكشف جزءا
لو افلت حلقانا ، لو قلنا مما خبأنا شيئا
لتفرقنا ، لتفرق قلبانا .. وصرخنا .. نأيا .. نأيا
لتبدت في عينينا رؤيا
أشباح الماضي حين تجهنمها الغيره

صلاح عبد الصبور

فعل لحرمان بيئته الشعبية من كل هذه القيم المغرية !... وينظر اليها احمد شوكت في صورة سوسن ، الفتاة المكافحة المستنيرة التي تكسب قوتها بعرق الجبين ، ولا تستمد فتنتها الانثوية في نظره من جمال الوجه كما يفعل الاخرون، وانما تستمدها من جمال الفهم لمشكلة الحياة وقضيــــة الانسان !

على ضوء الرؤية النقدية لواقعية نجيب محفوظ الايحائية نستطيع ان ننظر اليه وهو يتخذ موقفه الى جانب التطور بالنسبة الى الاطراف المتقابلة ، حتى لقد جعل كمال فــي نهاية « السكرية » يتفاعل تفاعلا ايجابيا مع خطوات النضال الجديد .. ونجيب في واقعيته لا يفرض الشخصية على الموقف وانما يفرض الموقف على الشخصية ، بمعنى انه يضع الشخصية في مستوى عقلي معين يتحتم معه ان ترتبط بسلوك موقفي مناسب ، وهذا ما نلاحظه عــلى شخصياته في مختلف المواقف والمستويات .. ان فرض الشخصية على الموقف عند كتاب الواقعية الايديولوجية ، ناتج من كون الموقف جاهز الاعداد مقدما في ذهن الكاتب وأن الشخصية قد تكون غير جاهزة الوجود في الواقـــع الخارجي ، ومن هنا نشعر ان الكاتب الايديولوجي غالبا ما « يجوف » الشخصيات ليملأها بأفكاره الذاتية !

ومع ذلك فان هذه الملحمة الروائية ـ كعمل فني يقف موقف الندية من انضج الاعمال المماثلة في ادب الغرب ـ لا تخلو من بعض المآخذ .. فنجيب محفوظ مثلا ـ وعلــى الاخص في « بين القصرين » ـ يسرف احيانا في رسـم الابعاد النفسية لبعض الشخصيات من خلال عملية السرد .. وعيب هذه الطريقــة انها تطبع خط السـير الحدثي بطابع البطء والرتابة!

ان الحركة بطيئة في بعض فصول الجزء الاول من هذه الرواية ، ولو رسم نجيب تلك الابعاد النفسية من خــلال اللقطات الحديثة والموقفية ، لرأينا تلك الحركة الجياشة التي شملت الوجود الداخلي والخارجي للشخصيات فــي « قصر الشوق » وبلغت الذروة في ابراز العنصر التجسيمي والتركيزي لمختلف اتجاهات النسيج الروائي في «السكرية» .

وهناك قطاعات عرضية قليلة ، تخرج عن نطاق البعــد الموضوعي الرئيسي للمشكلة في خطوطها العامة .. وذلك حين يعمد نجيب الى التفصيلات الجزئية لما يدور احيانا من احداث ذاتية في الجو العائلي لآل شوكت ، او في جــو المغامرات الجنسية لطبقة العوالم المغنيات من امثال زبيدة وجليلة وزنوبة ، او في جو العلاقات البيئية والشعوريـــة بين احمد عبدالجواد وأصدقائه من طبقة التجار .. لا تخلو عملية الالتقاط من الاسراف في تجميع كل الزوايـا مــن اجل اكتمالية الصورة ، وكنا نفضل لو لجأ نجيب الــى « الاختيار » .. فاختيار الزاوية المعبرة قد تغنينا عــن زوايا كثيرة ، واختيار اللقطة الموحية قـد تغنينـا عــن مجموعة كاملة من اللقطات !

القاهرة **انور المعداوي**

رجل ... على الأرصفة

قصة بقلم مطاع صفدي

لست ادري لماذا انا معلول بالحزن . ينظر اصدقائي الي فيرون الحزن في وجهي قبل ان يروا وجهي . انهم بسطاء أنقياء، يفتشون عن علتي : ولكنني انا وحدي من كنت حزينا بدون علة . من كنت انظر مجرد نظر اليهم . ابادل عيونهم بالنظرة المتسائلة ذاتها ... لعلهم فخورون تقريبا بانهم يعرفون كيف يعطفون علي ، كيف يكتشفون حزني ، ومن ثم كيف يدارونني بالنظرة المتسائلة : لماذا انا حزين ، وحتى في هذا الوقت الجديب ، وقت لا حزن ولا فرح ، مجرد وجود، هامشي خام ، لا صفة له الا انه مستمر ، متبطل ، منثور بلا هدف ولا حدود ...

انا انسان مثقف بشهادة ، متشرد بلا صنف ، وجدت نفسي دفعة واحدة ، ودون اي تأكيد وجدتني على الارصفة. انني رجل على الارصفة ، اعبر الطريق ذاته الاف المرات ، اترنم بصدى اقدامي على الحجارة المهترئة ، انظر الى الواجهات ذاتها مرة كل نفس ، ومرة كل نفس احدق بالوجوه من حولي ، ذات الوجوه والواجهات ، وذات النظرة مني ، اعرفهم ويعرفونني ، وكل شيء انتهى قبل ان يولد ضمن حدود هذا الفراغ الاصم الا من صراخ الوحشة الازلية تمتد في نقطة اولى في بداية الشارع لتنتهي نقطة فراغ في كل صدر ، وتجمداً لآدميا في كل عين، ونوعا من اللامبالاة المحنطة بالموسيقى في كل وتر من قلب ، وتر قديم صديء يتمطى بانغام شيطانية بدون كفر حقيقي .. حتى بدون كفر حقيقي!

انا رجل ، مع ذلك ، رجل مرتب جيدا من لمعة شعري حتى لمعة حذائي. ولدت من اب يملك عشرين قرية شمالي حلب ، ومن ام تحدرت من الامراء والاكراد في شمالي الجزيرة ، ولقد فضضت اكثر من تسع بكارات لتسع فتيات التقيت بهن في اي مكان ، فوق القش في اصطبل البيت الاقطاعي ، في سيارة ، في عطفة شارع من ليل مظلم ، على فراش من الزهر المحنط في غرفة مأجورة .. وانسان مأجور ، وانسانة مأجورة ، وقدر حقير من الحياة الحقيرة ، بدون الهة .

وعندما رسبت للمرة الرابعة في شهادة البكالوريا قررت ان انتحر ، لولا ان ابي استطاع بقدرة قادر ان يجعلني فتى ناجحا في الشهادة ، ويرسلني الى فرنسا لادرس الطب!

رجعت الى دمشق وكان ذلك عام ١٩٤٥ .. شهر حزيران من ذلك العام .. كان ثمة شيء اخر في شوارع المدينة. كان الاهلون يهتفون ويهللون، ويتزاحمون بالصياح والاجسام والشعارات . كان ثمة شيء آخر سمي انذاك بعيد الجلاء. ووجدتني بين الجماعات على الارصفة ارقص واغني وادبك، وانشد اغاني الفلاحين ، تلك التي ما كنت اسمح لاذني بان تستمع اليها لحظة في قرى ابي من قبل .

كان اهلي ينتظرونني في حلب يعدون زفافي من ابنة اقطاعي اخر . ولكنني لم ارجع الى حلب .. وها قد مضى اكثر من اثنتي عشرة سنة . وانا رجل على الارصفة بدون ماض . بدون اهل ، بدون اي تصنيف سابق علي .. وأبى والدي الا ان يتركني لضلالي ، وابيت الا ان استبسلم لحكمتي الجديدة .. هكذا عرفت كيف اولد مرة ثانية ، بدون اب ، بدون ام ، بدون ظروف ، اية كانت الظروف من بلدة واسرة ، وتاريخ ، وعيون عجماء مليئة بحقد الالاف من الناس المغمورين تحت طين القمح وجفاف القش المترامي مع رياح الشمال الى اية جهة في الفراغ الاصم.

كان هناك شاب نحيل اصفر مصلوب العينين على شيء صلب ، مشدود الشفاه على حروف يتمسك بها تمسكه بحياته . كان الشاب يدفعني بمنكبيه وسط الجموع المتلاطمة .. وحدجني ببصقة نظرة :

ــ ما بالك ؟ لماذا لا تسير كما يجب ..

ــ الى اين ؟

ــ يا لك من ابله ..

ودفعني ثانية بمنكبه العظمي فثقب لحم كتفي . وقذفت بي الجموع من موجة الى اخرى فاذا بنا اخيرا امام بناية من اربعة طوابق .. واندفع النحيل الاصفر العظمي صائحا :

ــ سأصعد اليه .. احرسوا مخارج البناية جيداً ..

وسمعت قرب اذني اليسرى في تلك اللحظة تفجرا هائلا. لقد رمى قنبلة يدوية اطاحت باجساد ستة من المهوسين المتزاحمين بقربي على فرجة لا يعرفونها ، سوى انها أحد مناظر الموت العظيمة ، الموت الحقيقي .

وهوت جثة ثقيلة من سطح الطابق الرابع .. وافسح المتزاحمون لها مكانا لتخبط على التراب والاحجار . وما عتم حتى هرول المعروق الاصفر وراءها .. وكانت الجثة تنتفض في الصدر ، وتنتفخ في الاوداج ، ويطفر الدم الترب من اطراف الفم ، ووضع المعروق قدمه على الراس ، وراح يدعكها بحذائه،وفي وجهه ابتسامة زرقاء الشفتين مسمومة.

واتى رجل من الدرك فاطلق رصاصتين على الجمجمة ، فأراح الجثة من الحركة نهائيا ..

ــ مات الجاسوس .. مات عميل الاستخبارات

الفرنسية ...

وعدنا معا من رصيف الى اخر . كان رجلا جذلا ، فتى متوحشا مخيفا ، ادهشني .. لقد كان يستطيع اذن ان يكون وحشا بكل معنى الكلمة ، وحشا مشروعا .. هكذا ويدب هنا بين الناس كبطل عظيم !

اصبحنا صديقين من نوع غريب ، تعيش بين صدرينا صداقة اشبه شيء بلعنة لا مفر منها . كنا نتقابل في جميع المجالات التي يلتقي فيها الشباب المثقف الذي تزعم حركة النضال ، وادعى انه يقود الطليعة في البلاد .

كان يحدثني عن الثورة ، وهو يكاد يتمزق باعصابه واوداجه، يعدو في المجال الضيق من غرفتي كأنما ولد تلك اللحظة وهو واع اشد الوعي ، واكتشف ان الوجود ما هو الا خدعة ، وان العالم ما هو الا فخ ضد .. ضد ماذا ، انه لا يعرف ، انه يثور ، انه يلعن كل من يمثل هذا.. هذا (الواقع الفاسد) تلك الكلمة الكبيرة المبهمة التي بدات احفظها من قاموس هؤلاء ، الناس .. كان يقول :

ـ يا منذر .. انت لا تعرف شيئا ، انك تستطيع ان تتحدث عن باريس ، عن نساء باريس ، عن مقاهي المثقفين، تتحدث عن نضال المقاومين ايام الاحتلال النازي ، تتحمس لهم ، تكاد تتبنى جميع معاني المشاكل القومية والانسانية التي يعانيها الشباب هناك .. نحن مشكلتنا مختلفة ... مختلفة ، لا تجادلني . ينبغي ان تتعرف على ملامح هذا الواقع الفاسد ، كله نتن ، جيف من القرون الوسطى ، مآس لا يحلم بها روائي .. حياة الفلاح ، حياة الموظف ، حياة العامل .. هنا قضية اخرى ، للحرية معنى خاص يا صاحبي ... نحن تحررنا .. نعم تحررنا من فرنسا .. ولكن الا ترى اننا ما زلنا اشبه بالسجناء الذين اطلق سراحهم ، خرجوا من الاقبية العفنة ، من الابواب الحديدية الزرقاء .. ولكنهم يحسون بنوع اخر من السجن ، من القيود ليست في ايديهم ولا في اقدامهم .. انها هنا ... هنا في قلوبهم يا صديقي .. يجب ان تصدقني يا منذر... ان اعداءنا أشباح لا تراها .. انها تطن في اذاننا كمن القي به في كهف يملأ جوه مئات من الخفافيش .. لا تراها .. لا تراك ... ولكنها محومة حول رأسك ، تضرب رأسك ، تصطدم بعيونك ، انها تمتص دماءنا بطريقة سرية جدا .. لعلنا نعاونها نحن كذلك دون ان ندري ..

انظر الى نفسك مثلا .. الست تعتقد بنفسك انك بطل ، بكل ما لبطولة خاصة .. خاصة بك وحدك لا يعرفها غيرك .. حسنا ! لقد رجعت من فرنسا .. ورأيت الثورة في بلادك .. فرفضت حياة اخرى غير الثورة .. رفضت العودة الى بيتك الى قراك .. وربما كان ابوك يعد لك عروسا هناك في حلب .. ها قد مضى عليك سنتان .. ثلاث .. وانت تمارس الطب مجانا .. بين القرى .. وفي الاحياء الشعبية وبين العمال .. تطبب الشباب . وتحدث الناس عن الثورة، عن اخلاق الثورة .. عن الواقع الفاسد، عن العروبة والحرية وتسكن في غرفة حقيرة على سطح هذا البناء .. تطببهم جسدا وروحا اليس كذلك ... هاهاها ... بل قل انك تلقي بنفوسهم الهادئة مرضا اخر اكثر فتكا وخطرا . انك تخلق في ارواحهم ارادة جديدة تحيل حياتهم شيئا فشيئا الى جحيم ... قتلت قناعتهم ، علمتهم التمرد المسموم ضد .. ضد كل شيء .. وها أنت نفسك . عندما تلقاهم ليلة ما : انهم ينظرون اليك بعين .. بذات العين ... التي ترمي بالشك ... يشكون حتى بك .. اتكون حقا ما انت ... اتكون حقا البطل !..

نحن مرضى يا منذر .. مرضى بالمثل الاعلى، ببريق ذهب اخر اخترعناه .. نقيس طولنا بطوله غير المحدود .. هذا المثل الاعلى اللعين .. انه موجة عارمة تقذف بنا من اعماق اليم لتلقي بنا في الجو فمن تنبت له اجنحة تلك اللحظة يظل متابعا التحليق ... واما الاكثرية .. كلنا فاننا نخبط على الارض اليابسة لتتطاير هنا اشلاؤنا على اشواك شكوكنا ... كلنا ... هكذا لا تقاطعني..

ـ بل دعني اقاطعك .. انني انصحك بان تبتعد قليلا ..

ـ اتتهمني بانني بدأت اتعب .. لم اعد أصلح ؟.. ان من يدخل الجحيم لا يخرج منه بتاتا الا مجرد دخان ..

ـ ولماذا تسميه جحيما .. ان اكثرنا يعتقد انه يصنع الجنة لامته من عذابه ذاته ..

ـ حسنا فلتأت هذه الجنة اخيرا ..

وارتمى عماد على السرير . لقد انتهى صراخه تلك الليلة . وهو الان يبدو انه اشبه بنائم ، وان بقيت عيناه شبه مفتوحتين تعلقان بشيء ما هو جو الغرفة الصامت .

ولقد غرقت انا كذلك بقراءة كتاب . وقبيل منتصف الليل بقليل نهض عماد بوجهه المعروق الاصفر . ووقف قليلا يحسن من شأنه وسار نحو الباب . كانت عاصفة شتائية تهز اركان الغرفة . وقبل ان يفتح الباب قال دون ان يلتفت الي :

ـ يحسن بك ان تنام ... غدا يؤلفون حكومة اخرى من الرعيل الاول ، وسنضرب ، سنخرج بمظاهرة كبرى ... اعتقد انهم سيقابلوننا برصاص الدرك .. يجب ان تكون انت على رأس فرقتك..

وقلت مباشرة ـ وهل ستكون هي هناك ..

ودون ان يلتفت كذلك قال بلهجة صماء

ـ قلت لك سنقذف بكل قوانا !

وتساءلت بيني وبين نفسي وهل ستكون (هي) كذلك قوة من قوانا هذه ؟

وخرج وابتلعته العاصفة والظلمة .

في صباح اليوم التالي كنت اسير على الرصيف قرب التظاهرة الكبيرة .. وكنت ارى من بعيد (سامية) تتأبط أذرعة صف متراص من فتيات الجامعة مرددة الشعارات بسقوط الحكومة الخائنة ، مطالبة بدخول الحرب ضد يهود فلسطين .. كانت ازمة فلسطين يومئذ على اشدها . والحكومات العربية تماطل الامة وتخدعها بشتى التصاريح

التي تنبيء عن بقاء فلسطين عربية ، وعربية الى الابد !..

كانت تلك الشعارات تؤذي حكومات ذلك العهد .. فلم تمض لحظات حتى بدأت طلائع الشرطة تتقدم نحو المظاهرة حاصرة اياها ضمن الشارع العريض ... تم وقع الصدام بالحجارة .. ونزل الدرك ولعلع الرصاص .. وتبدلت الحكومة عند الظهيرة .

اجتمع رؤساء الشباب ذلك المساء ومعهم سامية وبعض الفتيات عن الفرق النسائية وقرروا تأليف كتيبة باسم الطليعة العربية تسافر الى فلسطين . خلال بضعة ايام ريثما تستعد بالسلاح.

كانت المشكلة تدور حول ايجاد السلاح المفقود ، الباهظ الثمن ... الذي يباع في السوق السوداء من ناحية ما من دمشق ..

اجتمع بعضهم في غرفتي : وكان بينهم عماد وسامية .. وانساق الحديث في شتى النواحي .. حتى وقف عماد اخيرا يوجه كلاما صريحا صاعقا الي :

ـ منذر يجب ان تعود الى حلب ، يجب ان تحصل على المال من اية جهة كانت ولو كان من ابيك.. ولتعد بسرعة. لا اقل من عشرين الفا .. خلال اسبوع ، اسبوع واحد فقط .. هذا هو الحل ..

وعندما انفض الاجتماع .. سرت انا وسامية قليلا في جهة بيتها :

ـ انت تعلمين يا سامية انني اذا ذهبت الى حلب فلن أعود ... فلكي احصل على المال .. لا بد ان انفذ خطة ابي كاملة ... ربما تزوجت .. بل لا بد من هذا الحل حتى يقتنع ابي انني عدت الى جادة الصواب

وتمتمت سامية بخشوع :

ـ ولكنك سترسل المال أليس كذلك ؟.. بل لا بد انك ستبقى تعين الحركة دائما ... على الاقل بالمال ..

ـ ولكنكم قررتم كل شيء ونسيتموني أنا ..

ـ بعضنا لن ينساك يا منذر ..

ـ انهم حكموا علي بالموت .. ضد نفسي ... لست انا مجرد وسيلة .. انا الهدف دائما .. الفرد في حركة الثورة هو الثورة .

ـ نعم .. لا تنس حكمتك يا منذر .. فانت تعلم ان الثورة هي كل فرد .. ولكن بعضنا .. بعضنا يموت ! واجهشت بالبكاء ... وتابعت من خلال الدموع ..

ـ ثم انك .. ثم انك ربما عدت الى حياتك الاصلية .. انت لم تخلق لمثل هذا الشقاء..

وعندئذ رأيتني اقبض على ساعدها واهزها بعنف ما عرفته بي من قبل :

ـ انا لهذه الحياة .. لهذه الحياة بعينها يا سامية .. واما هناك فلن اكون الا ممثلا .. الا مهرجا .. لا يحق لك ان تتهميني بهذا

ـ كلنا هكذا يا منذر .. ان احدا منا لا يخلو من اتهام من متهمين او من نفسه ..

وتذكرت اللعنة . لعنة المثل الاعلى .. هذا الخفاش الذي يصيدك دون عيون . هذا المقياس الذي لا يطوله احد ..

هأناذا مرةاخرى في قلب الصخب .. الجماهير المتلاصقة الحناجر والقلوب والفرح والعظمة . انها تبعث من كل مكان لتملأ فراغ الشوارع الموحشة بدمشق .. وافتش عن الوجوه المعروقة الصفراء .. اين عماد وعشرات ومئات من امثاله . انني اتساءل ماذا يفعلون الان بعد عشرين عاما من الصراخ والعصبية والشراسة والثورة الدائمة .. في يوم الوحدة .. في يوم تقاعدت فيه الوف الشباب الهرمين ... الشيوخ . انه عهد جديد ، لنضال جديد لا يعرفونه بعد ..

واحسست ان ثمة عظمة حادة تضرب كتفي فالتفت ... كان هناك شاب اخر معروق ، يتطاير الزبد من صراخه . لم يكن عماد .. ولكنه نسخة جديدة عنه .. لم يكن شابا مشنجا بالالم والقسوة .. كان كتلة فرح وعظمة . يتواثب ليبلغ الرئيس اعمق الشعارات : الوحدة يا جمال .. الوحدة الشاملة يا جمال .. وترد الصراخ الوف الحنجرات.. حتى تلك الحناجر التي سكتت منذ زمن . انها ترددها بفرح.. ولكن بخشوع اعظم .

دمشق **مطاع صفدي**

حول النقد الأدبي المعاصر

بقلم محيي الدين فارس

عندما يقف فنان ما ، ازاء لوحة معينة ، تستغرقه ويستغرقها لحظة من الزمان ، ثم يعطي حكما بعدذلك ، فهو انما يعطي اول ما يعطي ابعاده الثقافية ، ومعنى ذلك ان احكامنا نسبية . فهي دائما تشوف الى حقيقة ، والحقيقة ليست جمودا ، فهي حركة ، ومن ثم فلا بد ان تأخذ الطابع اللامتوقف ، فليست الاحكام التي نطلقها ومن خلال ذوقنا الخاص الا خلاصة مضغوطة لطعوم ثقافاتنا المختلفة . ولهذا فان كبار النقاد يلقون آراءهم دائما في تحفظ وحذر ، بل ربما اعطوا الحيثيات التي تكون الحكم دون اعطائه بطريق مباشر . فآراء الناقد لا يمكن ان تكون نهائية : فالناقد الجيد هو الذي يعطي احكاما ممتدة ، وهذه الاحكام التي تلقىبأعتبارها محصولا فنيا تخضع ايضا للغربلة والتمحيص . واذن فهناك فنانان بازاء بعض : الفنان الخالق ، والفنان الناقد . واذا كان الفنان المبدع يدفع باثره المخلوق الى منطقة عازلة ، بحيث يقف منه بعد الخلق موقف الاخر المتذوق .. فهو انما يضع نفسه مكان الناقد نفسه ... فالفنان الخالق فنان ناقد . والدليل الملموس على ما نقول ، تلك الحركة الدينامية النامية التي ترافق بعض الفنانين في رحلاتهم التطورية نتيجة النقد الذاتي .. فالثقافة ما دامت امتدادا متحركا ، فهي دائما عطاء ، وبالتالي فهي عملية حشد الحياة في خطوطها الرئيسية . والناقد عندما يتناول الاثر الفني انما يخلق هذا الاثر من جديد . وهذه مهمة شاقة لان الاراء والقواعد التي تكون في مجموعها ما يشبه النظرية للنقد الفني لم تكن موجودة قبل ميلاد المادة الادبية، وانما استنبطت استنباطا بعد ذلك بطريقة التصفية والتجريد من آثار الخالدين ! !

فالشروط المطلوبة في الاعمال الروائية الناجحة مثلا ، او وقوف النقاد التشكيليين ازاء الخط فقط ، كقيمة تعبيرية ، او عند الظل ، كعامل اساسي في ابراز الابعاد الخلفية للمشهد المنظور ، او عند العائلة اللونية التي تعطى التناسب والانسجام ، او وقوف ناقد مسرحي عند اللون الكرنبي لانه يساعد على تجسيد الاجواء النفسية – كل هذه الاراء وغيرها قد اخذت اخذا من سياق هذه الاعمال !

واذا اسمينا النقد علما وهو كذلك – فانما هو العلم الذي لا يعتمد على قواعد ثابتة ... لانه غير متوقف ، فربما محا اراء برمتها ، واقام على انقاضها اراء اخرى . واذا كانت هناك من قواعد ، فهي القواعد التي تصحب رحلاته الاستكشافية . هي لا توجد قبل هذه الرحلة ، وانما تبدأ في الوجود معها ، ولهذا يفشل النقاد المدرسيون غالبا – لانهم يضعون في اذهانهم بضع مقولات معلبة تطبق تطبيقا قسريا حسب نوعية كل فن . فللقصة بضع آراء ثابتة ، وللقصيدة الجديدة كذلك ، وللعمل المسرحي قضبان حديدية ينبغي ان نسير عليها والا ... وما على مثل هذا النوع من الثقافة الا ان تضع كل لون من الفنون في قالبه المحفوظ، وهنا تكمن الخطورة لان للناقد طبيعة استمرارية شغالة تلتقط مواطن القبح والجمال معا .. وهذا يحتاج دائما الى عنصري الحرية .. والتلقائية .

وبالرغم من ان هذا قياس مطرد ، الا اننا نستطيع ان نقول ان عملية الخلق من جديد مشرط ذو حدين : فهو اما ان يمزق الاقنعة عن صورة النموذج الكامل وهو في لحظات التوهج الابداعي مشيرا « ببوصلته » نحو الخطوط الضعيفة والقوية على السواء، واما ان يعمد من اول الامر الى الرفض الكامل ، بعثرة اللبنات التي كونت الاثر الفني ليقيمها من جديد مخلوقا سويا ، ولا فارق في ذلك بينه وبين عمل الفنان الرسام .. لانه مطلوب منه في هذه الحالة ان يعطينا صورة النموذج المثالي تماما كما يعطي الراسم في مرسمه من خلال عملية ذهنية انفعالية وهم الصورة غير المنظورة . وقوة التصور عند الفنان والناقد والرسام تكاد تكون في درجة واحدة وان اختلفت الاساليب اللاقطة للمرئيات ، فالرسام يعطينا الصورة في لغة هي الخط والظل واللون ، والفنان يعطينا الصورة في لغة هي الكلمات المشحونة ذات الالوان المتعددة حسب الانفعال النفسي . والناقد لا بد ان يكون كذلك . فلا فرق بين الصورة المنظورة والصورة المنطوقة . وما دمنا نؤمن بتلك « المقولة » – البناء بالصور كما يقول كتاب علاقة الفن بالواقع .. وكتب كثيرة غيره – فلا بد من ان يعرف الناقد جيدا لغة الالوان التي تكسب كلماتنا طابعا معينا يجب ان يعرف تجانس الاصوات وتداخلها وتعارضها بل وازدحامها الصخبي في بعض الاحايين . فكما ان العمق السيمفوني يرادف الغموض في بعض اللحظات السيمفونية الحرجة التي تتشابك وتتداخل الاصوات النغمية فيها المعبرة عن الانهزام فالانتصار فالهبوط فالصعود ، عن التعانق بين النقيضين ، فان بعض ادبائنا العراقيين بالذات قد استطاعوا التمرد على موسيقى الرنين الخارجي الناتج عن الترف البياني وغنائيات البحتري وابن زيدون ، فعبروا عن الحركة داخل العمل الفني باستحداث موسيقى « موجية » تذهب في اكثر من اتجاه ثم تلتقي عند نقطة

ارتكاز ، ثم تتنافر فلا تلتقي الا بعد مرحلة زمنية من مراحل نمو التجربة لتمثل وضوح النهاية الهادىء او مقـدارها الدرامي في الحياة خارج السياق للاثر الفني !! لا بد أن يدرك الناقد ذلك فهو باستمرار عملية عطاء بازاء اعمال فنية معطاءة حتى تلك الاعمال الشحيحة الاعماق فهو مكلف كهؤلاء الحفريين الصبورين الذين كشفوا النقاب عن عصـور بأكملها ــ ان يعطي تصميم خلقها ، او تعديل خطوطها. لا بد أن يدرك الناقد الابعاد النفسية للكلمة وهو لهذا محتاج الى شفافية توازى شفافية الفنان الناجح ان لم تكن تتفوق عليه . ولسنا نقصد بالكلمة الحدود الوضعية للمفـردات المتناثرة ، ولكننا نقصد ذلك القطاع الكبير من الوجود الديناميي المنقول لنا او عنا عبر الزمن ، فالكلمة بهذا المعنى ليست الا خزانات استوعبت طوابع بيئات ، ومناخات متباينة. ونحن نتذوق هذه البيئات والمناخات من خلال التلقى والاعاشة !!

وهذه مهمة الناقد ، وبالرغم من ان الناقد اذا القى احكاما جيدة على عمل جيد ــ وهو بذلك ــ يضيف الى ثقافته رصيدا جديدا لانه يحرك هذه الثقافة التي تتجمع وتحتشد في لحظات تذوقه للاثر ــ الا انه مع ذلك يمر بعملية اصطفاء نوعي لعديد من الاراء الطارئة والمستحدثة ، قبل ان يستقر الى رأي نهائي ، لانه يعيش المراحل الزمنية لهذا العمل تماما كما يقف المهندس المعماري ازاء بناية شاهقة . فهو هنا فنان يخلق !! ومن هنا ندرك لماذا لا يعطي بعض النقاد آراءهم بسهولة وفي زمن وجيز، لماذا ؟ لانهم يمرون انفسهم بنفس التجربة النفسية التي عاناها الفنان .. ولكن قد تكـون المسألة عكسية ، فنقف بازاء احكام فجة . .متسرعة، ومثل هذا الناقد يعطي بلا شك كثافة ثقافته الضحلة وابعاد تذوقه القصيرة ، وبالتالي فهو ينحي نفسه بنفسه عن جادة طريق النقد . لماذا ؟ لان هناك باستمرار رقابة من الخارج مـن الابعاد الثقافية الاخرى التي تجلس في منصة القراءة لتعطي احكامها النسبية ايضا !! فنحن اذن نعطي ثقافاتنا عندما نطلق احكامنا ، ومن ثم ندرك لماذا يفشل بعض النقاد الذيـن يكررون انفسهم من خلال ما يكتبون أو من خلال مقدماتهم لبعض الكتب التي تأخذ سبيلها الى حوائط اسوار الازبكية ليقرأها الذباب الفضولي !! لماذا ؟ لانهم لا يخرجون عن حدود كلمتي الشكل والمضمون . فما دام الاديب الطالع يزحـم سطوره بكلمات الجوع والكفاح والعرق والسل .. وعديـد غيرها من الكلمات النثرية حتى ولو كانت مجرد شعـارات زائفة او نداءات لا يرفدها محصول ثقافي واع ، وما دام يصرح بانه انما يدعم جبهة الفنانين المستقبليين .. حتـى ولو ساق لنا بضع كلمات مرصوصة ابعد ما تكون عن مجال الفن ، فاذا كان هو كذلك.. فلا بأس من اعطائه بطاقة مرور! وماذا تكون النتيجة ؟ انطماس المعالم والسمات ــ فانت والحالة هذه لا تستطيع تمييز ملامح هذا عن ذاك !!

ونحن نكرر للمرة الثانية ان النقد عملية خلق وابـداع وتطور مستمر .. فقد نلتقي جميعا نقادا او خالقين عند مشكلة معينة بحكم المعاصرة . ولكن في حـدود الانطبـاع المقابل بمعنى ان الصورة الجددة .. تعطى صورة جديدة اخرى ليست موجودة في السياق الاول .. ولانه لا بـد من عملية خلق باستمرار سواء من جانب الفنان او الناقد او حتى القاريء المثقف .. نوضح ذلك بان كل عمل جيـد فيه نواقص يدركها الفنانون الاخرون .. وقد ينتجـون اعمالا فيها استدراك لهذه الجوانب الناقصة ثم تصبـح الاعمال الاخيرة مع مرور الزمن ذات نواقص ايضا ، ولهـذا ندرك لماذا كانت حلقات التاريخ كلها امتدادا متمما بعضها البعض . وذلك يعني ايضا ان الموضوع المعالج من مواضيـع العصر الحساسة التي تعطي اكثر من صورة لجوانب الحياة المختلفة بطريقة التوالد المباشر : فبعض المواضيع يصلح لان يعالجه اكثر من فنان ومن اكثر من بيئة وزمان ومكان ، وعلى عكس ذلك بعض المواضيع فانها تقف في حدود تناول واحـد !!

والنقد مرهون بوجود الاثر الادبي . وهذا الاخير مرتبط اشد الترابط بالنقد . ومع ذلك ، فهو يستطيع ان يطرق باب الزمان والتاريخ دونما ادنى ايماءة الى كلمة قادحة او مادحة ، وليس معنى ذلك اننا نرمي الى القول بـان النقد عالة على المادة الادبية ، ولكننا نريد تقرير حقيقة ملموسة عند كبار الادباء في العالم . والمسألة تختلف اختلافا جذريا عندما يلتقي الفنان والناقد في نطاق خط كفاحي واحد . فتنمية الجوانب المضيئة في الحياة حينئذ تحتم اللاثنائية، فلن نستطيع اقامة تمثال جميل .. وكلانا يعمل ازميله في جهة متباينة ... لاسيما وان اعباء الانسـان في القرن

ضحكة جميلة

(عندما تلي حكم الاعدام على المناضلة الجزائرية جميلة بوحيرد اغرقت في الضحك .. فانفجر رئيس المحكمة صارخا : « لا تضحكي ! فالامر خطير ... »)

أي ضحكه
فجرت في فم جلاد حقير
صرخة
« لا تضحكي الامر خطير ... »
صرخة تنبض بالرعب ،
بأحقاد فرنسا الهمجيه ..
اي ضحكه
هزأت بالموت ،
بالسجن ،
بارهاب عبيد الهتلريه
انها ...
ضحكة « جان دارك » ابيه
انها ...
ضحكة اخت عربيه
الهبت في قمم « الاوراس » الاف المشاعل
تتحدى
قادة الطغيان ، اعداء الحياة
وتنير الظلمات ...
لرفاق الشمس ،
احرار الجزائر

هي ضحكه
حرة النبرة ،
خضراء ،
نبيله ..
نبعت كالنور من قلب « جميله »
وكأشذاء الخميله
عانقت اطيب الوان المشاعر
في نفوس الشعراء ...
فاذا الكون غناء
واذا باسم جميله
في شفاه البسطاء
غنوة ،
اسطورة ..
تنسج آيات البطوله
واذا رسم جميله
في صدور الشرفاء
رمز عز واباء
وحميه
لبطولات فتاة يعربيه
هزأت بالموت ، بالظلم ،
لطغيان عبيد الهتلريه
اي ضحكه
غصبت من فم جلاد حقير
صرخه تنبض بالحقد ،
بآثام فرنسا الهمجية :
« انما الامر خطير !.. »
اي ضحكه

حسن البياتي **بغداد**

العشرين ثقيلة ، هذا الانسان الذي ورث التراث الثقافي كله باعتباره وحدة متكاملة منذ المشاعية الاولى الى يومنا هذا . فقد بدأ هذا الانسان يتسلح بوجهة نظر مجددة ، ازاء النواميس الطبيعية ، وجهة نظر معينة ازاء الحياة والتاريخ والانسان ، بل ازاء المحيط الكوني ، وجهة نظر علمية قد تصل في بعض الاحايين عند البعض الى مستوى النظرية المقعدة عن طريق المقدمات والنتائج المنطقية والمقبولة عقلا . وبدأ شيئا فشيئا ينفض عن ذهنه تركة الخرافات القديمة وقضاياه المثالية التي كانت تسحره بعالم ما وراء الطبيعة . ولكن لا بد من التحفظ من اجل الحقيقة الجمالية، فلا يصح بحال من الاحوال ان نصدر احكاما عشوائية — لمجرد اقاماته اهرامات لا تخرج عن حدود القزامة ، لحماية نباتات طفيلية على حساب نباتات اصيلة . نقول ذلك بالرغم من ان العمل الجيد يفرض نفسه .. لدرجة انه يخترق المناطق البعيدة فهو عملية استجابة تقابلها نداءات القراء من شتى بقاع العالم — هذه حقيقة يمكن ان تسلك في عداد النقد المرشح بعض الاعمال لان تعيش وان تترسب في الوجدان وان تصبح بعد ذلك سلوكا يباشر في الحياة اليومية !!

واذن فلا مناص من صد الشعارات الزائفة والمخربة في آن معا !! وهنا تبرز مشكلة الخط السياسي — فلا يوجد ادب ما — في مختلف العصور التاريخية — لا يدخل تحت الخط السياسي ، اي خط ، حتى في تلك العصور التي كان يوجد فيها ادبان متعارضان : ادب الطبقات العليا وادب العامة الشعبية .. فكلاهما كان يحمل وجهة نظر ازاء انظمة الحكم. والخط الساسي ينبغي ان يمر بمرحلة اقناع وتبرير وتمثل داخل نفس الفنان حتى يصل الى درجة الاختمار ، فالتقمص ، وعلى الناقد ان يميز بين الاعمال المفروضة فرضا على النفس البشرية من الخارج دون سابق تبرير وبين الاراء المطواعة التي يدافع عنها الفنان بحرارة وصدق. فهو لا بد ان يحمل مقياس الحرارة لو صح هذا التعبير.. فلا يمكن ان تعيش تلك الاعمال التي يحررها بعض النقاد الواقعيين كما يتخيلون لتعيش في واعية الزمن ، وهي ابرد من ثلوج العصور الجليدية !!

محي الدين فارس

عضو رابطة الفنانين السودانيين بالقاهرة

«نهر الرماد»: رائد الاتجاه الوجودي

بقلم عفاف بيضون

اذا كان في اطراح الاديبة سلمى الخضراء الجيوسي، لكل انفعال وجودي من شعر خليل حاوي، تعنت صارخ، فان في اعتمادها على نقدها الذاتي الصرف، انتقاصا من مفهوم الشعور العربي الصحيح، حيث لا مكانة في هذا الشعور للنظريات المتصلبة المفرضة، ولا سبيل فيه ايضا لامكانيات التشريح المقصود في مجالات الادب الخلاق. ثم ان الاتجاه الوجودي المتشعب الذي تدور حوله قصيدة « نهر الرماد »، والذي كان الدافع الجوهري في ايماننا بتفجر ثورة شعرية متفاعلة، لم يكن يوما ليعني مجرد « نمط وجودي »، او مجرد « غرق الشاعر في دراسة الفلسفات والمذاهب الفكرية »، او مجرد « اعتناقه المحدد لفلسفة » معينة. ففي صراع الغزالي مثلا نفحات وجودية لا اسس نظرية لها، كما ان باسكال قد مهد الطريق من خلال غصاته الكيانية المتأرجحة، لتلك المدرسة الوجودية الحديثة المؤمنة، والتي ما زالت حتى اليوم في حالة تطور وتبلور متواصلين. هذا من ناحية، اما من الناحية الثانية، فان الوجودية في معناها الصحيح، لم تكن يوما من اختصاص هيدجر وسارتر السلبيين دون غيرهما، ولم تكن من ثم وقفا على مجرد الاخفاق النهائي، والتخبط التائه امام قبضة القدر. وعلينا باشراقة تصوف الغزالي بعد سنين مضطربة من تاريخ حياته، وبذلك الفجر النير، الذي كان يشق طريقه وسط ظلمات ليل باسكال اكبر دليل على صحة ما سنؤكد عليه فيما بعد. وهكذا نلاحظ ايضا ان كل نقد جديد عندنا لا يستمد اصوله من ذلك «المعنى التاريخي» في عالم الجماليات، والذي اكد عليه كبار نقاد المانيا، وهم على عتبة تفتحهم الشعري الحديث، هو نقد مردود. وكيف لا يكون نقدا مردودا، وستتكاثف فيه لا محالة عوامل مبهمة تجريدية غامضة، وستتعثر فيه بلا ريب صحة القيم الادبية، بذاتية المفاهيم والاتجاهات والنظريات الفنية التأثرية؟ كأن يختلط فيه مثلا عنف الصراحة الوجودية الصحيحة، التي نحن بأشد ما نكون حاجة اليها اليوم، حياتيا وأدبيا، بمفهوم « الحقد العادي، والاساءة الممسوخة، والخشونة المنفرة »! وفي الحقيقة فقد استطاع الشعر الالماني بفضل هذا التحري التاريخي الجمالي، ان يتبوأ المركز الاول في مجال الثورة الشعرية الاوروبية الحديثة، واستطاع من ثم ان يولد حتى في فرنسا الكلاسيكية نفسها، ذلك النزاع بين التمسك بذكرى راسين، او السير على غرار شكسبير، والذي ادى اخيرا الى وجودية شعر بودلير، وعنف اخلاصه.

والان، ما علاقتنا نحن بهذا النوع من النقد؟ وكيف نستفيد منه؟ ولماذا لا زلنا نؤكد ان اتجاه « نهر الرماد » الوجودي في طرفيه المعتم والمشرق معا، هو بمثابة ثورة لا شك فيها، في مجرى تطور الشعر العربي.؟

تقول الاديبة سلمى الجيوسي في بحثها: « وليست الحياة، ولا حتى حياتنا، مزدحمة الى هذا الحد، فهناك دائما فترات من الاستجمام والهدوء فيها، مهما كان الصراع عنيفا حيويا مستعجلا ». وهذا عنصر حياتي عادي صحيح. ولكن الاصح منه في عالم الخلق والابداع، هو ان نعيش هذه الحقيقة، لا ان نكون محلا لانعكاسها في ذواتنا. وبمعنى اخر، وبلغة الوجوديين على اختلاف اتجاهاتهم، هو ان نحيا حياة تلهف متواصل، متخوفين باستمرار على امكانياتنا البشرية المؤجلة دائما، ساعين دون هوادة، في تحقيق بعض من هذه الامكانيات، من اجل تكوين وجود متعال ابدا على نفسه، متدفع ابدا الى الامام. وهكذا نرى ان صاحب الاتجاه الوجودي، بما يهيء حوله من نفور بحراني مخلص، وبما يستند عليه في « قلق تفتيشه الديناميكي » هذا، على حد تعريف الناقد الالماني لسنج، من تعاطف كوني شامل، وصيرورة قائمة، هو وحده كفيل ان يخلصنا من امراضنا الفنية القديمة المتصلبة. ثم وبما ان صاحب هذا الاتجاه، مهموم عاطفيا بالتحري عن متاعب الانسان وافراحه، والتعرف الانفعالي على أسباب اماله، ومخاوفه، فأنه هو وحده ايضا، ولا مكانة لغيره في هذا المجال، كفيل ان يستجيب لواقع التطور الكياني المتجدد، ولمفهوم «المنعطف» التقدمي الفاصل في تاريخ الحضارات. ولا يخفي على الناقد العربي المتجرد المخلص، وقد وصلنا الى هذه النقطة الحساسة في مجرى التطور الشعري عندنا، ان خليل حاوي قد حاول ان يحقق لنا كثيرا من متطلباتنا الجمالية الجوهرية في « نهر الرماد »، وانه كان ناجحا في محاولته. لقد خلصتنا اناشيده من اوصافنا الشعرية المادية المتوهجة، ومن ذلك التلهي بالتزيين الفارغ، الذي رآه شبنجلر، وقد انعكس في فن المعمار عندنا، على شكل زخرفة هائلة من الفسيفساء والاربسك واللون الذهبي البراق. كما انها خلصتنا بنوع خاص من تلك الفردية المضنية التي لازمت شعرنا منذ نشأته، وما زالت تلازمه حتى الآن، وما تقوم عليه هذه الفردية من عنصر سطحي مبتذل، واسلوب اخباري تجريدي تعميمي ممل: كأن يخبرنا ابن الرومي مثلا عن حبه الشخصي الساذج لشهر ايلول، ثم تأتي بعد ذلك شاعرة معاصرة، وفي عصرنا المتفتح هذا بالذات، لتسرد لنا باسلوب عادي باهت، تفضيلها لشهر تموز، وما يحمله اليها هذا الشهر من احلام

وذكريات حياتية عائلية متنوعة . ووجه الشبه جوهري بين هاتين التجربتين ، اذ ان الشاعرة المعاصرة ، كشاعرنا القديم تماما ، لم تتمكن من تخطي حدود الفردية الضيقة ، ولم تحاول ان تنفذ بتجربتها البسيطة الى تجربة وجودية صحيحة .

وهنا يكمن ايضا سبب اخفاق جبران في مواكبه ، حيث اخذ يسرد لنا ، كعادة شعرائنا دائما ، افكارا هي من صميم المشكلة الوجودية ، انما دون ان ينجح مع ذلك في ابرازها بشكل ادبي خلاق . وهكذا نرى ان مصادر الضعف لم تتغير في شعرنا العربي ، اضف الى ذلك قصورا لا يزال قائما ، في مفهوم التجربة الادبية الناجحة . وهل بامكان شعرائنا ان يبتعدوا عن رتابة السرد ، وهم بعد لم يحاولوا ان يفرقوا بوضوح بين وجوب التخلص من كل معاناة حياتية في الشعر ، اذ انها تولد ضعفا رومنتيكيا مردودا ، وبين وجوب التأكيد ، من ناحية ثانية ، على عنصر المعاناة الفنية في نطاق الخيال ولامحدوديته ؟ .. اما خليل حاوي فقد استطاع ان يخلصنا من طغيان الفردية وجموحها ، وان ينفذ بهذه الفردية بعد ذلك ، من تأزمات الحياة العربية العامة ، وهذه خطوة اولى لا بد منها في كل شعر واقعي ، الى ذلك الغوص الوجودي ، حيث مأساة الانسان ، ومشاكله الجوهرية . ثم انه استطاع ، بفضل استجابته لهذا الاتجاه ان ينشيء لنا اسلوبا جديدا قائما على تجسيد الانفعالات البشرية الهاربة دائما ، بمدها وجزرها ، وعنف دهشتها ونفورها ، واخلاص تفتيشها وحبها لسمو الحياة . وهل هناك شيء ادل على وجودية هذا الاسلوب من صوره المتتابعة ، التي مكنت الشاعر من القبض على غموض الباطن وكثافته واضطرابه ، والتي كانت من ثم بمثابة عوالم محدودة الاطارات ، واضحة للعيان ؟ وهل هناك شك في ان هذه الصور الموقعة توقيع ما ترمز اليه من عواطف وجودية متنوعة ، ستكون مملوءة بحرارة الاعماق ، «ونهشة الواقع» ، على حد تعبير الوجودي الفرنسي المؤمن جبرائيل مارسيل ، وان علينا ان « نلبس القفاز » لادراكها ولمسها ، كما يقول اصحاب هذا الاتجاه ؟ وهكذا نرى ان « نهر الرماد » محاولة في شعرنا العربي لتحقيق المعاناة الفنية الرفيعة ، وانه استطاع، لذلك كله ، ان يوقظ اعجابنا وحماستنا ، مع ما ترمز اليه حماستنا هذه في رأي بودلير، من تطلع غريزي نحو كل ما يذكرنا بمبدأ الجمال الرفيع ، وسمو خلوده . وعلينا ان نؤكد اخيرا ان كل اقرار بالكآبة التامة في اكثر اناشيد « نهر الرماد » هو اقرار مردود ، اذ ان اشراقة الخلق المندفع كانت تسير جنبا الى جنب مع اعنف التجارب واكثرها صراعا ، وان هذه الاشراقة كانت بمثابة تلك الانوار المضيئة ، التي نراها تنبثق من خلال بعض احلك اللوحات الفنية ، واكثرها جمالا . . . اما فيما يتعلق بالتجربة نفسها فمن الواجب علينا ان نردد ان اهتمام الشاعر بما حوله من حياة ، انما هو صادر عن وعي تام منه ، وعن تطلع مخلص ، وقلق متواصل من اجل ارتفاع هذا الواقع وتساميه، الى حيث كنوز « الشمس الدافئة ، والينابيع المتدفقة ، والرجال السمر الطوال » .

ثم ان « البحار والدرويش » ، اول نشيد في المجموعة لا يمكن ان يدل على ان الشاعر كان « غارقا في دراسة الفلسفات والمذاهب الفكرية ، » وانما هو تصوير لواقع انساني عميق ، ينبض بسعي التفتيش ويأسه من اجل اختراق تلك الثنائية البديهية في حقل الفردية والاستسلام ، والنفور النهائي من ذلك الطين المتغلغل في مجرى الحضارات . وهذا الهدم او ما يشابهه ، لا بد منه كتوطئة عند صاحب الاتجاه الوجودي، ثم لا بد منه بنوع خاص في مجال صيرورة التوتر القائم ، والتخوف الذي لا يعرف الهدوء على امكانياتنا البشرية المعلقة دائما . وهل هناك شيء ادل على هذا التشبث بالتحديق في عنف المأساة وتصويرها والتحدث عنها ، من تلك الدراما الباطنية التي تطالعنا بها « ليالي بيروت » ؟ وهل هناك شيء ادل على مواصلة ذلك الغني الايقاعي المتوتر توتر تموجات النفس ، وتمزقها بين عوالم الاضداد ، من تلك التساؤلات المضطربة التي نراها في هذا النشيد بالذات ؟ ثم او ليس هذا الصراع المؤلم الذي يجري امامنا بما فيه من تعارض بين ثنائيات الوجود المضنية ، ومن جدار كثيف يتداعى على صدر الشاعر ، اوليس هذا كله دليلا على غوص في متطلبات النفس الانسانية ، ومشاكلها الاولية ؟ لهذا كله كانت « ليالي بيروت » اكثر من مجرد تعبير عن « تأزم نفسي » عابر ، واكثر من مجرد « اعتناء بمباذل البيئة المحيطة. انها تصوير دقيق لمأساة هذا الانسان الحديث الذي اضطر مرغما ، ولو الى حين ، الى نفض يديه من كل ماهية اصيلة يتعلق بها ، مع ما في هذه النظرة الوجودية ، من تساؤل متواصل ، واغفاءة مؤقتة ، في عالم مظلم ، احاله قلق الشاعر ونفوره، الى كهف الدب القطبي المنطمس الجدار . وهكذا تتتابع فصول المأساة الروحية امامنا ، ويزداد الحديث النفسي المتواصل توترا ، ويتمدد السأم بثقله مبعثرا تفاهة الحياة المقيدة بالظواهر الخانقة ، ولكن شيئا مع ذلك كله لم يكن باستطاعته ان يضع حدا لاضطراب القلق الوجودي العنيف ، بعتمة كهفه ، وكابوس جداره : فلا ذلك الامس المعافى الذي كان يطل باشراقته النيرة، ولا ذلك الحاضر المغري بصدى شمسه ، وضحكات صغاره، كانا قادرين على ان يحررا شاعرنا من سجنه الذي يقيم فيه . وكيف كان بامكانه ان يتخطى عتبة هذا السجن ، وقد انهكت نفسه حشرجات ذلك العالم المريض المتخبط حواليه ؟ .. وفي غمرة ذلك الاجترار المقيت ، حيث الابتعاد عن كل ماهية وكل نور وكل ايمان ، وحيث جوف الحوت بمصهر كبريته وسعيره ، عرج الشاعر على ارض الحضارة لا ليكون « قاسيا علينا ، ولا ليمجد حياة الوجوديين » ، كما ارتأت الاديبة سلمى الجيوسي ، وانما ذهب مفتشا عن الايمان

هناك . وانه من الاجحاف في حق النقد ، وفي حق الشعور العربي الصحيح ، ان يفسر نشيد « المجوس في اوروبا » كما فسرته الاديبة . فهو علاوة عن كونه قطعة ادبية رفيعة، بلغت المعاناة الفنية فيه درجة كبيرة من ابتكار الخلق وابداعه، فانه من ناحية ثانية لا يحمل في طياته اي عنصر من عناصر التجاهل والمهاجمة . واذا كانت الاديبة قد تأذت من عنف الصراحة والاخلاص ، صفتين لم نتعودهما في شعرنا بعد ، فانه كان عليها ان تدل من الطرف الاخر ، على سخرية الشاعر لا على تمجيده لذلك الاله الجديد الذي اكتشفه في ارض الحضارة. واي اله هو ذلك الساحر الذي كور جنة الارض من ليل المقابر، والذي يتخفى في تلك المغارة، التي لا بد من الوصول اليها ، من انحدارنا في الدهاليز اللعينة ؟ ثم اي اله هو ذلك الساحر الذي يهرب من رعب اليقين ، وصرعة الشمس ، ويتلهى بأحالة العفن الجاري على الجدران خمرا وذهبا ؟ وهل بامكانه ان يكون سوى اله المتعبين الضائعين في كهوف العالم السفلي من ارض الحضارة ، هؤلاء الذين ارتضوا به وبتزييف عالمه ، بعد فقدانهم لمفهوم الايمان الصحيح ؟

ويعود الشاعر متشبثا ببلاده من جديد ، ويتطلع مفتشا متحريا متأكدا من تلك الانتفاضات التي سمع بها هنا وهناك ، فيتقلص ظل القلق القديم ، وشبح سأمه ونفوره ، ويطل علينا قلق وجودي من نوع اخر ، قد صب همه ومحبته ، من اجل مصيرنا ومستقبلنا ومحاولة بعثنا . وهكذا كان خليل حاوي اول من وحد عندنا باخلاص تام، بين مصيره ومصير بلادنا ، وهذا ما قام به ، ولو بطريقة مختلفة ، هيلدرلين ، الشاعر الالماني الكبير في نهاية القرن الثامن عشر . وتبدأ عملية البعث في « بعد الجليد » ، اصفى اناشيد المجموعة ، واكثرها حنينا ، فاذا نحن امام تصوير دقيق لهذه الدراما الموجعة الصعبة، بزحفها البطيء وانسلاخها المؤلم ، وحرارة التجائها الى شمس الحصيد البعيدة ، وتنكرها لقسوة الجليد وعناده ، ومعاناتها الصامدة اخيرا لاحتراق العنقاء ، من اجل ذلك الفجر الجديد ، وانطلاقاته النيرة. وهكذا جاء رمز تموز، في هذا النشيد منسجما كل الانسجام مع اولى متطلبات الشاعر الجمالية، من اجل اتمام تلك اللوحة الوجودية التي نحن بصددها : كنا بحاجة الى التخلص من جوف الحوت ، وموت الكهوف ، وجفاف المغارة المزيفة، والدهاليز اللعينة، فجاء هذا الرمز يطل علينا بدفق الحياة وخصب الوجود. كنا بحاجة الى التحرر من ثقل الجليد والتخوف من صرعة اليقين والنور، فجاء هذا الرمز يطل علينا بشمسه الدافئة ، وحصاده الكثير . وكنا بحاجة اخيرا الى التغني بتلك الانتفاضات التي شقت طريقها في بلادنا، فجاء هذا النشيد والاناشيد التي تليه معبرة اصدق التعبير عن شوقنا الملح من اجل تقدم لا يعرف معنى لركود التوقف والهدوء.

وكما ان الشعور الالماني لم يتأذ من التجاء هيلدرلين الى الالهة عند اليونان ، طالبا اليها تخليص بلاده من ذلك « الشتاء العاصف ، والليل الثلجي » ، اللذين كانت المانيا ترزح تحتهما آنذاك ، وما يرمز اليه هؤلاء الابطال الالهة من حيوية واندفاع ، هكذا فان الشعور العربي لا يمكنه ، من جهته ، الا ان يتأذى من تشريح الفن الرفيع ، في مجالات التحري الذاتي المفروض ، والانتقاص المقصود ، والنظريات الادبية التأثرية الغامضة . والرمز بعد هذا كله ، واسطة تعبيرية جوهرية مجردة ، يمكن استخدامها في اغراض مختلفة متضادة ، ولكن النقد الصحيح يدعونا الى الاقرار بان ليس هناك ما « يخدش نفوسنا » في نهر الرماد ، وانما هناك شعر جميل منبثق من عندياتنا ، قد حاول ان يحقق ، كما انه سوف يحقق لنا كثير مما نحن بحاجة اليه . واخيرا ، لا بد من التأكيد على ان القلق الوجودي الذي تحدثنا عنه طويلا ، كان وحده كفيلا ان يحرر شعرنا من سطحية الانغام التي « تهدهد » بسردها وتجريدها ، كما انه كان كفيلا ، وهو عدو الرتابة الاول ، ان يستجيب لتطورات العصر وانتفاضاته ، لما فيه من انغام متأرجحة تأرجح خفايا النفس البشرية ، وانطلاقاتها المشرقة عبر امتداد الازمنة والعصور .

بيروت **عفاف بيضون**

ماتت قريرة العين

قصة بقلم الفتاة عمر باشا الادلبي

كانت دارة فخمة تلك التي يقطنها السيد (غولميه) وزوجه، وكانت الحديقة التي تنبسط امامها مترامية الاطراف بعيدة المدى كأنها مزرعة كبرى تمتد حتى الشاطيء الذي تنتهي عنده المدينة البيضاء، مدينة الجزائر . وكان في اقصى هذه الحديقة الواسعة كوخ حقير، ضيق الاطراف، رث المنظر يقطنه الناطور عبد الجبار وزوجه . قد تكاثفت فيه في ذلك الليل الثقيل البطيء سحائب سوداء تراكمت من دخان تبغ رخيص كان يدخنه باستمرار الناطور الجزائري شأنه دائما كلما نزلت به نازلة هم او مصاب كبير . كان الضوء الهزيل الذي ينبعث من قنديل الزيت المعلق على الجدار يلقي على وجه عبد الجبار ظلا باهتا فتبدو سحنته مربدة كثيرة التجاعيد . اما عيناه الكليلتان فكانتا متجهتين الى زاوية الغرفة ترقبان بكثير من الهلع زوجه زينب التي تكومت على نفسها واخفت وجهها في وسادة وراحت تبكي بلا انقطاع . كان صوتها يعلو احيانا حتى يصبح عويلا ثم يعود فيخفت حتى يصبح نشيجا مريرا تقطعه حسرات وزفرات، منذ ساعات وعبد الجبار يجاهد نفسه يتحرى عن كلمة يواسيها بها او يشعرها على الاقل بمشاركته لها في حزنها والمها . ولكنه كان يحس نحوها بخوف شديد، خوف لم يشعر به تجاه اي انسان مدى حياته وقد تجاوز الستين من العمر، ولكن لا بد له ان يقول لها شيئا مهما كان الامر . لقد مضى الليل وزينب المسكينة لم يرقأ لها جفن . وشعر نحوها بحنان عارم لم يشعر لها بمثله منذ تزوجها، وكان ذلك ما يقرب من عشرين عاما، حين كانت فتاة صغيرة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها طيعة نشيطة رضيت ان تقرن شبابها بكهولته وتقاسمه شظف العيش فتعمل الى جانبه في هذه الحديقة . وقد انصرف عنه اولاده الذين رزقهم من زوجه الاولى التي ماتت من امد بعيد . ولم يبق له من يحنو عليه في شيخوخته المريرة سوى هذه الزوجة الشابة.

ومن سوء طالعه ان تتلقى اليوم نبأ موت اخيها الصغير احمد في السجن، حيث كان الفرنسيون قد سجنوه مع من سجنوا من الطلاب عند انبثاق ثورة الجزائر، قال لها بصوت خفيض مرتجف حاول جهده ان يكون رفيقا رحيما :

ــ ارحمي نفسك يا زينب كفاك بكاءا، انا لله وانا اليه راجعون، هذه ارادة الله . لقد قتل من قبل ابوك في الجهاد واخوك الكبير وابن عمك وكثيرون غيرهم من ابناء هذا البلد فلم ارك تبكين كما تبكين اليوم.

وما كادت المرأة تسمع كلامه حتى انتصبت واقفة على قدميها، وكأن نارا قد لذعتها، او كانها كانت تتحفز للكلام وقد واتتها الفرص . فقالت بصوت مبحوح جاف :

ــ ولكن احمد قد مات في السجن!.. اتدري انت يا من تعمل عند الفرنسيين ما معنى مات في السجن ؟؟. يعني مات من التعذيب والتشنيع !! .. ثلاث سنوات كاملات وهذا الفتى الصغير يقاوم قساوة هؤلاء القساة الجناة دون ان يلين لهم . آه لو سمحوا لي ان اراه ولو مرة واحدة وهو في سجنه ! ترى اي ميتة اختاروا لك يا اخي الحبيب؟

وتقدمت من عبد الجبار واخذت تهزه بعنف وهي تقول له:

ــ أتحسب انني كنت ارضى ان ابقى الى جانبك اعمل في هذه الحديقة وما يليها من حقول، اخدم الفرنسيين لو لم يعدني (غولميه) ذاك الرجل اللئيم الوضيع الذي تسميه انت بالرجل الطيب ان يسعى لاخراج اخي من السجن ؟. كان الخنزير يقول لي كل يوم : بعد اسبوع سيخرج اخوك من السجن . وكنت اصدق قوله ومضت ثلاث سنوات كاملات، كنت اتعلق خلالها بخيط واه من الامل واخشى دائما ان ينقطع فاسعى جهدي لارضائه وارضاء زوجته العاتية . ولكنه لم يف بماوعد، ويقيني انه لم يفعل من اجل اخي شيئا . وكان باستطاعته ان يفعل كل شيء . كان اللئيم يضحك علي . رحمة الله عليك يا ابي !! كنت اعرف بهؤلاء الفرنسيين الخائنين منا جميعا . كنت تقول لي دائما : تعالي معنا . دعي احمد لرحمة الله ولا تهدري كرامتك، فاذا كان له عمر سيخرج من السجن عندما يخرج الفرنسيون من الجزائر . فلم اطاوعه ورضيت بالذل والعار، رضيت ان ابقى هنا من اجل اخي احمد . اما الان وقد مات احمد فانا حرة طليقة من كل ما قيدت به نفسي . سنحارب مع من يحاربون فاما ننتصر واما نموت كما مات غيرنا. أستطيع ان افعل كل شيء مهما كان صعبا ولكني لا استطيع ان ارى فرنسيا واحدا يدب على ارض الجزائر، كفاني كبتا وحصرا وتمويها . يا الهي كيف أستطعت ان اصبر الى الان ؟!!

ابق انت هنا ان شئت . اخدم سيدك الرجل الطيب كما تسميه، لقد خدمته عشرين عاما وكان من جراء ذلك ان وقعت مرة من اعلى شجرة ارغمك هو على الصعود الى قمتها لتشذب اغصانها فوقعت وتهشمت يدك وقطعت فاصبحت عاجزا لا تصلح الا ناطورا ككلب عجوز . وماذا جنينا بعد هذا كله ؟ غير هذه الاسمال البالية التي تغطيني وتغطيك، وهذا الكوخ الحقير الذي نأوي اليه، ان كوخ الكلاب خير منه، وزريبة الدواب اصلح من سكننا . ورغم كل ذلك ما زلت تصدق ان (غولميه) يعطف على قضية الجزائر، وما زلت تسميه بالرجل الطيب !! وتقول عنه انه غير راض عن تصرفات ابناء قومه . ما اغباك !.. اذا كان هذا صحيحا فلماذا ما برح كل يوم يتدرب هو وزوجه

على اطلاق النار واصابة الهدف ؟ اليس من اجل قتالنا ؟. قم معي وتعال انظر من الكوة الصغيرة التي تظل على القبو لاريك كيف تكدست فيه صناديق الذخائر والمتفجرات . ستقول كما قلت مرارا أنك رجل عاجز لا تصلح للدفاع ، وانك اذا التحقت بالثورة ستكون عالة على الاخرين . اما انا فلست مثلك . انني قوية واستطيع ان احتمل كل شيء.

وانحنت على الارض ورفعت صرة كبيرة القتها على ظهرها كانت قد جمعت فيها كل اشيائها وفتحت الباب وسارت مهرولة في طريقها دون ان تلتفت اليه. وظل هو في مكانه مسمرا لا يتحرك وقد تهدل راسه على صدره بذل وانكسار . كان الذهول قد تملكه عندما رأى أمراته التي عهدها مسكينة ضعيفة تنقلب ثائرة قوية لا يخيفها شيء ، توجه اليه الاهانة تلو الاهانة فلا يستطع ان يرفع رأسه امامها او يوجه اليها كلمة واحدة . واخذت هي تعدو في الحديقة .

كانت نسمات الصباح الندية تداعب وجهها فيغمرها شعور لذيذ غريب لا عهد لها به ، شعور الحرية والانطلاق . راحت تشعر بذلك سعيدة هانئة رغم ما بها من حزن والم ، كأن اعباء السنين الماضية المليئة بالكبت والحصر والذل والانكسار قد ازيحت فجأة عن كاهليها ، فشعرت بكيانها ، واهتدت الى نفسها الضائعة . انها الان شخص عظيم يستطيع ان يتصرف حسب مشيئته ، ويستطيع ان يقرر مصيره .

واخذت تعدو بخفة لا تعهدها بنفسها . وفتحت باب الحديقة والقت على الدارة الانيقة الضخمة القائمة في وسط الحديقة الواسعة نظرة كلها حقد واحتقار ، وراحت تعدو في الطريق .

كانت المسكينة تجهل ان باب الحديقة متصل بسلك كهربائي فيه جرس يرن في غرفة نوم السيد (غولميه) كلما فتح باب الحديقة امعانا في الحيطة والحذر. ويقفز الفرنسي وزوجه من سريرهما وبيد كل منهما بندقيته وينظران من النافذة. وتقول الزوجة « هذه هي زينب تحمل صرة كبيرة وتعدو في الطريق ، الى اين تذهب ولما تشرق الشمس ؟؟ »

ويقول الزوج : « ستلتحق اللعينة بالثوار حتما . لان اخاها قد مات البارحة في السجن . كانت الغبية تطلب مني دائما ان اتوسط لاخراج هذا الثائر المتمرد بحجة انه صغير السن . سأقتلها قبل ان تصل الي مأربها . » وتقول الزوجة : « دعها لي . دعني اجرب مقدرتي في الرماية » وقالت وهي تعد بندقيتها : « كانت الشقية خادمة ممتازة خدمتنا عشرين سنة . ولكني كنت أتوجس منها خيفة دائما . واعرف انها خبيثة تظهر غير ما تخفي . ان زوجها خير منها » واطلقت بندقيتها . فالتفتت زينب نحو الصوت ثم تابعت عدوها بسرعة اكثر – وقفز عبد الجبار من كوخه عندما سمع أزيز الرصاص واقترب من حاجز الحديقة واخذ ينظر بهلع الى الطريق فلاح له شبح زينب من بعيد ، فابتسم قليلا عندما اطمأن عليها . ولكن طلقة ثانية راح يرن أزيزها من فوق رأسه ، ورأى شبح زينب يترنح ذات اليمين وذات اليسار ثم يهوى الى الارض !!. ويهوي معه قلب عبد الجبار .. ويسمع ضحكة عالية اطلقتها حنجرة الرجل الذي كان يسميه بالطيب . سمعها وكأنها قهقهة قرد في غابة كثيفة موحشة . ويذهل عبد الجبار لحظة . ثم يعود الى كوخه صلبا قويا وقد صمم امرا فظيعا لا يرده عنه شيء.

وما هي الا لحظات حتى يخرج من الحديقة ويعدو في الطريق نحو زينب التي كانت تتخبط في بركة من دمائها!! حتى اذا كان على بضع خطوات منها سمع دويا هائلا . وفتحت زينب عينيها للمرة الاخيرة فرأت الدارة الانيقة تهوي بين السنة اللهب وعجيج الدخان والغبار ، ورأت عبد الجبار يلهث وقد ارتمى بقربها وهو يقول لها :

– لقد فعلتها يا زينب . القيت قنديل الزيت وهو مشتعل من الكوة التي تطل على مخزن الذخائر . لن يستطعوا ان يتغلبوا علينا ، فموتي قريرة العين .

دمشق **الفة عمر باشا الادلبي**

صورة الأم في الشعر

بقلم وديع فلسطين

في غمرة الاسى على فقد امي الرؤوم ، نشدت السلوى بين دواوين الشعراء ، فتناولت طائفة منها انقب فيها عن صورة الام في خواطر الشعراء ، عسى ان اجد في ذلك عزاء عن رزء ليس فيه عزاء . فالفيت الشعراء في هذا المقام ثلاثة انواع ، شعراء ليس للام ذكر في دواوينهم ، وشعراء لم يتحدثوا عن الام الا في مناسبة الرثاء ، وشعراء تغنوا بالام في مواضع شتى ، فكان ذلك منهم وفاء حقيقا بالاطراء والاشادة .

ولكن شذ على هذه القاعدة الشاعران محمود ابو الوفا وصالح شرنوبي ، وكان ذلك منهما مسلكا مستغربا لما انسناه فيهما من شفافية الروح وصفاء الوجدان ورقة العاطفة وجميل الوفاء . ولعل وطأة الحياة عليهما هي التي املت عليهما شعور الجحود لا بالام وحدها ، بل بالوالدين معا .

فقد نظم ابو الوفا قصيدة في رثاء نفسه (١) نقم فيها على امه وابيه لانهما انجباه للبؤس ، وعاتب اباه لانه بنى بأمه ولم يقض عمره شأن الزاهد السالي ، قال :

ابي وفي النار مثوى كل والدة ووالد انجبا للبؤس امثالي
خلفتني فوضعت الحبل في عنقي تشده كف دهر جد ختال
ما كان ضرك لو من غير صاحبة قضيت عمرك شأن الزاهد السالي ؟

بيد ان محمود ابا الوفا سرعان ما استغفر ربه عما رمى به أبويه ، فقال في « النشيد » (٢) :

لم لا ازهى بامي وابي مثل ما الابناء تزهى بالبنين

وسار على نفس الدرب الشاعر صالح شرنوبي فعاب على والديه جنايتهما ، كما عاب ابو العلاء المعري على ابيه جنايته عليه حين قال :

هذا جناه ابي علي وما جنيت على احد

ووصف الوالدين بانهما طريدان عاصيان ، وقال انه يكفر عن الجرم الذي اقترفاه ، فقال في قصيدة له عنوانها « الوجودية » (٣) :

نكفر عما جنى الوالدان فيا للبرية ما جرمها
انا ابن الطريدين اشكو اليك وملء دمى ثورة الابرياء
الم تك قدرت ان يعصياك فلم يخرجا عن محيط القضاء ؟

واكثر الشعر في الام هو في باب الرثاء ، وهذه ظاهرة يمكن تعليلها بان قيمة الام لا تتجلى للبنين في اسطع صورها الا يوم يفقدونها الى الابد . فكأنما محبة الام وتضحياتها وسهرها على ابنائها وتفانيها في تربيتهم امور مسلم بها ، لا تستحق الام عليها ثناء في حياتها ، وواجبات تقوم الام بها دون ترقب لشكران وهي بعد حانية على ابنائها . ولعل من اسباب عدم المجاهرة بحب الام ان الشرق عموما لا يزال يعد المرأة ادنى مرتبة في المجتمع من الرجل ، ولا يزال يعتقد ان المرأة عورة ينبغي سترها واخفاؤها وراء الاستار فان نوديت فبكنايات وصفات ، لا باسمها المجرد ، وان اشير اليها فبالفاظ محجبة . بل لقد عرفت العرب زمنا كانت فيه نسبة الرجل الى امه ضربا من ضروب الهجو المقذع ، لان « ابن امه » لا يمكن الا ان يكون مجهول الاب دعيا .

واذا كانت المرثيات درجات من حيث صدق الراثي وخلوص نيته ، فان رثاء الام هو اصدق الرثاء جميعا ، لانه يصور فجيعة لا تتكرر في حياة الشاعر ، ولان فضل الام على بنيها اعمق من ان تكفي في الاشادة به المعاني المكرورة المألوفة والعبارات الدانية القطوف .

ومن عجب ان الشاعر خليل مطران الذي رثى الذاهبين من معاصريه بمطولات من القصائد ، لم يستطع ان يعبر عن اساه في فقد امه الا ببيتين اثنين من الشعر ، هما في اعتقادنا اوجز ما قيل في باب الرثاء ، فبعنوان « زفرة بعد الوالدة » قال مطران في ديوانه (٤) :

وفدوا يسألونني كيف حالي لو دروا ما جواب هذا السؤال!
ما حياتي بعد التي هي منها ؟ ما كفاحي فيها وما آمالي ؟

وبمثل هذا الايجاز غير المخل اعرب الياس قنصل عن حبه العميق لامه في مرثية صور فيها حاله اجمل تصوير ، فقال (٥) :

رياح البعاد تهز فؤادك هزا عنيفا ، ودمعك يهمي
وقد رسم الشوق رسما جليا على وجهك العابس المدلهم
فانت ضحية دهر خئون وانت فريسة حزن وغم
وفي زفراتك لفحة حب عميق ، بمن يا غريب تفكر ؟
بامي ! ...

ورثت عائشة التيمورية (٦) امها بقصيدة تحدثت فيها عن الموت والداء والفجيعة اكثر مما تحدثت فيها عن الام وفضائلها ومنزلتها في القلب . فقالت في مطلعها :

يا قبر فاهنأ بالتي احرزتها هي درة في الدرج لاحت تسطع

الى ان قالت :

ذهب الاحبة واستقل ركابهم يا ليت روحي ودعت اذ ودعوا

---

(١) انفاس محترقة — محمود ابو الوفا — ص ٨٣ — ٨٤

(٢) انسان الفصل الخامس — محمود زيتون — ص ١٥٧

(٣) نشيد الصفاء — صالح شرنوبي — ص ٨

(٤) ديوان الخليل — خليل مطران — ج٤ — ص ١٧٩

(٥) الشعر العربي في المهجر — محمد عبد الغني حسن — ط ٢ — ص٣٢١

(٦) حلية الطراز — عائشة التيمورية — نشر لجنة المؤلفات التيمورية — ص ٢١٧

يا ليتهم طلبوا الفداء فهذه روحي ، ولكن ليت ليست تنفع

ولو حاولنا ان نتقصى صورة الام في هذه المرثية ، لما افلحنا في ذلك . لان القصيدة على متانة سبكها يمكن ان تحمل على انها رثاء لاي كان . بل ان لفظة « الام » لم ترد فيها ما خلا في العنوان . ورثى جورج صيدح(٧) امه بقصيدة رائعة عامرة بمعاني الحب والعرفان بالجميل ، قال :

كسرت قلبي فمن يجبره ان تكن امي التي تكسره

✶

لست اشكوها فشكواي جحود ولها في عنقي دين الوجود
ان قلبي ليس بالقلب الحقود يلثم الكف التي تنحره
كسرت قلبي فمن يجبره ؟

✶

اتراها حملتني للحياة كي اقضيها على شوق الممات ؟
نعمة الدنيا حنو الامهات خاسر الامال من يخسره
كسرت قلبي فمن يجبره ؟
ليتني ما زلت في المهد الى جنبها ، توسع خدي قبلا
عادني الداء ، فما عادت ولا سهرت ليلي الذي اسهره
كسرت قلبي فمن يجبره ؟
اين اهلي ، قلت للآسي الكريم لا تسل عنهم فما فيهم رحيم
ان لي اما ، وبي جرح اليتيم اي جرح بعده احذره ؟
كسرت قلبي ..
كسرته فاصابت قلبها وتلاهت تتناسى خبها
ليت شعري ! حين تلقى ربها مثل هذا الاثم هل يغفره ؟
كسرت قلبي...
رحمة يا رب في اليوم الاخير واعف عنها ! قد عفا قلبي الكسير
ان ذنب الام في عيني صغير وخلال الدمع لا ابصره
كسرت قلبي فمن يجبره ؟

ومرثية صيدح الوجدانية المنحى نموذج من شعر الوفاء للام . فلم يبك الشاعر او ينحب، ولا طاش صوابه في محنة دامية كهذه المحنة ، ولكنه عبر برقيق الكلام عن شعور ابن وفي لامه الحنون في يوم منعاها .

وخالف « صيدحا » في تعبيراته الهادئة الرزينة الشاعر فريد ابو فاضل ، فقد تفجع وتوجع وذهب لبه وعاش ليالي بلا صبح ولا فرج وبكى امه بدمع هتون . قال في مرثيته «امي» (٨) :

امي حنان دافق نضبا !
دنيا جمال بدرها غربا !
امي افترار الفجر منبلجا !
امي ابتسام الدهر ان غضبا !

✶

كانت هي الدنيا واذ ذهبت
لم يبق ذو بث وما انتحبا !

✶

(٧) الشعر العربي في المهجر ـ محمد عبد الغني حسن ـ ط٢ ـ ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠

(٨) امي ـ فريد ابو فاضل ـ مجلة « الغربال » البيروتية ـ فبراير ١٩٥٨ ـ ص ٩

الارض دون الام موحشة
والعيش بعد الام كم صعبا !
ليل بلا صبح ولا فرج
يحظى به المكلوم او اربا !
يضني جوى توقا لرؤيتها
هيهات ان يلقى الذي طلبا !

فقارىء قصيدة فريد ابي فاضل يستشعر مدى فجيعته في امه ، فقد نزلت عليه النازلة بثقل وطأتها ، حتى مج الحياة وغامت عيناه فلم ير الارض الا بلقعا موحشا بعد ان هجرتها الام ، والمرثية بدورها قصيرة لان الشاعر استطاع ان يسكب جميع مشاعره في هذه الابيات القليلة ، واغنته بلاغة الايجاز عن الاطناب الممل .

ومن ابلغ المراثي في الام « الظل المنحسر » (٩) للشاعر حسن كامل الصيرفي . ففيها صور الشاعر امه كالظل الظليل تأوي اليه الروح ان اشتد اللظى ويجد القلب فيه مأمنا ان امتد الدجى ، ويرتد العقل فيه الى الايمان اذا اليأس طغى ، فاذا ذهب الظل ، فلا مأوى لغريب ليس يدري مسكنه . فالام عند الصيرفي ملاذ في وقت الشدة ، وحصن في زمن المحنة هي الجنة التي فيها ينعم الشاعر بأفانين الحب والسلامة . هي ثروة فقدها الصيرفي وما اغبنه. وقد حرص الشاعر في مرثيته هذه على ان يصور حاله وكيف انه لا يزال ظاعنا يشكو الوهن ، يسقى الوداع المر ويقتات الحزن ، بدموعه يغسل اعزاءه ويكفنهم ، لا يجتني غير كد وشجون وضنى . اصابته الفاجعة بحيرة يحاول ان يداريها بالسكون الجهم ، عابسا يوشك من سحنته ان يكون ناقما مضطغنا .

وفي هذه المرثية الطويلة البليغة قال الصيرفي :

ذهب الظل الذي كان هنا نعمة من رحمة الله بنا
ذهب الظل وعمري، لم يزل ظاعنا يشكو الصدى والوهنا

✶

كان لي ظل اذا اشتد اللظى اوت الروح اليه فحنا
كان لي ظل اذا امتد الدجى وجد القلب لديه المأمنا
كان لي ظل اذا اليأس طغى ردني بعد ضلالي مؤمنا
ذهب الظل فلا مأوى هنا لغريب ليس يدري السكنا
الهجير المستبد استعرت ناره تشوي ، وهبت السنا
وانا تلفحني النار ولا اجد الظل الذي كان هنا

✶

ذهب الظل ، ولما استرح من عناء السير الا موهنا
ذهب الظل الى بارئه ففقدت امي وودعت المنى
جنتي كانت ولكن ذهبت من امامي مثلما ـ يخبو السنا
ثروة كانت وما اغبنني في تراب الارض واريت الغنى
لم يعد أثمن عندي من ثرى دفنت فيه أحبائي هنا

اما الشاعر شبلي الملاط (١٠) فقد تحين فرصة عيد الام ليتأسى على فقد امه وليشيد بفضل الام في كل مكان . غير انه يذهب في التصوير مذهبا مألوفا ، فيتحدث عن

(٩) الشعر والتجديد ـ محمد عبد المنعم خفاجي ـ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥

(١٠) ديوان شبلي الملاط ـ ص ٤٥٦ ـ ٤٥٨

سهر الام على بنيها ، وارضاعهم لبن صلاحها ، وتضحياتها لاجلهم ، ونصائحها لصغارها ، فلا يحس القاريء بان الشاعر يتحدث عن امه او عن تجربة ذاتية ، بل يحس بانه يتحدث حديثا عاما يصدق في كل حال . والقصيدة شقان، شق ينسحب على الامهات جميعا ، وشق خاص فيه خلجات الشاعر في محضر أمه او في محضر ذكراها . ففي الشق العام يتحدث الشاعر عن الام باعتبارها « عماد مجتمع وهامة اسرة » و « مرضعة النبيين » و « باعثة الكون » ، ويقول ان دنياها تربية ، وان رسالتها ان « تنشي الفروع زواهيا وزواكي » . اما في الشق الخاص ، فان الملاط يتمنى لو كان فداء لامه ، شأنه في هذا شأن التيمورية فيستهل قصيدته بقوله :

لو انني يا ام كنت فداك — اشهى الاماني في سبيل رضاك
برأ الحنان الله يوم براك — طوباك من مخلوقة معبودة
عندي بمنزلة الكئيب الباكي — والقصر ان لم تؤنسيه فانه

ويبرح به الوجد باه الذاهبة ، فيقول :

يا من ذكرتك جازعا ، متنهدا — متألما وبكيت من ذكراك
افما ترين الهجر طال وانني — يا ام مشتاق الى لقياك
لا بد من يوم اللقا مهما يطل — حبل النوى فسنلتقي واراك
لم تمنعي عني الخيال وصورة — في ناظري عن صورة لصباك

*

بالامس كنت مدى حياتك حارسي — واليوم يا اماه انت ملاكي
ما عشت لا انسى حنوك ساعة — حتى يضم الى ثراي ثراك

ثم ابرأ الملاط الامومة جميعا من كل انحراف عن سواء الحياة، والقى تبعةالزيغ على غيرها، فقال في خاتمة قصيدته:

يا ام ان قذف الزمان على الورى — نارا وشذ بنوك عن مبداك
لا تحسبي ان الامومة اذنبت — نحو الورى ، فالذنب ذنب سواك

وتحدث عدد من الشعراء عن الام لا في مناسبة الرثاء او التفجع على موتها ، بل في مناسبة تمجيد الام والتعلق بها والاشادة بمآثرها والتفاني في حبها . ولعل اكثر من تغنى بالام من الشعراء رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) وابو القاسم الشابي الشاعر التونسي.

فالقروى تياه بامه في نثره وفي شعره،بل انه مزهو بكل ام . فعلى سريره علق رسم والدته ، وعلى رضا الام امساؤه واصباحه، وقلب امه رقيق وصوت امه يطربه وذكر امه يسكره وطيف امه يحرسه ، ولو خير بين المال والاصحاب والاشعار الغوالي وبين امه ، لاختار كنز الام فهو اغلى من التاج المرصع باللآليء. وفي قصيدة « حضن الام » (١١) استلهم الشاعر القروي المعاني من وجه امه « وقد غمرته ابتسامتها الفائقة العذوبة بموجة من الحنان الذي لا يوصف فتعلقت روحه باسباب ذلك الشعاع المنبعث من عينها الحلوتين ، نافذة وراءهما الى عالم قدسي عجيب » . فالشاعر متعبد في هيكل الام ، هائم بها هياما طاغيا ، يرى في حضن الام نعيما يتشهاه لا البشر وحدهم بل « سيد الاكوان » ، على حد تعبيره .

(١١) ديوان الشاعر القروى — رشيد سليم الخوري — ص ٨١٩ — ٨٢٣

وخريدة الشاعر القروي في امه ، هي رائعة من روائع شدوه ، ففيها قال (١٢) :

ولو عضفت رياح الهم عصفا — ولو قصفت رعود الموت قصفا
ففي اذني عند النزع صوت — يحول لي عزيف الجن عزفا
فيطربني ، وذلك صوت امي

ولو ملئت لي الجامات صبرا — ولو جرعت حلو العيش مرا
ففي شفتي ينبوع عجيب — يحول لي كؤوس الخل خمرا
فيسكرني ، وذلك ذكر امي

ولو هجمت على قلبي البلايا — وهدت سدود امالي الرزايا
فان بباب فردوسي ملاكا — يسل السيف في وجه المنايا
فيحرسني ، وذلك طيف أمي

ولو اني رزئت بفقد مالي — واصحابي واشعاري الغوالي
فلي كنز ، وقاه الله ، اغلى — من التاج المرصع باللآلي
الا وهو الحنان بصدر امي

ولو يا رب في اليوم العظيم — تلوت علي حكمك بالجحيم
فلي امل بان ستعود يوما — فتصفح في جهنم عن أثيم
وقلبك يستحي من قلب امي .

فهل ثمة ما هو اجمل من هذه المعاني واكرم ، تساق الى الام من اوفى الابناء واكرمهم ؟ ومتى كان القروي الا قلبا يفيض بالحب للناس جميعا ، أفلا يفيض بمثل هذه العاطفة للامم الجليلة المنجاب ؟

وبمثل هذه النظرة الحانية يتأمل ابو القاسم الشابي دنيا الامومة ، فيصفها بانها « حرم الحياة » ويقول انه حرم سماوي الجمال مقدس ليس فوقه ما هو اجل واقدس لان الحياة فيه تكتمل وتقدس . فالامومة عنده قدس اقداس ، هي ذات جلال وروعة وبهاء ، وليس يبدل من هذه الصورة حدث من احداث الحياة ولا طاريء من طوارئها الكثار . ففي قصيدة عنوانها « حرم الامومة » قال ابو القاسم الشابي (١٣) :

الام تلثم طفلها ، وتضمه — حرم سماوي الجمال مقدس
تتأله الافكار ، وهي جواره — وتعود طاهرة هناك الانفس
حرم الحياة بطهرها وحنانها — هل فوقه حرم اجل واقدس ؟
بوركت يا حرم الامومة والصبا — كم فيك تكتمل الحياة وتقدس !

اما قلب الام ، فان ابا القاسم الشابي يصوره ابين تصوير في قصيدته التي تخير لها موضوعا مستمدا من الحياة الدامية اليومية . فقد احتسبت ام وليدها ، سرعان ما نسيه الناس جميعا « الا فؤادا ظل يخفق في الوجود الى لقاه ويود لو بذل الحياة الى المنية وافتداه » . فالام لا تنسى ابنها ولو نسيه الناس جميعا ، تصغي لنجواه في خريد الساقية وفي رنة المزمار ولغو الطيور الشادية وضجة البحر المجلجل وهدير العاصفة ، تصغي اليه في آهة الشاكي وشهقة الباكي ، أفيعرف هذا الطفل المائت اي قلب يتوجع ابد الدهر ؟

هو قلب امك ، امك السكري باحزان الوجود
هو ذلك القلب الذي سيعيش كالشادي الضرير
يشدو بشكوى حزنه الداجي الى النفس الاخير

(١٢) ديوان الشاعر القروي — رشيد سليم الخوري — ص ١٧٧ — ١٧٨
(١٣) اغاني الحياة — ابو القاسم الشابي — ص ١٨٢

لا ربة النسيان ترحم حزنه وترى شقاه
كلا ! ولا الايام تبلى في اناملها اساه
هو ذلك القلب الذي مهما تقلبت الحياة
وتدفع الزمن المدمدم في شعاب الكائنات
وتغنت الدنيا ، وغرد بلبل الغاب الجميل
سيظل يعبد ذكرياتك ، لا يمل ولا يميل (١٤)

فأذا كان الشاعر القروي قد ابدع في تصوير وفاء الابن لامه ، فان ابا القاسم الشابي قد برع في تصوير فناء الام في حب ابنها . ورائد كل منهما وفاؤه للامومة المثلى .

والشاعر ايليا ابو ماضي تياه بابويه كليهما ، لا يكاد يفاضل بينهما . فان تحدث عن ابيه او امه لم يسعفه الا « افعل التفضيل » . قال في رثاء ابيه (١٥) :

فاعظم مجدي كان أنك لي اب واكبر فخري كان قولك : ذا بني !

اما امه ، فلم يتحدث ابو ماضي عنها في شعره حديثا صريحا ، واكتفى بالتلميح الكريم في قصيدة له عنوانها « هي » (١٦) فقد صور لنا مجلسا من مجالس السمر ، اديرت فيه الكاس والطاس ، واخذ الشباب يزهون بصويحباتهم فيطري كل منهم اخت فؤاده بين مرح الجالسين ومزاحهم . الى ان قام بينهم شاب أثار غيرة الغادات بحديثه عن امرأة ، فاخذن يتضجرن ويقلن : اف ، لقد شوه المجلس تشويها . وقال بعض السمار : خبلته الطلا وصار معتوها . ولما صاح فيه رب الدار : يا سيدي ، وصفتها ، لم لا تسميها ؟ اتخجل باسم من تهوى ؟ احسناء بغير اسم ؟ اطرق الشاب غير مكترث وتمتم خاشعا : امي .

والحديث الذي ساقه ابو ماضي في وصف الام هو :

قال اجل : اشرب سر التي بالروح تفديني وافديها
صورتها في القلب مطبوعة لا شيء حتى الموت يمحوها
لا تترضاني ريـاء ، ولا تلثمني كذبا وتمويها
يضيع مالي ويزول الصبا وحبها باق وحبيها
قد وهبتني روحها كلها ولم تخف اني أضحيها
سر التي لا غادة بينكم مهما سمت في الحب تحكيها

ومن الشعراء الذين تغنوا بالام شفيق معلوف والياس قنصل وصلاح الاسير . اما المعلوف وقنصل ، فقد عز عليهما ان يركبا متن البحر الى العالم الجديد تاركين وراءهما قلب الام . فلما حط رحالهما في ارض الهجرة ، هاج بهما الشوق الى الام ، فناجياها بشعر معتصر من الفؤاد الدامي وخاطباها بعاطفة مضمخة بايات الصدق المجلوة . قال شفيق معلوف في امه (١٧) :

شراع مد فوق الموج عنقا وراح يرود خلف الافق افقا
يقل فتى تبدى الشط جهما له فاشاح عنه الوجه طلقا
وغادر عند صخر الشط اما تذوب اليه تحتانا وشوقا
فما نضبت لمقلتها دموع كأن لعينها في البحر عرقا

ترى الامواج تدنيها رياح وتبعدها ، وصخر الشط يبقى
تمر بها السنون فما يبالي بما تلقى لغربته ويلقى
تشق يداه قمصان الليالي ويكسو امه منهن رشقا
وهل قنعت بما يجنيه ام ابت الاه عند الله رزقا
ترى هل آب من سفر شراع ولم تشبعه تقبيلا ونشقا ؟

وبمثل هذه اللوعة اللاهبة تحدث الياس قنصل (١٨) عن فراق امه ، قال :

واستصفر الدهر ما القى ، فلوعني بحرقة البعد عن امي وعن وطني
اماه ! لا شيء في الغبراء يبهجني فلا الام اذا ما بت اسوانا
اماه ! مر شبابي بالعذاب فهل يعد الشباب يعود العمر ريانا ؟
اماه ! لولا افتكاري في دموعك لم اصبر على غصص الدنيا الى الانا!

ويتقمص صلاح الاسير ثوب الام ، وينطق بلسانها فيقول في قصيدة له (١٩) :

أنا الالام ابني الدهر من روحي ومن جسمي
خلقت وبي من الاسحار وجد الليل للنجم
احس الهم في قلبي ربيعا اخضر الحلم
والقى الله قربي في نداء الطفل يا امي
انا الالام همي ان اظل أليفة همي
هناء العمر شيء لم يعانق طيفه وهمي

فألام عند صلاح الاسير لا تعرف الهناء ، وعند الصيرفي ظل يستظل به ، وعند القروي تعويذة من اشباح الاتراح ، وعند صيدح نعمة الدنيا ، وعند الملاط انيسة الحياة ، وعند ابي ماضي حبيبة العمر وعند خليل مطران منشئة حياته ، وعند ابي فاضل حنان دافق . والواقع ان الام في سموها ووداعتها وتضحياتها والامها وتفانيها واخلاصها لا تلين لريشة المصور ولا لخيال الشعراء . فهي صفوة المعاني الطيبة في الحياة ، ودفقة المشاعر النبيلة في المجتمع البشري ، ومهوى الحب في اطهر صوره ، ومنبع الايثار في امجد اياته . انها قبس من نور الاله ، وكنز من فضائل الدنيا ، وعالم من المثاليات يتجدد ولا يتغير .

القاهرة **وديع فلسطين**

(١٤) اغاني الحياة — أبو القاسم الشابي — ص ١٢٩ — ١٣٣

(١٥) الخمائل — ايليا ابو ماضي — ص ٦٢ — ٦٤

(١٦) الشعر العربي في المهجر — محمد عبد الغني — ط ٢ — ص ١١٤— ١١٥

(١٧) لكل زهرة عبير شفيق معلوف — ص ٢٦ — ٢٩

(١٨) الشعر العربي في المهجر — محمد عبد الغني حسن — ط ٢ — ص ٣٢٢

(١٩) الواحة — صلاح الاسير — ص ٩٩ — ١٠٠

الكوميديا الانسانية

«انك مثلا ، سوف تغرس الزيتون فـي السبعين من عمرك ، لا ليبقى لاولادك واحفادك
من بعدك ، ولكن لانك لا تؤمن بالموت ولو رهبته ولانك تؤمن بان الحياة تشيل اكثر في الميزان »
« من شعر ناظم حكمت »

١ ــ الغرفة السابعة !

بالامس .. كنت والرفاق نقتل الضياع
والحزن .. والفراغ .. والضجر ..
بحلوة ارق من شعاع ..
هفهافة كأنها غلالة الحرير
رقراقة كصفحة الغدير ..
في القمر .
ولكنني الدخان .. والمراح .. والصخب
والنقر فوق مقعد من الخشب ..
واللحن ــ كان غابة مسعورة الصدى ــ
يهزني .. يخيفني .. يردني الى الكهوف
كان الرفاق يضحكون .. يرقصون ..
لكنني مسمر الى الجدار ..
ففي الجدار مشجب .. ذراع مشنقة !
وحفرة عميقة كوقب جمجمه ..!!
وصورة لطفلة وشيخ ..
الطفلة ابتسامة .. نوارة .. بللورة
(من الندى
والشيخ مقلتاه تلمعان في ذهول ..
وراء خيمتين من نسيج عنكبوت ..
كأنه يموت !!
شربت في سعار ..
هنيهة .. ولكنني دوار ..
وغصت كالسفين للقرار !!
وفي القرار من هياكل الموات مزرعه :
امي .. واخوة شيعتهم مع الصبا ..
(واصدقاء ..
صرخت .. « لا اريد .. لا اريد ان
(اموت ...
وان ادس في التراب جيفة بغير نبض .
وان اصير للذباب مأدبه ..
وان تقوم عند قبري المهدم الخرب
صبارة كأنها ذراع مستجير ..!!
فالهول في القبور ..
الليل .. والفراغ .. والسكون للابد !
الهول في القبور ..
لا حب .. لا افراح .. لا اضواء ..
(لا زهور !
حياتنا قصيرة .. قصيرة وواحده
وكم تكون حلوة لو انها تعاش
لكننا نموت مرتين
لاننا نعيش أشقياء !! . »
يا قصة صغيرة .. صغيره ..
عن غرفة عجيبة مطلسمه ..
جدرانها حديد ..
وبابها وقفلها حديد ..
وعند رأسها يقوم غول ..
« الموت للذي يحاول الدخول » !!
وجاء (شاطر) فعانق الخطر ..
وحل لغزها المهول !!
« الموت للذين يجبنون ..
ويؤثرون (سكة السلامه) !! »
ــ فقل لنا امات ذلك البطل ؟؟!
وقهقه الرفاق ساخرين ..

٢ ــ زفاف بلا عريس ..!!

أتذكرون خطبة (العريس) في الجموع ؟
« طوبى لصانعي السلام ..
الناحتين بالاظافر الجبل ..
الشاربين في الظما مرارة بخل !..
الزاحفين بالدفوف والزهور والسعف
رؤوسهم على الاكف ...
السائرين والطريق كلها حفر ..
والموت ما يزال يقطع الطريق ..
البوم .. والغيلان .. عند كل منعطف
لكن بسمة الرضا على الشفاه ..
طوبى لهم .. لصانعي الحياه ..
تهللوا .. تهللوا .. تهللوا ..
فالري للعطاش .. والخبز للجياع ..
والثوب للعراه ..
والسقف للذين في العراء ..
والارض للذين يكدحون ..
والامن والرخاء للجميع ..
تهللوا .. تهللوا .. تهللوا ..
العرس في القريب ..
ترقبوه صاعدا من الافق ..
كالصبح .. يغسل الدروب بالفرح
وتسألون .. « هل اكون بينكم ؟ »
لا تجزعوا .. اني انا العريس ..
لن أشهد الزفاف مثلكم ...
فدونه الصليب !! »
ومات ذلك العريس كي يعيش !!
ــ أمات كي يعيش ؟ !
وقهقه الرفاق ساخرين !
« طويلة هي الطريق يا رفاق ..
مهولة هي الطريق ..
لكنما حلاوة العناق ..
والظل والامان في نهاية الطريق »
ــ وهل نكون في الزفاف !!؟
« لا تسألوا .. فاننا على الصليب ..
طوبى لنا !
طوبى لنا ! »

القاهرة — **نجيب سرور**

الواقعية في الأدب العصري

بقلم سلامة موسى

كلمة الواقعية مشتقة من الواقع . واذن هي معالجة المؤلف للاشياء والناس والمشكلات والحلول وفق الواقع . وليس وفق الخيال .

هي المعالجة الموضوعية التي تتفق وواقع الحال وليست المعالجة الذاتية التي تعتمد على الاغراض الشخصي . ولا يستطيع احد منا ان يفصل الفصل التام بين ذاتيته الشخصية وما تحمل من أهواء وأغراض وبين واقع الحال في الاشياء والناس والمجتمع والفن

بل ليس هذا ضروريا او حسنا . لاننا لا نجد موضوعا ما في هذه الدنيا الا ونحن خلفه باحساسنا وتعقلنا ووعينا وضميرنا . وجميع هذه الكلمات تلابس الذاتية اكثر مما تلابس الموضوعية .

ولكن هناك اشياء تجنبها المذهب الواقعي ونجح في تجنبها . وادى هذا التجنب الى زيادة في الفهم واخصاب في الفن .

تجنب المذهب الواقعي ، اول ما تجنب ، ذلك الاسلوب الموروث بشأن اختيار الكلمات المذهبة وتأنقات الفصاحة والبلاغة ، تجنب الجملة الزاهية والكلمة اللامعة ، كما كان اسلوب العصر الماضي قبل الواقعية ، بل كما كان اسلوب الكتاب عندنا في اللغة العربية ايام القرون الوسطى ، هذا الاسلوب الذي نراه على اقصاه وارذله في مؤلف سيرة صلاح الدين .

فاننا هنا نقرأ جملا مسجوعة وتأنقات لفظية يلتذها المؤلف وقد يلتذها القارىء ايضا . ولكننا ننسى في سياق هذه الكلمة الحلوة التي نتمزها اكثر مما نقرأها اننا ازاء شخصية تاريخية عظيمة كانت قدرا في التاريخ بين الشرق والغرب واننا لا نعرف عن صلاح الدين ما كنا نحب ان نعرفه .

تاريخ صلاح الدين الذي الفه هذا الرجل لم يكن واقعيا وان كان تأنقا فنيا . ومع ذلك ما كان أسخفه من فن !

وكما رفضت الواقعية الكلمة المذهبة والجمل المتأنقة كذلك رفضت الاستسلام للغيبيات . فليس الفقر مثلا حكم الاقدار على الناس . وانما هو مرض يمكن ان يعالج . وليس الانسان اسيرا في هذا الكون يخضع للطبيعة وانما هو سيد هذا الكون يغير الطبيعة ، وليس الانسان عاجزا يجب ان يرضى بعجزه وانما هو قادر على ان يحيل عجزه الى علم ومعرفة يسيطر بهما على حظوظه .

وأخيرا ليست الواقعية من حيث أنها طراز فني للتفكير والتعبير تهدف الى الجمال . وانما هي ، في ظروفنا الحاضرة ، ظروف الفقر والجهل والمرض ، ظروف الرق والحرب والاستعمار ، تهدف الى الانسانية . اجل . ليست الواقعية ممارسة الفن للفن .

الواقعية هي اسلوب الادب الجديد ، ادب العلم والانسانية معا . هي ممارسة الفن لخدمة الانسان .

★

الواقعية ضد الرومانسية

في مصر كتاب يصفون الشعراء العرب في القرون الوسطى بأسمى الاوصاف وانهم البلاغة كلها والادب كله . ليس افصح من البحتري ولا اعجب من ابن الرومي ولا اعظم من المتنبي . أجل . ويصفون الخلفاء ويتغنون بالبذخ الذي كان يعيش فيه هرون او المأمون والجواري والحلل الذهبية والقصور والكرم الحاتمي . بل انهم ليصفون لنا ، برهانا على العظمة والتمدن وسمو العيش ، بركة قد وضع المسك بدلا من الطين على حافاتها . وكل هذه الاشياء تحتاج الى وصفها بكلمات متأنقة كلها فصاحة وبلاغة . هؤلاء رومانسيون .

ولكن في العراق كاتبا واقعيا يدعى علي الوردي . هذا الكاتب قد وضع مؤلفات أوضح فيها ان شعراء العرب في الجاهلية كانوا يمشون بالوقيعة بين قبيلة وقبيلة . وكانوا سببا ، لهذا السبب ، للقتال بين القبائل يحرضون على الثأر والانتقام ولا يدعون الى سلام . وقد ذمهم القرآن ووصفهم بالغواية .

ثم كان شعراء العرب بعد ذلك أي ايام الخلفاء متسولين يبيعون اشعارهم في المديح والهجاء بالدينار والدرهم . يمدحون بلا سبب ويقدحون بلا حق . أو كانوا ، مثل ابن الرومي وابي نواس ، برازيين فاسقين .

كانوا ، كما يقول علي الوردي ، بلاء على المجتمع العربي . ولم يشذ منهم ويسمو عليهم سوى ابي العلاء المعري الذي كان ينبه الشعوب العربية الى ضلال الحاكمين والمتدينين

ومكرهم جميعا لخطف اللقمة من افواه الفقراء المساكين.

ان كتاب مصر الان رومانسيون ذاتيون يتبعـــــــــون الخيالات الكاذبة والاحساسات البدائية عندما يكتبون عــن الشعراء العرب . وعلي الوردي موضوعي واقعي يقول ان الخلفاء كانوا يظلمون الشعوب العربية ويجدون مـــــــن الشعرا مؤيدين لهم مادحين لظلمهم .

✶

الواقعية تعني أن التأليف الفني ليس هو البراعة فـــي محاكاة القدماء ، في افكارهم وكلماتهم ، وأساليبهـــم وأهدافهم ، وانما هي النظر الموضوعي الى المجتمع ومحاولة الوصول الى كنه حقائقه واصوله والتعرف الـــى اسباب سعادته وتعاسته .

والكاتب الواقعي لا يستسلم للاوهام بأن يكون موضوعه فخما يتناول اميرا او ملكا او قائدا ويكتب الاضاليـــــل والاكاذيب عنه . لان واقعيته قد نقلت اهتمامه من هـــذه الموضوعات الملوكية الى الشعب ، الى الالاف والملايـــــن الكادحة ، الى الانسانية .

فهو ، مثل تولستوي ، يعالج الحرب كما هي فـــي واقعها ونتائجها ودمائها وامراضها وأغراضها العليا اذا كانت حرب كفاح ضد العدوان ، او السفلى اذا كانت حرب استعمار وعدوان . وهو يسأل : ما هي القيمة الانسانية في حرب ما ؟

والقيمة الانسانية هي المحك لجميع الموضوعات التـــي يعالجها ، مثل الاستعمار والاستقلال ، بل الرق في ايامنا، بل العادات الدينية المهلكة التي تنافي كرامة الانسان وتبعث الشقاق والبغضاء بين طوائفه

اني احب عندما يتحدث احد عن عبقرية المتنبي ، الذي وقف حياته على مدح سيف الدولة وسب كافور ، ان أسأل : أما كنا نحب المتنبي ونعجب به اكثر لو انه كان قد الف قصيدة في وصف حياة عبد قد اشتراه سيده وهـــو في العاشرة من عمره ، ثم خصاه كي يعيش مع الحريم طيلة عمره ؟ وأحب لو أن شوقي الذي وقف حياته على مدح عباس لو كان قد الف دراسة عليا عن عرابي الذي دافع عن استقلال مصر وكافح استبداد الخائن توفيق .

ان الواقعيةهي الانسانية، هذهالانسانيةالتي كانت تطرق اذن المتنبي وشوقي وتناديهمابشأن الرق الرسمي في أيام سيف الدولة والرق الفعلي في أيام توفيق . ولكن هذه الاذان كانت في صمم عن هذا النداء الانساني لان هذين الشاعرين لم يكونا يعيشان في المجتمع وانما كان يعيشان فوق المجتمع . ولا يزال الرق باقيا الى عصرنا ، الى هذه السنة ١٩٥٨ في بعض الاقطار العربية . ولم يصرخ اديب صرخة الشرف ضـــد السفلة من الامراء والاثرياء الذين يمارسونه ، وذلك لسبب

مع كلماتي هذه بما تحتوي من لهجة التعميم احب ان اتحفظ وان اقول ان طائفة جديدة من الكتاب، جديدة في الوجود لان افرادها لا يزالون صغارا ، بالمقارنة ، في السن ، الى غيرهم ، قد وجدت الطريق الى الانسانية والمجتمع فأنشأت الاسلوب الواقعي . وقد امضى افراد هذه الطائفة او معظمهم بعض سنى شبابهم في السجون لهذا السبب وكانت هذه السجون مدارسهم التي اختمروا فيها

وبعد الاختمار الانفجار او بعد الاضطرام الاشتعال

✶

الانسان هو كما قلت موضوع الواقعية

الانسان العادي في نظامنا الطبقي . العامل والعاملة ، والزوج والزوجة ، والطالب والمعلم والارملة واليتيـم ، والشاب والشيخ . كل هؤلاء وغيرهم في كفاحهم كـي يعيشوا في كرامة بعيدين عن خطر المرض والجوع والفقر والحرب .

ولا يمكن ان يعرف الفنان في عصرنا مشكلات هـؤلاء الافراد العاديين الا اذا درس الاقتصاد والاجتماع

الا يدخل الاقتصاد بيت الزوجة الام ، عندما نشتري رغيف الخبز وطبق الفول في الصباح؟ الا يدخل الاجتمـاع بيت الزوجة ، الام ، عندما يرميها زوجها بالطلاق ؟

الا يدخل كلاهما السجن عندما يتعطلان عن العمل الكاسب ويسرقان ؟ الا يدخلان القبر عندما يجوعان هما وابناؤهمـا حتى الموت ؟

الاديب الواقعي هو الذي يدرس الاشتراكية أصلهـــا وفصلها واسلوبها وهدفها

والادب الاشتراكي هو لذلك الادب الواقعي في صميمه. لانه هو الادب الذي بسطت له الدراسات الاشتراكية احوال العيش واساليب الإرتزاق وما تحوي من خير وشر ومـن عظمة وسفالة .

✶

في ١٩٤٨ اظهر « البيان » الذي الّفه ماركس ووضـع به يد الرجل العادي على اصل المجتمع . وفي ١٨٥٩ الف داروين كتاب « اصل الانواع » ووضع به يد الرجل علـى اصل الانسان

. وعرفنا من كلا الكتابين اننا تطورنا في الغابة . وما زلنا نتطور في المجتمع . وكانت كلمة « التطور » مفتاحــا سحريا جديدا نعالج به مشكلاتنا ونبنى به آمالنا . وحطمنا بهذه الكلمة خرافات العقائد وتعلمنا كيف نكافح كي ننير الادمغة المظلمة ونخرج منها الاساطير وننفذ الى خلاياها النور.

النظرة الواقعية للكون والطبيعة والانسان هي نظرة التطور

فان هنريك ابسن ينظر الى العائلة خيال السعادة الذي نتفق عليه ونعمم الوهم به زاعمين ان الزواج كله سعادة وان مكان المرأة الحقيقي في وجودنا هو البيت حيث تجد الراحة والرفاهية . وننسى ان الزوجة تمسح الكنيف وتمضي الساعات في تنظيف المطبخ والطفل ، وتقضي نهارها في الطبخ والكنس . وهي ، في كل هذه الاعمال التكرارية ، لا تربى نفسها ولا تبنى شخصيتها بل لا تجد حتى الاعتراف بفضلها من زوجها او من المجتمع .

وهنريك ابسن ابو الواقعية العصرية ، يحثها لذلك على ان تخرج من البيت وتبني شخصيتها تتعلم وتتعرف الى الدنيا والمجتمع وتكسب وترتزق وتحيا حياتها ولا تحيا تلك الحياة التي يطلبها منها زوجها والمجتمع

أنا أعده اول الواقعيين في عصرنا او آخطرهم قبل مائة سنة

ولكن عصرنا يحوي ادباء واقعيين اعمق منه

وانما صاروا اعمق منه لان الاشتراكية فتحت الابواب السرية للمجتمع ووقفتنا على ما فيه من خبث ولؤم ، وأوهام وخرافات ، وفقر وجهل ، وعذاب وهوان ، وقفتنا ايضا على احلام جديدة نحلمها ، أكاد اقول انها رومانسية جديدة ، هي هذا المستقبل الزاهي الذي ينتظر الشعوب بتحقيق النظم الاشتراكية .

ان الوعي الاشتراكي قد اوجد وعيا للفقر والظلم وبعث دراسات انسانية جديدة تهدف الى البر والخير للانسان وتحضه على الكفاح من اجل مجتمع جديد يطمح الى تحقيقه ، كما ان هذه الدراسات قد جعلتنا نفهم الاسس الاقتصادية للحرب والاستعمار بل التعصب الديني والتعصب اللوني .

ونحن ، كما قلت ، حين نفكر في المستقبل الاشتراكي للانسان ونحاول أن نضع لبنة فوق لبنة في بنائه ، انما نعالج رومانسية جديدة تهدف الى المستقبل وتخالف الرومانسيات القديمة التي كانت تجد السعادة في الماضي بل أحيانا في إنسان الغابة .

الرومانسية الجديدة هي رومانسية برنارد شو مثلا حين يرسم لنا خيالا عن « السبرمان » اي الانسان الاعلى الذي يكون منا كما نحن من القردة العليا . او حين يهدف الى مطامع انسانية جليلة كأن نعيش نحو الف سنة فنجد المجال والفرصة للتربية الشخصية . ولو انه عاش الى زماننا لالف درامة ، عقب القمرين السوفيتيين ، عن السفر الى المريخ .

ان العام قد علمنا ولا يزال يعلمنا رومانسية جديدة . ولكن هذه الرومانسية لن تنسينا واقعنا المظلم الذي يحفل بالقبح والفقر والمرض والجهل فموضوعنا الان يجب ان يكون هذه الواقعية .

القاهرة **سلامه موسى**

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

✶

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

✶

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان او ٥ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما حوالة مصرفية او بريدية

✶

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

✶

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣

على هامش العروبة والمذاهب المعاصرة

مرض السيادة القومية

بقلم علي بدور

يهمني باديء ذي بدء ، ان احدد مضمون الحديث عن مرض السيادة القومية – وهو الاستعمار – من زاوية واحدة هي زاوية : « ١ » المؤثرات المختلفة التي انطبعت بها العروبة – كشعب وقضية – من جراء تسلط الاستعمار عليها . « ٢ » والعناصر الاخرى التي تحول دون نهضة العروبة من القيود التي قيدها الاستعمار بها. « ٣ » وكذلك النتائج التي تمخضت عن هذا القيد الاستعماري حتى اضحت جزء من وجوده البغيض بالذات. « ٤ » بالاضافة الى مظاهر هذا الاستعمار الذي يخل بسيادتنا القومية . « ٥ » والطرق العملية الكفيلة بالتخلص منه للحاق بركب البشرية المتطورة نحو عالم افضل .

لا احسب قصة الاستعمار قصة جديدة جاءت بفصولها ومآسيها مع مطلع الحضارة الحديثة يوم تم اكتشاف امريكا .. وفتح الهند ، والسيطرة على البحار باكتشاف رأس الرجاء الصالح . بل هي قصة قديمة .. قدم الحياة نفسها ، وهي تحدثنا بان الاستعمار – من الناحية النظرية –يكمن في هذه الفتوحات التي عملت لها الامم قديما وحديثا .. وفي التسلط والقهر وحب الفتوح ، الذي اورث البشرية منذ بداية تاريخها ولا يزال ، صنوفا من الارهاق والظلم ، تكبدهما الانسان بروح سامية وعزيمة ومراس ، ولا يزال يتكبدهما حتى الان في اكثر بقاع المعمور . ولا اكون مغاليا اذا قلت ان العروبة – كشعب وقضية – قد ذاقت من صنوف الاستعمار ، خلال الالف السنة الماضية، ما لم تذقه قومية اخرى في التاريخ . فالتتر والمغول الذين جاءوا من الشرق ، والاتراك من الشمال ، والصليبيون من الغرب ، ولا يزالون ، انما اورثوا الشعب العربي عقدة العقد تلك التي سببت له الضعف وهزال الروح ، وانسحاق القيم ، مما ليس له نظير في الحياة قاطبة .

ان هولاكو عندما احرق بغداد .. والصليبيين عندما احتلوا بيت المقدس .. والعثمانيين عندما شملوا بفتوحاتهم الوطن العربي كله .. والحرب العالمية الاولى التي خلعت عن العروبة ، غل الاتراك ، والبستهم اغلال السادة الحلفاء ، هذه التطورات كلها ، والحوادث كلها ، تحكي قصة الاهوال التي عانتها العروبة ، ولا تزال في ذاكرتها ، صورة بغداد المحترقة، وخزائن الكتب تلقى في دجلة ، والوف السفن تملأ الشواطيء العربية ، والجحافل التركية التي كانت تطرق بعنف وقسوة ، ابواب القرى والمدن في الشرق العربي ، من بغداد الى دمشق .. الى القاهرة .. وحتى المغرب ، والجزيرة العربية ، واشتراك العرب في الحرب الاولى ، كثائرين، ومجازاتهم جزاء سنمار بعد الحرب .. ومآسي القضية العربية منذ الحرب الاولى وحتى الان ، هذه الصور الرهيبة من التطور المريروالحياةالقاسية، هي الملاحم النضالية .. البطولية حتى حد الاسطورة ، تلك الاسطورة المتفاعلة حوادثها بالحياة حتى الاعماق ، الثابتة رغم الخطوب ، المتفائلة رغم حريق بغداد ، والوف السفن الصليبية ، وجحافل الغزو التركية وضيافة الحلفاء (!) وبقاء تسلط الدول المستعمرة كالعلق على الجرح النازف .

يكاد الاستعمار في حقيقته الماثلة اليوم لا يعبر الا عن صورة من صور اختناق الحضارة الفرنسية . هذه الحضارة التي انبعثت ، منذ عصر النهضة ولا تزال حتى الان تتطور ، وتتطور معها شتى فعالياتها الخيرة وفعالياتها الشريرة . فهي ان استطاعت ان تصنع الانسان السوبرمان ،في العاطفة والشعور والفكر ، الا انها جعلت من مجموع البشر ، عصابات ، همها ، التعدي وخرق القانون وسلب الامنين اموالهم وارزاقهم . واذا كان لنا الان ان نستعرض المؤثرات المختلفة التي انطبعت بها العروبة –كشعب وقضية – من جراء تسلط الاستعمار عليها ، فاننا نود ان نحدد ما نقصد بالمؤثرات المختلفة اولا .

ليس ممكنا ان تعيش الشعوب في عزلة . هكذا شأنها قديما ، وحديثا، وفي المستقبل . بل هي تعمد الى الاستفادة دائما ، من جهود بعضها بعضا . فهذا العامل الياباني الذي يعمل في اعداد الصحون ، والاخر الهولندي الذي يصنع لنا مصابيح فيليبس ، والعربي الكادح في ابار النفط ، انهم جميعا نماذج بسيطة لها طابع التعميم الذي يتخذ صفة الشمول الدائم ، عن التعاون بين الشعوب ، وتطور هذا التعاون على مدى الايام . اما النتاج الفكري ، فانه قوة دافعة نحو التطور وذخيرة من ذخائر البعث الحي ، ذلك الذي يبعث دفء الحياة في اوصال الحضارات فلا تتجمد او تتحجر . وخير الحضارات ما ماشت فروع الانتاج – الصناعية والزراعية والتجارية – جنبا الى جنب مع نتاج الفكر . عندئذ تجد الحضارات ما يبرر وجودها – لعطائها التطوري ونزوعها الانساني السليم – فتتأصل جذورها في حياة المجتمع والناس، ويكون لها الغلبة السلمية في مضمار المباراة القائمة على الاخذ بالاجود واجتناب الرديء .

ضمن هذا الاطار الخلاب لرقي الحضارات يصح القول بان هذه حضارة انسان مثالي ، وحضارة مجموع متحضر ، ابتداء من انسان الغابة وحتى انسان العصر الحديث . ولكن اكثر الحضارات لم يكن شأنها وهي تتطور، شأن هذه الحضارات التي يزدهر فيها الفكر الى جانب العمل ، وحيث يزدهر الفرد ، خلقا وخلقا ، الى جانب ازدهار المجموع خلقا وخلقا ايضا . اذ ان هذه الحضارات – والحضارة الغربية بوجه خاص – كانت على الرغم من ازهار الحياة العامة ، فانها كانت اشبه ببناء شامخ يقام على دعامات من ازدهار الحياة العامة ، فانها كانت اشبه ببناء شامخ يقام على دعامات رخوة ، سرعان ما ينهار على رؤوس مشيديه . وهي ان استطاعت الانعتاق من اغلال العصور الوسطى ، ودك قصور الاقطاع ، واطلاق الالسنة بالتعبير عن الحرية والعدالة والمساواة وفتح الاشرعة لارتياد مجاهيل البحار والقارات في العلماء والخبراء والمبشرين والجيوش ، وصقلها الانسان

الاوروبي ــ وليد هذه الحضارة الجبارة ــ وجعله اقرب ما يكون بآلهة اليونان الاولين ، شبيها في فكره وعاطفته وطموحه وخياله ونضارة حسه، الا انها وقد ايقظت فيه غريزة الصراع ، جعلت منه ذرة في صحراء المجموع ، تلك التي يقتلها الظمأ الى العدل والى الحق والىالخير والى الجمال . وباتت هذه الحضارة ، والفرد في كنفها ملاك ، انما الملائكة في حال اجتماعهم ، يؤلفون عصابة من الشياطين، قد استيقظوا على صياح الديكة ، فاستأنفوا مسيرهم في مختلف الاتجاهات ، من ثغور ايطاليا وانكلترا وفرنسا ، وهولندا ، متجهين نحو الشرق قريبه وبعيده عند مطلع الشمس ، معتقدين ان هذه البحار كلها والاراضي كلها وما عليها من شعوب وما فيها من خيرات وارزاق ، انما هي مسخرة لخدمتها وطاعتها واضحت اوروبة بفضل حضارتها اشبه بالاله الاسطوري الباحث عن رعية تعبده ، وتؤمن به .. وتسبح بحمده بكرة وعشيا .

يقف عامل تقدير الانسان لاخيه الانسان على قدميه ، اذا انهارت كل العوامل الحضارية الاخرى . فالحضارة خلق وابداع وصقل لغريزةالانسان الاولى وتهذيبه ، والسمو بمداركه وحسه الى سوية البشر السوي . وقد تقف العلوم والفنون والاختراعات ومواكب المعرفة ، وعظمة الفتوحفي مضمار الكشف العلمي كأدلة بارزة على النهضة الراسخة ، ولكن هذهالمقومات الحضارية اللماعة ، يجب ان تهدف الى ارشاد الانسان وتزويده بالروح التي لا تجعل منه تجاه اخيه الانسان ــ سواء اكان من بني قومه او من الابعدين ــ مجردقطعة تتحرك ، يحترق في جوفها الغذاء ، وتنتشر في الشرايين والاوردة ، دماء حارة فتية ، فتنطلق الحواس الخمس من عقالها ولا شيء بعد هذا كله . ذلك ان الحضارة جناحا طائر ، احدهما مفتوح على العش الذي يأوي اليه ــ صغر ام كبر ــ والاخر ، انما هو مفتوح على العالم اجمع . ولا قوام لحياة نبيلة بدون هذين الاتجاهين . وكما ينظر المواطن الى زميله المواطن فيساعده ويحترمه ويشاركه افراحه وهمومه ، كذلك تفعل الامم الاغنى نحو الافقر منها ، والاكثر علما نحو الاقل علما منها .. والمتحضرة مع المتأخرة في سلم الرقي او المدنية ، مدفوعة باهداف سامية . لان الانسان كفرد يجب ان يكون هو الانسان كمجموع : في نظرته الى الحضارة والى استخدامه هذه الحضارة لبناء مضمون حي لحياة انسانية فاضلة .

فماذا فعلت اوروبا .. بالعرب كشعب .. وبالعروبة كقضية .. بعد هذا كله ؟!!

انها فعلت الكثير . حاولت حضارتها ان تجعل من الانسان العربي شبه اله ، بتثقيفه ، والرقي بعواطفه وحسه الى مرتبة القديسين . ولكنها عزلته عن مجموع شعبه الذي نبت منه . وما هذه العزلة الفكرية التي يحياها الجمهور المثقف من شعبنا العربي ، سوى رجع الصدى لتلك الاساليب الحضارية التي تؤمن بامكان عزل الانسان عن واقعه وبيئته وقضايا شعبه ، بالمزيد من العلم والمزيد من التحضر ، والمزيد من الابتسام في حفلات الكوكتيل . واماتت في هذا الانسان المثقف روح الجماعة ، وبعثت فيه غريزة البقاء المفردة . وعاد تفكير المثقفين ومنحى الثقافة بعامة ، تعزيزا لكرامة الفرد ، مع قهر لكرامة الامة التي ينتمي اليها ، وبعثا لصفحات السمو الانساني مع تسجيل وقح لاعدام البشر غير المتحضرين بوسائل ليست مشروعة . واذا كان قرن ونصف قد مضيا على هدير مدافع نابليون حول الاهرام او سبعة قرون ونيف ، على الحملة الصليبية على بيت المقدس ، فان مدافع نابليون لا تزال تهدر .. والسفن لا تزال تحمل السموم من جديد لتدمير قوميتنا الناشئة وعرقلة تطورنا نحو حياة افضل ، وعزة مرهوبة الكيان . ولعل العروبة كقضية لم يضعفها شيء قدر ما اضعفها الحرب والغزو... وعشرات الاعلام الاجنبية تخفق في سمائها الزرقاء الصافية من المحيط الى الخليج .

ومع توالي الغزو ، واعادة المذابح ، بين الان والاخر ، تولدت في الذات العربية ، عقدة الخوف من الغد ، وعقدة الركون الى جانب القوي للحماية، والايمان المريض بان ركب العروبة قد فات ، وما حيلتنا وعدتنا مع معركة البعث معروفة ، الى جانب قنابل الذرة والهيدروجين والصواريخ عابرة القارات ، والاقمار الاصطناعية .. وهذه المعاهدات التي تعقد مع الدول الكبرى هي خير دلالة على عقدة الخوف من الغد والركون الى جانب الدول القوية للشعور بفضيلة الحماية من اخطار موهومة اولها الغزو الشيوعي.. واخرها الغزو الشيوعي . ولم تقتصر العقد على عقدة الخوف ، وعقدة فقدان الثقة بالنفس ، بل اضيفت الى القائمة الحقيرة ، اسماء اخرى ، بعضها التآمر على الشعب وعلى حقوقه الاساسية في الحرية والسيادة والتعبير عن الرأي . ونشأ بين ظهرانينا حبل طويل شد به مئات العبيد الذين تربعوا على كراسي الحكم .. وكانوا عونا للاجنبي على بنيوطنهم.. بالرصاص تارة ، والسجون تارة .. والنفي والابعاد اذا نفد الرصاص ، واكتظت السجون بالاحرار !!

وكان ان انتهى العرب بعد قرن ونصف منذ هدرت مدافع نابليون حول الاهرام ، الى ان تخوض العروبة كقضية، ثورة الجزائر العارمة ، فضلا عن عدة ثورات تحريرية تخوضها العروبة في عمان والمحميات ، واكثر الاقطار العربية الاخرى ، حيث الحرب سجال بين الاستعمار ــ وقد وقف في صفه العبيد والخونة ــ وبين الشعب العربي الذي يهدف من حربه الصريحة هذه الى طرد الاستعمار .. وفي اثره طغمة العبيد ، اولئك الذين يريدون ان يقدموا الوطن العربي والشعب العربي ، هدية لسادتهم ، جزاء حماية هؤلاء السادة اياهم وتمكينهم من الحكم بشتى الاساليب والمغريات .

حيال ذلك الالحاح في الضعف .. والالحاح في بث بذور الثقافة الحديثة ، مجردة من حياة الامة وواقعها ، وتصوير هذا الواقع ، تصويرا صادقا ، لدراسة علله وامراضه ، ووصف الدواء الناجع لهذه الامراض والعلل ، حتى انجبت هذه الثقافة الحديثة ، جمهرة من المثقفين ، يقودون خلفهم بعض السذج البسطاء ، والذين لا حول لهم ولا طول ، في اتجاهات مختلفة : بعضهم يؤمن ان العروبة يجب ان تنحو نحو الغرب واقامة مجتمع عربي على النمط الغربي ، ديمقراطية .. واحزاب .. وشركات.. وصحافة حرة .. وتكافؤ الفرص بين المواطنين . وفئة اخرى تدعو العروبة لان تتجه نحو الشرق ، للايمان بالشيوعية كمنقذ ، وبالاتحاد السوفياتي كنصير، مدعين لذلك بان العالم يتطور ككل ... والحضارة تتطور ككل .. ولا معدى للعروبة عن اللحاق بركب التطور ، وهناك اليوم عالم قديم ينهار هو عالم الرأسمالية ، وعالم جديد يشرق فجره ، هو عالم الاشتراكية . وهناك فئة ثالثة ، انشأ روادها احزابا تدعو الى العروبة بمعزل عن الشرق والغرب ، ولكن هذه الاحزاب التي تدعو الى العروبة الصرفة ، لا تستطيع في الواقع ان تكتسح اولئك الذين يدعون الى ربط العروبة بالغرب .. او اولئك الذين يدعون الى ربطها بالشرق .. وكذلك لا تستطيع ان تقدم للشعب العربي ، مادة حية للنضال ضد هذين الاتجاهين المتطرفين بالذات .

تجاه مثل هذه الفوضى القيادية ، كان الحلفاء ييسرون لانفسهم انصارا من العرب في حربين عالميتين وان كان من المشكوك فيه ان يتيسر لهم في اية حرب مقبلة ، مثل ما يتيسر لهم منذ مطلع هذا القرن .. وحتى نهاية

الحرب العالمية الثانية ، وان كنا لا نستطيع ان نجزم ، ما دمنا نرى حولنا على الارض العربية ، قواعد تشاد .. ومطارات تمهد .. وجيوشا اجنبية تعسكر وتنتظر .. وحكومات رجعية تصلي للاستعمار كل يوم خمس مرات .. وتكفر بنعمة امتها وقوميتها ، ارضاء لشيطان المال والجاه ، ما امرها الاستعمار بالكفر .. واوصاها بالالحاد !!

٢

التطور في حياة الامم ، اشبه بالملح الذي لا بد منه لكل طعام . وامة لا تتطور ، امة تموت لا محالة . والتطور قد يأخذ منازع مختلفة . ذلك ان المشارب التي يستقي منها الشعب العربي مادة تطوره ، انما هي ذات صلة بالكيفية التي يوفر بها الشعب وسائل معيشته اليومية ونمط النظام الذي ييسر له هذا الهواء الجديد الذي يهب وسط زحام التيارات في حياة اضحى كل ما فيها نذيرا بغبار جديد من تيارات التطور . ذلك ان التطور في الاساس متصل بالملاحظة اذا خلت ذاكرة الشعب من صور العلم المقروءة . وقد تقترن الملاحظة بالاكتساب المباشر اذا كانت الملاحظة تستطيع ان تتوزع بين حاضر ماثل ، ومستقبل مشرق منير . وتطورالشعب العربي ـ بغض النظر عن عوامل التجزئة وتفاوت التطور من قطر الى اخر ـ انما يتم بصورة عفوية ، واحيانا ما يتم بصورة معكوسة يقصد منها خدمة مصالح استعمارية . فلا يتطلع هذا الشعب الراغب في التطور الا على قشور الحضارة الغربية او على سمومها بوجه خاص . هب ان شابا يدعي الاطلاع على الحضارة الغربية ـ كما ادخل في روعه ـ لانه زار اوروبا ، وامضى اكثر ايامه ولياليه ، في مونمارتر بباريس ، او ساحة البيكادللي في لندن وما تزخر به منعطفاتها ، حتى اذا زار نيويورك استقر في الشارع الخامس!! ولكن ان نرى هؤلاء الاقوياءكيف يعيشون في بلادهم.. كيف يحيا العامل ما هي حقوقه وما هي واجباته . كيف ينظم الشعب شؤونه ويصر على المطالبة بحقوقه .. وما هي المسؤوليات التي يتحملها رجال المال والاعمال تجاه الامتيازات الممنوحة لهم .. حتى اذا انعكست كل هذه الصور في خيال انسان يريد التطور بحق .. وجد نفسه سوقا رغما عنه للانخراط في جمعية منعزلة عن واقع الحياة وواقع المجتمع بسبب ثقافتها المنعزلة عن الحياة والمجتمع ، دون ان يقسر نفسه كشاب مثقف ، كانسان ، لان يغادر مدينته ذات يوم ، الى الريف المحيط بمدينته ، يرى محراث حمورابي دون ان يرى تشريعه !! والحضارة الغربية ـ بغض النظر عما فيها من اشياء مفيدة شرط تجريدها من جنسية مصدرها ـ تعتبر اجوبة استعمارية ربطت خيوط الدمى التي تتحرك في الشرق العربي بمراكزها الاصيلة في لندن وباريس ونيويورك وغيرها من العواصم الكبيرة ـ واضحى المواطن العربي اذا حلم بحياة رافهة ، تمنى لو عاش في باريس او لندن او نيويورك او غيرها من العواصم الكبيرة .. واذا عز عليه اتيان المثال الطيب عن قوم شرفاء صادقين وعن شعب مرفه ، قوي ، ذكر الانجليز او الالمان او الروس او الاميركان . اما وطنه ، اما شعبه، اما تاريخه،اما واجبه حيالهذه الحياة التي يحياها هو معبني قومه اذ تشده اليهم مئات الاواصر ، فهذه وجائب لا يتطلبها الا كل مخبول او طامح في خيال ما دام يعتقد اننا ضعفاء لان غيرنا قوي . واننا فقراء لانهم اغنياء . واننا جهلة لانهم متعلمون . وانهم يحيون ويواصلون الحياة ، ونحن نموت ثم نعيد الموت من جديد . وان هذه الحياة الدنيا لهم .. ولكن الحياة الثانية مضمونة لنا وحدنا !!

على ان الفوضى لم تقف عند هذا الحد : حد الاكتساب الحضاري الحر .. وحد وضع الامثولة في نفوسنا لعالم سعيد قوي لا يمكن ان يتراجع قط ، يعيش في اوروبا .. في الوقت الذي تكاد حياتنا لا تساوي فيه شيئا .. بل اننا انسقنا في هذا الخضم من جديد وبحماسة، اذ بعد ان كنا ننساق فرادى في هذه الطريق المميتة ، وكان الاكتساب المباشر فرديا ايضا ، اضحينا اليوم نعيش وسط محاولات ناجحة الى حد ما ، تبذل لادخال جزء كبير من العالم العربي في نطاق الاستعمار الغربي ، باسم وحدة المصير وواجب الدفاع عن الحضارة ، وقد القى على عاتق الاحرار في العالم اجمع(!!) . يجري ذلك كله والفرد العربي لا يزال يعاني مركب النقص تجاه الفرد الاوروبي ، وكذلك يتعرض للاحتقار الضمني منه في بعض الاحيان . ولا ادري اي مصير ينتظر العروبة كقضية والعرب كشعب اذا حاولوا ان يرفعوا مع العالم الغربي ـ والحضارة الغربية بالذات ـ راية الصمود حتى النهاية ، تجاه ريح التطور والمزاحمة التي تهب عليها من المعسكر الشرقي ، دون ان يشعر العربي في اعماقه انه حر .. وكامل الحرية . فهو مستعبد في الداخل ، اقتصاديا وفكريا . وفي الخارج مستبعد سياسيا في الوقت الذي يعطي فيه بندقية مع ذخيرتها ليقتل بها في بعض الاحيان بني قومه ان تظاهروا مطالبين بمزيد من التطور ، وبمزيد من الصدق العروبي فيه . وقد يحمل الفرد العربي هذه البندقية ذات يوم ، ضد اعداء مستعمريه اولئك الذين يسخرونه لخدمة اغراضهم في الدفاع عن الحضارة ، تلك التي لم يعرف منها سوى وجهها الكالح في وطنه ، وسمومها القاتلة التي يتعاطاها ابناء شعبه في غفلة حينا ، وفي يقظة من امرهم حينا اخر ، بالاضافة الى تحكم الاقلية العددية في الاكثرية ، والثروة في جمهرة الفقراء ، وزمرة من العبيد ، في ملايين الاحرار . هؤلاء العبيد بالذات ـ وهم سادة احيانا وحكام مبجلون احيانا اخرى ـ لم يعرفوا من الحضارة الغربية سوى التنعم بمباهج الحياة داخل بيوتهم : براد وغسالة ومراوح كهربائية وراديو وتلفون واقداحشفافة تزيد مفعول الويسكي في القلوب والارواح .. دون ان نقطع اذا كانوا لم ينعموا بمباهج الحضارة في مقاهي مونمارتر ، ومنعطفات ساحة البيكادللي، وفضيلة الزحام الحر في الشارع الخامس !!

٣

شملت الحضارة الغربية التي انتقلت الى العالم العربي ، فيما شملت، الطريقة التي يحياها الغرب في بلاده . هذا الشكل الذي نتخذه في القمة ، اساسا للحكم لدينا ، يخلو من عنصر الافادة ما دام يفتقر مضمونه. اذ تربط هذه الحضارة جوهر الشخصية العربية بمؤثرات ومنبهات لا تمت الى واقع العروبة كقضية ، او العرب كشعب ، مدفوعة ، بعوامل عديدة ، منها ادامة اشكالها ومضامينها الهادفة الى الاستمرارفي الرفاه.. والسيطرة .. على حساب قضايانا العربية ، ومقومات شخصيتنا العربية الاصيلة البناءة .

واليوم ، نحصد ، انقلابا في المفاهيم ، وما تولده هذه المفاهيم المقلوبة من مثبطات لروحية الاجيال العربية الصاعدة . فقد صرفتنا الحضارة عن جوهر الحياة ـ وهو الانسان ـ ومعدن فضائله وسمت خلقه الاصيل وتصرفه الحر ، الى العناية بالمظاهر والقشور . فخالد بن الوليد البطل ليس شيئا ما دام يحارب على ظهر الحصان ويقاتل بالسيف . وطارق ابن زياد ليس شيئا ما دام اسطوله قد خلا من السفن المسيرة بالذرة والصواريخ عابرة القارات . والسمر العربي ليس شيئا تجاه حفلات الروك اند رول الصاخبة . حتى اولئك الذين لا يزالون بالزي الشعبي ما برحوا يلاحقونبالاحتقار من بعض من دخلوا البنطال في هذه الايام . وباتت الحضارة : بنايات ضخمة وسيارات فخمة ، ولكنة تدور في اللسان

مع اللبان ، ومعدة يجب أن تملأ ثروة ، وجاها ، ودسائس القصور ، ضد القصور ، ولا شيء بعد ذلك . اما ان تكون لنا وسيلتنا الخاصة في فهم الحياة مجردة من هدير المحركات وازيز الرصاص وعويل عربات المترو ، اما ان يكون لنا نظرة تجاه الانسان الذي يحيا هذه الحياة مناضلا ذائدا عن وجوده ، مبرهنا عن جدارته بهذه الحياة ، وبالصدارة فيها ، اما ان يكون لنا في ماضينا نبراس خالد نعتز به ، فنذكر خالد بن الوليد لا نابليون ، والغزالي لا كانت ، والمعري ، لا شكسبير ، وصلاح الدين لا فريدريك ... فهذا من الخيال الذي نحلم به ونعيد ، دون ان نحصل على مزيد .

اننا لسنا ضد الثقافة ولا ضد الاكتساب ولا ضد فتح النوافذ العريضة لتدخل الحضارات مجردة من ثيابها ... لاننا نؤمن بالحقيقة المجردة ، ونحترمها ، وندافع عن وجودها ، بوجودنا كله ، ونؤمن بطلب العلم للعلم. اما ان يكون الامر ان الحضارات تدخل بثيابها فحسب ، ان يكون التعصب ـ والعلم والمعرفة لا تعرفان التعصب ـ لانسان بعينه مجردا ، من خاصية هذا التعصب ، لابناء هذه الحضارة او تلك ، وان يكون الوقوف على فضائل هذا العبقري ، والتعصب لها ، هو الغاية من الثقافة وهو المبرر الوحيد لنهل مواردها ، فهذا ما نحاربه ، وما لا نقبل به ، لاننا نؤمن اننا شعب له تاريخه وحاضره ، وله مستقبله على هدى هذا الحاضر وذاك الماضي . دون ان نقف عن الاكتساب من الحضارات كلها .. والثقافات كلها ، فلا نفقد بذلك ، جوهر شخصيتنا ، فنفقد مبررات وجودنا .

ولقد تعرض العرب فيما تعرضوا له ، منذ مطلع هذا القرن ، وبعد الحرب العامة الاولى بخاصة ، لبعث حضارات من قبورها ، نتيجة لحمى البحث عن حضارات الانسان التاريخ في هذه البقعة من العالم . فاذا مصر فرعونية . ولبنان فينيقي والعراق آشوري . واذا المغرب العربي كله ، فرنسي بعضه ـ كما يدعي اليوم بفرنسة الجزائر ـ وبربري بعضه وما تبقى فاسلام ينطقون العربية دون ان يكتبوا بها . وتأصلت هذه الخطوط التي اسميت حدودا ، كما تتأصل السلسلة اذا قيدت بها الاقدام ، مما اقام في داخلها دولا وحكومات .. واقام خارجها ، نظرات الطمع والاستيلاء يؤججها الاستعمار ضد هذه الاقطار العربية وفيما بين بعضها بعضا.واذا الدول الاستعمارية التيتوزعت العالم العربي فيما بينها، ممثلة في الجيوش والشركات ، تسعى جاهدة لتؤصل هذه الحدود ، فلا تنهار ، وتقيم تلك الحضارات المحنطة ، فاذا هي تسعى ، واذا بها تلقى منها التشجيع والمدد ، سرا وعلانية ، حتى اذا اتت الحرب العالمية الثانية وخرج العالم منها منتصرا على الشر ، تبين العالم العربيانه مسوق الى حتفه ان لم ينزع هذه القيود ، فسيكون النير جزءا من الرقبة،والقيد جزءا من الاقدام . فحاول ان يقر هذه الحضارات التي تشبه تماثيل الشموع الخالية من الروح .. وباتت العروبة بين نارين : نار الاستعمار وزبانيته .. ونار الذين آمنوا بالحضارة الغربية ـ والاستعمار عصارتها الحتمية ـ وقيمها ، وانكروا كل صلة لهم بشعبهم وبتاريخ هذا الشعب ، فانهزموا من ساحة المعركة النضالية التي يتاجج اليوم نارها، متطلبة منا جميعا ، كل عون مادي او أدبي .

والاستعمار لا يأتي من الخارج فحسب . بل انه ينبع من الداخل ايضا. لاننا لا نستطيع ان نقنع بتحرر وسيادة اي قطر عربي ، اذا لم تتفتح حياة الشعب فيه على اوسع نطاق ، ولم يوجه شعبه للاكتساب بالمزيد من اسباب التطور التي تهب ريحها من اربعة اطراف المعمور . وعندما تقتصر وسائط المواصلات على الحمير والبغال والجمال ، وتقتصر الثقافة على قراءة بعض الكتب الدينية ، وتقتصر التجارة والصناعة والزراعة على وسائل قديمة ، بل لعلها نماذج اولى لنشوء الحضارة البدائية .. وعندما يقتصر سلاح الشعب على سيوف من خشب ، تقوده وتوجهه وتحكمه ، وعندما يخلو البلد كله من مدرسة .. ومن مستشفى.، وتحول المدارس التي كانت فيه الى قصور ، والمستشفيات الى سجون ، فاننا نقف ـ بسبب ذلك كله ـ حيال اعلى انواع الاستعمار : استعمار يغل العقول والافكار والنفوس ، فلا تنطلق لتؤدي واجبها حيال العروبة في هذا الجزء المعزول عن العالم كافة . ذلك ان التفريط في الخوف من الاستعمار يؤدي الى استعمار مماثل. والا اتكون الحياة هكذا ، بحيث تعاش بلا هواء جديد ، وبلا تجربة جديدة ، لتصاب الشعوب بالعقم الذي لا تبرأ منه الا بمرور عدة اجيال تكون هي الضحية الصامتة .

والعروبة ، وقد اصيبت من الاستعمار الغازي ، بالكثير ، قد اصيبت ايضا من الاستعمار المنبعث من داخلها من فوضىالقيادات وفوضىالسلطان وتآزرهذهالقيادات فيما بينها فلا تنهارالقصورالمشيدة علىالرمال.لتنهارمعها الرؤوس الفارغة التي تحكم الملايين ، بالادعية والتعاويذ ، غير مصغية الى نصيحة او مشورة ، جاعلة من النفوس النبيلة والجباه السمراء ، محطا لاقسى انواع العذاب والتشريد والنفي والابعاد عن الاوطان .

على ان المنطق السليم ، لا يلهينا دائما عن الشذوذ الذي تحفل به القاعدة . فكما ان الاستعمار الخارجي ، عدو للقومية العربية ، للشعب العربي ، فكذلك الاستعمار الداخلي ينبغي اعتباره كالاستعمار الخارجي سواء بسواء . بل ان الجريمة تغدو اكثر خطرا ، تجاه تعطيل الملايين من ابناء الشعب العربي ، فلا تكون ملاذا ونصيرا لمن ابتلوا بالاستعمار الحقيقي في فلسطين والجزائر وعمان ، وكل ارض عربية لا تزال تشكو من رجس الغاصبين.

٤

ان الاستعمار في العالم العربي يتجلى في مظهرين : الاول ، اسرائيل. والثاني ، الاحلاف التي تفرضها الدول الاستعمارية على العالم العربي ، والرجعية التي تقبل هذه الاحلاف آملة ان تزيد من أمد بقائها في الحكم.. وابقاء الرجعية في كل شيء كمظهر للاستعمار الداخلي .

فاسرائيل تمثل في الحقيقة كل الاخطار التي يمكن ان يتصورها المرء عندما يريد ان يدقق في هذا الكيان الذي خلقه الاستعمار وسط عالمنا العربي . ان اسرائيل ليست نزعة دينية بقدر ما هي فكرة اقتصادية . وليست اداة للعدوان بقدر ما هي خطر محدق بكافة دول المنطقة في كل آن . وهي اداة طيعة في يد جماعة الاحلاف يؤدبون بها من لم يتأدب بعد ، ويشهرونها سيفا مجردا من قرابه في معركة تطويع الشعب العربي لخدمة الحضارة المنهارة ، والدول التي لا تزال تحلم ببعث امبراطوريات القرون الوسطى ، وتوطيد الامبراطورية الاقتصادية الاولى ، في القرن العشرين : امبراطورية المال واسهم الشركات ومناجم الذهب والفضة وابار البترول ، وتسخر ملايين العبيد في برامجها الهادفة الى الاستيلاء على العالم اجمع ، وباسرائيل ممثلة هذه الامبراطورية في الشرق العربي .

واذا كانت ضحايا اقامة اسرائيل حتى الان لا تتعدى مليون لاجيء مشرد ، عدا الوف الملايين من الليرات ، قيمة املاكهم وارزاقهم وما ترصده الدول العربية على التسلح احتسابا لعدوان اسرائيل عليها ، فان الخطر لا يزال في بدايته ، واذا لم تسد هذه الثغرة فان ثغرات اخرى سوف تفتح ، ولا يسد هذه الثغرة شيء مثل الاصلاح في الداخل مع التسلح والاستعداد للحرب في الخارج . وها هو الاستعمار اليوم ـ وقد هالته الانتفاضة بعد النكبة ـ يسعى جاهدا لكبح جماح هذه الانتفاضة ، وكذلك

لادخال اكبر عدد من الدول العربية في احلافه بحجة الخطر الشيوعي ، في الوقت الذي لا يزال يحاربنا فيه ، في عمان وفي المحميات ، وفي فلسطين وفي الجزائر ، فكيف ستغدو حالنا اذا انخرطنا جميعا في احلافه ... وتسلم زمام امرنا ، نفر من عبيده الاذلين ؟ ايبقى امل في انتصار ثورة الجزائر وفي عودة اللاجئين الى ديارهم بعد طرد العصابات منها وتحرر العرب من ربقة النير الثقيل ، وتخلص العروبة من تيارات المذاهب المتجلية اليوم ؟ ام اننا سنغدو اشلاء ، قد نسلم على ما تحتنا من ارض وما فوقنا من سماء وقد لا نسلم ؟

والمعركة مع الاستعمار تبدو مزدوجة . وهي في الحقيقة كذلك . ذلك ان وجهها الاول عربي بحت، يتجلى في بعث القوى الدفينة وتنظيمها واطلاقها من جديد للوقوف في وجه اسرائيل كخطر مباشر . والوجه الثاني وجه الاستعمار البغيض الذي تضافرت جهوده مع جهود اذنابه في الداخل، لتشتيت هذه الجهود وبعثرتها والحيلولة دونها ودون اتيانها بأي بادرة تدل على سير في الطريق المستقيمة المؤدية الى تجاوب فيما بين العناصر المشتركة في عملية الخلق الجديد التي تمر بهاالعروبة للقضاء على اسرائيل وسد الثغرة التي ان بقيت هكذا ، مفتوحة كما هي اليوم ، فان الخرق سوف يتسع ، وسوف تفغر سياسة الاحلاف ، هذا العالم العربي كله ، ما دام عدوان اسرائيل على كل دولة عربية متحررة من ابسط الامور ، وما عدوان اسرائيل على سوريا ، لاكثر من مرة ، وكذلك عدوانها لاكثر من مرة ، على مصر ، عن الاذهان ببعيد .

وقصة اسرائيل ، ليست القصة الوحيدة التي يكتبها الاستعمار على صفحة ارضنا الطيبة . ذلك انه في داخله ، يكتب القصص المفزعة



الاخرى . حتى انه انساق وراء احلامه في الفتح والغلبة ابان الحرب الاولى ، فحارب المانيا – وهي ايضا دولة استعمارية – وحليفتها في المشرق، وهي ايضا استعمارية لانها تقوم على العنصرية ، وتشجيع الاستعمار الداخلي المثل في احياء الرجعية ومدها بالقوة لتبقى على نفوذها وهيكل بقائها المتداعي . فالحرب الاولى – وكان من اسبابها ولادة اسرائيل – بوحي وعد بلفور – انما كانت مظهرا من مظاهر تخبط الحضارة الغربية التي تختنق اليوم بأوسع معاني الاختناق ، اكان اقتصاديا او روحيا ، او فكريا. ذلك ان حضارة تعتبر الحرب وسيلة من وسائل بقائها ، كالحرب الداخلية – بين ممثلي هذه الحضارة – والحرب الخارجية ضد بقية العالم ، لهي حضارة سوف تنهار من داخلها بحروبها الداخلية ، او من خارجها بانتفاضة الشعوب المغلوبة على امرها ، عليها ، وهذا ما نشهده الان ، حيث نرى انتفاضات الشعوب في قارتي اسيا وافريقيا ، وفي امريكا الجنوبية ، على هذه الحضارة الغربية ، من حيث تنظيمها للعلاقات بين الافراد ، والشعوب ، وهي كلما تحاربت فيما بينها ، استطاعت بعض الشعوب ان تتخلص من القبضة الاستعمارية . ولعل الشعوب التي لم تتحرر بعد ، برغم مضي حربين عالميتين ، فان الامل جد قوى ، بانتصار هذه الشعوب المغلوبة على امرها ، والشعب العربي في طليعتها – دون حرب ثالثة ، نظرا لتساند قوى السلم في العالم اجمع مع الشعوب الراغبة في الحرية والاستقلال .

فالحرب والفتح ، عنصر ملازم لبقاء هذه الحضارة . هذه الحضارة التي لا تجد حرجا في افناء الهنود الحمر بامريكا ، والقبائل الاسترالية ، والشعب العربي في الجزائر ، وفي اكثر البقاع التي وطئتها قدم الانسان الابيض في آسيا وافريقيا ، طاردة منها سكانها الاصليين الى داخل الغابات تفترس الوحوش مرة ، وتفترسها الوحوش مرة ، فتنقرض هي والوحوش معا ، ذات يوم .

هذه هي قوام النظرة الى الاخرين ، والغرباء منهم بصورة خاصة،التي تدعو اليها الحضارة الغربية لتبرر بقاءها مدفوعة بعوامل استعمارية بحتة. هذا ما جعل مأساة مليون لاجيء عربي ، مأساة مفتعلة في نظر الرأي العام الاوروبي ، فهضمها ضميره اللا اخلاقي ، ولم تهزه حتى اعماقه ، لينتصر للمشردين العرب ، وكذلك لم تهزه حرب السويس البشعة ، وكانت قد الهبته مبادرة روسيا لاخماد ثورة المجر ، جاعلا من اولئك شهداء .. ومن ملايين العرب الثائرين ضد الظلم والاستعمار الاوروبي ، جماعة من العصاة الثائرين على الحضارة التي رفعتهم الى مصاف البشر السوي !!

اما الاحلاف ومن يساندها في العالم العربي ، فهي المظهر الثاني من المظاهر المخلة بسيادتنا القومية بالذات . ذلك ان الاحلاف والذين يدعون اليها ، هي جزء من كل ، شامل متكامل ، لخطة رهيبة من خطط الاستعمار الجهنمية . ولا ادري اذا كان من حسن حظ العرب كشعب ، والعروبة كقضية ، ان تنتصر الثورة الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧ ام انه من سوء حظهما على التحقيق ؟ ويبدو حسن الحظ في ان العرب اليوم يستفيدون من التوازن القائم بين المعسكرين فيتأرجحون على حبل الاستعمار ما وسعهم التأرجح ، الى ان يقطعوه . لا ليصبحوا غربيين من جديد ، او شرقيين ففي ذلك هلاكهم المحقق . ولكن ليبرزوا من خلال الانقاض والملايين المشردة ، وقسوة المظالم ، شعبا طموحا ، وقضية عادلة نبيلة المقاصد ، سامية الاهداف . ويبدو سوء حظ العروبة ، ان الغرب وجد في الشيوعية مادة دسمة للدعاية ضدها وسط الامم الراغبة في الحياد ، وامتنا العربية من بينها – وهذا من شأن الاستعمار وحده –

ولكن الخطر كل الخطر ان يقع بعض بسطاء الحكام فريسة سهلة لهذه الدعاية وان ينقادوا بشعوبهم الى صف الاستعمار، فهذا الذي لنا به الشأن .. بل كل الشأن . لان الامر قد تعدى حده المألوف ، وبدأت العروبة تتهم بالشيوعية — وهي من الشيوعية براء — ولا ادري ماذا يكون موقف الاستعمار اليوم لو لم تكن الشيوعية ولو لم يكن ماركس على الاطلاق ؟ اتراها تعدم ضجة اخرى — ادهى من التهمة بالشيوعية وامر — لالصاقها بكل عربي حر ، يريد لوطنه ان يتحرر من الاستعمار ، ولبلده ان يخلو من العبيد المرتزقة ، ولمواطنيه المزيد من الحرية والكرامة وراحة الضمير .

على ان الامر في الواقع ، ليس تخمينا . فالتطور لا بد منه ، والبشرية سائرة الى الامام ، وليس من عقبة تستطيع ان توقف سيرها الملح . وكل ما هنالك ان الشعوب تريد ان تتحرر ... وتريد ان تتطور ، والاستعمار وقد هيأ اسرائيل خارج حدود الدول العربية ، قد هيأ ايضا احلافه المنظورة وغير المنظورة ، فاشعل النار داخل العالم العربي ، وسلط العربي على العربي ، سلط الحاكم على المحكوم ، وسلط السادة العبيد على الاحرار المستعبدين . وجلس يرقب نتيجة المعركة التي يخوضها الشعب العربي من المحيط الى الخليج ضد الاستعمار ... ضد اسرائيل كدولة قائمة في قلب العالم العربي .. وضد ما يمكن ان تستطيعه اسرائيل في المستقبل .. وضد الاحلاف الرامية الى السيطرة على منبع القوة والصفاء والخلق القويم في الشخصية العربية ليحول دونها ودون ما يمكن ان تعده ضد اسرائيل كمظهر من مظاهر الاستعمار الخارجي الجاثم على صدر العالم العربي.. وضد ما تعده هذه الاحلاف الاستعمارية بحجة محاربة الشيوعية في داخل العالم العربي .. وفي خارجه لمحاربة الاتحاد السوفياتي ، بوقيد من العالم العربي ، مستعينة باستجابة بعض المغرمين بالحكم ..واعداء التطور .. وحماية الرجعية وتزويدها بأكثر عناصر البقاء.

والشعب العربي اذا كان يقاوم اليوم الاستعمار بمظاهره المتعددة الخارجية والداخلية منها ، فانه مدعو لاثبات وجوده الحي في معركة البعث الخالدة التي يخوضها ضد كافة ما تركه الاستعمار على ارضنا الطيبة من عقد النقص والخوف من الغد ، كأمة وكحضارة .. وكاتجاه حضاري، وسط هذا الصخب الذي يعلو ولا يزال.. وضد العناية بقشور الحضارات وترك لبابها .. وضد اذابتنا في بوتقة الامبراطورية الاقتصادية الجديدة ، كخدم وعبيد .. وضد حرب الابادة التي نتعرض لها في فلسطين ، والجزائر وعمان ، وعلى كل ارض عربية .. ضد الامتيازات التي سرقها الاستعمار في غفلة عن عين الشعب التي استيقظت اليوم ولن تنام ابدا .. وضد كل المعاهدات التي توطد للاستعمار قدما ، وللخونة قدما ، وضد كل ما تعده طبقة العبيد والرجعية لايقاف عجلة التطور عن السير مهما اعترضتنا من صعاب .

تقف العروبة اليوم على قدميها : ثورة في الجزائر . ثورة في عمان . ارهاص بالثورة في كل ارض عربية يقيدها الاستعمار بغل وضع مفتاحه في ايدي حفنة من عبيده وخدمه الاذلين. وتبدو معركة الشعب العربي معركة مستمرة لا نهاية لها بالنصر المؤزر الذي يضع حدا لعبث الاستعمار بسيادته القومية ، وعزته الوطنية ، وامجاد تاريخه النبيل .

ولعل البارز في معركة العروبة مع الاستعمار انها معركة واضحة . فالمحاربون في صف العروبة معروفون ، حيث الشعب العربي من المحيط الى الخليج وقيادة عربية تحررية تؤمن بالحياد بين المعسكرين ، وتسعى للسلام في العالم اجمع . والمحاربون ضد العروبة معروفون ايضا ، حيث الاستعمار كفكرة استغلال واستعباد ، واسرائيل كسيف مسلط على الرؤوس ، وطبقة رجعية من الخونة والاذناب وتجار السياسة وبعض اصنام الحكم . وتبدو وسيلة الحرب بارزة صورة ومضمونا . اما الصورة فتتجلى في هذه الاساليب من الديمقراطية الكاذبة التي تمرس بها كثير من الخونة والاذناب ولصوص الحكم ، ومن خلفهم الاستعمار . اما المضمون، فوجود هذه الطبقة بالذات من الخونة التي ربطت مصلحتها بمصلحة الاستعمار ، ضد الشيوعية — والعروبة ، كقضية ، من الشيوعية براء ، لان طريق تحرر العروبة الى الان لم يصطدم لا بالشيوعية ولا بالاتحاد السوفياتي . وكذلك وجود هذا الاستعمار المتمثل في شركاته النهمة النهابة ، وجيوشه المعسكرة على الارض العربية ، والمعاهدات التي يحترمها جانب واحد ، وكل الحلقات الاستعمارية المسماة احلافا تبغي الحفاظ على الحضارة والعالم الحر واسرائيل !! وايضا ، وجود اسرائيل كفكرة عملية من جانب الاستعمار ، تجسدت في شعب طريد ، وجرح لا يزال ينزف حتى الان وعلق لا يزال يرتوي من هذا الجرح النازف . وايضا ثم ايضا ، وجود كل من يدعو الى محاربة الاستعمار بمزيد من الديمقراطية علاوة على مظاهر الديمقراطية المريضة التي يتخبط الشعب العربي من جرائها في البؤس والاستغلال حتى الان ولا يزال .

اما وقد وضح المعسكران : معسكر العروبة ، ومعسكر الاستعمار ، فان طريق الخلاص اضحت هي ايضا معروفة وليس لنا الان الا ان نسردها ببساطة وهدوء.

قامت في مصر عام ١٩٥٢ ثورة . ونحن اليوم في عام ١٩٥٨ . وفي هذه السنوات القليلة استطاعت الثورة ان تحرر مصر داخليا من الرجعية

ومن اذناب وعملاء الاستعمار ، واستطاعت الانتصار على الاستعمار وعلى احلاف الاستعمار ، واستطاعت ان تخوض معركة التحرر والوحدة بعزم وحزم لا سبيل الى وصفهما . وحطمت على جدار بور سعيد الفولاذي اعتى عدوان تعرض له شعب حر في التاريخ . فمن أين جاءت الثورة بكل هذه الفضائل ؟ وللاجابة على هذا السؤال لا بد لنا من سرد الحكاية من اولها .

قامت في مصر عام ١٩٥٢ ثورة . نحن اليوم في عام ١٩٥٨ . ولعل الصدق لم يتجل كما هو في تاريخ هذه الثورة منها في تاريخ اية ثورة مماثلة . كانت ثورة مصر تؤمن بالواقع كما هو ايمانا مجردا من العاطفة. وتؤمن بالفكرة التي تحملها لاصلاح هذا الواقع ايمانا مجردا من العاطفة ايضا . وتؤمن بوسيلتها التي انتهجتها في تطبيق هذا الاصلاح تطبيقا مجردا من العاطفة ايضا ، وايضا .

وجدت الثورة ان مصر تزخر بالاحزاب ــ واكثر الاحزاب ظاهرة مرضية في المجتمع العربي ــ . هذه الاحزاب لا تمثل اتجاهات جذرية ولا تعبر عن محتويات اجتماعية لجمهور الشعب العربي في مصر . بل هي تتكون من طينة واحدة ، طينة الطبقة التي تمتلك الارض وتمتلك الصناعة وتحتكر التجارة ، وتمتلك الشركات والمشاريع ومن يحف بها من عبيد وخدم . هذه الطبقة قد تملك كل الثروة في مصر .. ولكنها من حيث العدد لا تمثل خمسة في المئة من مجموع الشعب العربي في مصر . طبقة ليس لها من رصيد شعبي سوى رصيدها في بنك مصر .. وبنوك العالم الحر قاطبة !!

هذه الاحزاب ــ كما وجدتها الثورة ــ اشبه بشركات تصنع الغزل في معاملها العديدة . من مصلحة كبار المساهمين ، ان يتزاحموا على السوق ــ الحكم ــ وان يغروا بالمستهلك ــ المواطن ــ فاذا كونوا فيما بينهم كارتل او تروست ــ ائتلاف قومي او دمج حزبي ــ فمعنى ذلك ان كبار المساهمين زعماء الاحزاب ــ قد اتحدوا ضد صغار المساهمين ــ جمهور الاحزاب ــ وضد المستهلكين ــ الشعب بأسره ــ . وان شركة ــ حزبا ــ او شركات ــ احزابا ــ هذا شانها لجديرة بان تحل كما فعلت الثورة في مصر .. لاعادة تركيب العناصر الايجابية والقيادية للمجتمع من جديد .

في مثل هذا الجو الفاسد ، الطافح بالخيانة والرشوة ، وشراء الضمائر ، والتزلف لذوي السلطان ، كانت القضية المصرية ــ كجزء من القضية العربية مع الاستعمار ــ تخسر الشوط في كل مرة كان الرأي العام العربي يصفق لها ايذانا بفوزها .. وكان الخسران بسبب بسيط هو ان الوكيل كان يتفق مع الخصم ضد الموكل ، فلما اغلقت الثورة الباب الى الابد على هذه الاحزاب ، او تلك الشركات ان اردنا الدقة في التعبير، تحرر المستهلك ، ونشط المساهم الصغير ، وحفظت الثورة ، الثروة القومية فلا تطير في مضاربات البورصة او مضاربات الحكم .

ولقد فقد الاستعمار بحل الاحزاب في مصر معينا نشيطا ، وهذا ما سيفقده في كل قطر عربي اخر ــ كفى المستعمر مؤونة الكشف عن وجهه طيلة امد الاحتلال ــ الا في ثورة ١٩١٩ يوم خرج قياد الثورة من يد القادة الى يد الشعب ــ ووقفت مصر حكومة وشعبا يدا واحدة ضد المستعمر.. ضد جنود الاحتلال في القناة .. فاضطر اخيرا ، كما قال الرئيس جمال عبد الناصر ــ ان يحمل عصاه ويرحل .. لانه ليس من مصلحة له عاجلة او اجلة في مصر ولا في العالم العربي كافة في ان يشهر سلاحه ويحارب دفاعا عن بقائه . انه ذكي نوعا ما ، لقد خسر معركة ، فلينسحب اذن.. وليعاود الهجوم مرة ثانية على مصر .. بواسطة عملائه المنبثين في اكثر الاحزاب القائمة في العالم العربي .. وبواسطة نفوذه وسلاحه واسرائيل اذا لزم الامر .. فلما نفدت ذخيرته من الدس والاستغلال ، وفقد امله في اعوانه داخل مصر وخارجها ، جرب الحرب الصريحة .. فكان امرها ان زوى بطلها في جامايكا .. واضحى عبد الناصر زعيم العرب كشعب .. واضحت فلسفة الثورة ــ كطريقة في الاصلاح والحكم ــ فلسفة العروبة كقضية .

ونظرة فاحصة نلقيها على اكثر البلاد العربية .. لندرس احزابها واوضاعها الاجتماعية والاقتصادية ، نخرج بها بنتائج واضحة ، تؤكد ان وضع مصر مشابه للاوضاع في اكثر البلاد العربية ، واحزاب مصر كأحزاب اكثر البلاد العربية .. والشركات التي كانت قائمة في مصر ، هي ذات الشركات القائمة اليوم في اكثر البلاد العربية.. لها نفس الاهداف والمطامع في السيطرة على السوق واستعباد المستهلك !!

ان مصر الثورة قد ضربت المثل الصالح ــ والمثل الصالح قدوة ــ في تحرير نفسها من ربقة هذه الشركات ــ الاحزاب ــ وتخليص الوطن من انصار الاستعمار المنبثين في مجالس ادارتها ، وطردت الاستعمار الى غير رجعة ، وهي تخوض اليوم ، معركة التحرير الكبرى على اوسع جبهة ضد الاستعمار عرفها تاريخه ، لتعيد الثقة الى نفوس المواطنين من ابناء الشعب العربي ، بقضية وطنهم العربي الكبير ، وحقه في السيادة الكاملة والحرية الصحيحة ، بعيدا عن تيارات المذاهب المختلفة ، وعن اساليب هذه المذاهب في السياسة والحكم ، لاقامة كيان عربي اصيل ، في ظل راية القومية العربية ، كنزوع انساني ، نحو عالم فاضل ، حر ، سعيد .

علي بدور

حلب

من الاصدقاء

بحار الضياء

*

يا صفاء السماء يا ضحوة الشمس ويا بهجة الربيع الجديدِ
ضوِّئي ضوئي بقلبي انـي ظامىء ظامىء لنور جـديدِ
ضوِّئي ضوئي بقلبي وهـزي مزهـر الشـعر وارجفي نغماتي
ضوئي ضوئـي وصبي اغـانيك بروحي وزلـزلي اغنياتي.
ضوئي ضوئي فاني اهوى نشـوة الحس واندفـاق الشعورِ
ضوئي ضوئي فاني نشـوى ، أعشق النور وانعتاق الضميرِ
أعشق النور والحياة وابغي لو عصرت الحيـاة كأسا مروِّقْ
وترشفته عـلى شفتي الظمأى وشعشعته رحيقـا تـدفـق
ضوئي ضوئي فاني مشـوق لعنـاق الحيـاة للاشـواقِ
ضوئي ضوئي وشقـي سـتـار الليـل وادعي الغافين للانطلاق

***

ضوئي ضوئي فقد غرق الليل خلف أستـار غابة مهجـوره
في القرار السحيق من هوة العدم الضائع القت على الغريق ستوره
يا بحار الضياء ... هاتي اواذيك حرى عنيفـة الانـواءِ
واغمريني واغرقيني فاني جد ملهوفة لحضـن الضيـاء
الغريق الغريـق فـي حضنـك مبعوث وخـالد الايـراق
تورق الصحوة الفتية في عودة الغافي نبـاضـة الاعراق.

***

يا بحار الضياء .. قد غرق الليـل فهيا نعب ذوبـك عبـا
شعشعته الشمس الدفوقة بالدفء فحق لسـحره ان يلبَّـى
نشرب الصبح والاصيـل ونروى ظمأ في الفـؤاد ليس يروَّى
نشرب الالـق الفـوار والصحـو وروحا من الربيـع المصفَّى

***

يا بحار الضياء يا الق النور ويا شـعلة الفـؤاد البـرود
جلجلى جلجلى بروحي ودوِّى بفؤادي وزغردي بالنشيد :
يا صفاء السماء يا ضحوة الشـمس ويا بهجة الربيـع الوليد
ضوئي ضوئي بقلبي فاني ظامىء ظامىء لنـور جـديد .

القاهرة — **ملك عبد العزيز**

الغزل في الشعر الجزائري

بقلم ابو القاسم سعد الله

أشرت في بحثي السابق (*) عن الشعر الجزائري الى ان الشعراء لم يتناولوا الغزل فيما طرقوا من موضوعات ولم اشأ اذ ذاك ان اتحدث عن غرض معين في هذا الشعر لاني كنت اهدف الى التصميم فقط . وقد رأيت اليوم ان اوضح هذه الظاهرة محاولا تعليلها وتحديدها في ضوء العوامل المختلفة التي نشأت وتأثرت بها .

١ – وأول ما يلفت نظرنا هو العامل الاجتماعي ، وانا حين اتحدث عن هذا العامل لا يعنيني الحكم عليه بالرجعية او التقدم وانما الذي يعنيني هو تدخله في توجيه الشعر وتحكمه في ظروف الشعراء ، والمجتمع الجزائري مجتمع محافظ متدين عميق الايمان بمقدساته الى حد العنف والقسوة احيانا ويظهر هذا العنف وهذه القسوة في معاملته افراده سواء في علاقاتهم بأنفسهم او علاقاتهم بالاخرين وهو كذلك مرتبط الى تقاليده وعاداته ارتباطا عقائديا يكاد يكون اعمى ، ومن هنا كان من الصعب في هذا المجتمع اعتناق مبدأ جديد او فكرة زائرة . ولعل هذا يفسر لنا قلة الطائرات والشذوذ الفكري في الجزائر

وليس من شك في ان مجتمعا هذا طابعه وهذا سلطانه سوف يكيف نفوس افراده ويقيد حريتهم الى حد كبير ، وليس من شك في ان الشعراء اكثر هؤلاء الافراد احساسا بهذا الجو الحرج وتمثلا لمضمونه . فالنظر الى المرأة حرام او عيب والتحدث اليها او عنها عمل لا اخلاقي لا يعمد اليه الا السفلة والمنحطون . وحين تظهر الانوثة على الفتاة تصبح جزءاً من ابيها ثم زوجها وهي لا تتزوج في العشرين او الثامنة عشرة بل في الخامسة او السادسة عشرة والفتى لا يمر بمرحلة الكبت والشوق والحرمان ولا يعرف مناجاة ولا سهر الليالي لانه غالبا ما يتزوج وهو ما يزال مراهقا .

٢ – وحين نتحدث عن هذا المجتمع من حيث العادات والتقاليد نجد انفسنا مضطرين الى الحديث عن عناصره المكونه له من سياسة وثقافة ونفس .. والحق ان هذه العناصر كثيرة الفروع والزوايا وليس غرضنا تتبع ما فيها من ارقام ومنحنيات ولكن حسبنا ان نعرف ان التكوين السياسي في الجزائر يبرر هذا الاتجاه الاجتماعي الذي يكاد يكون رد فعل للتيار المضاد الذي تدفعه اليد الحاكمة ، فهي الى جانب محاولة القضاء على مقومات المجتمع من لغة ودين واخلاق وتراث تحاول اقامة حواجز في وجهه وتحويله الى وجهة عكسية . وهذا التصرف من اليد الحاكمة اثار حولها الشك والتمرد والنقد احيانا ووقف التيار الاجتماعي بحيث وجد العزاء في الاحتفاظ بما هو كائن ومؤرخ ولم يهتم بما سيكون مستقبلا . وهذه ناحية احب أن انبه اليها من يهمهم الحكم على هذا المجتمع بالتأخر والتطور ، وهي في نظري ظاهرة خطيرة يجب الحذر منها عند تناولها بالتاريخ . ولست ازعم هنا ان هذا الاتجاه العكسي يبرر الواقع في المجتمع الجزائري كما اني في الوقت نفسه لا استطيع ان انفيه . وقد يدفعنا هذا الى التساؤل عما اذا كانت هذه الظاهرة هي السبب الذي جعل العصر التركي في الجزائر ينتج شعرا غزليا بينما يعقم العهد الفرنسي او يكاد عن انجاب هذا اللون من الشعر .

٣ – والثقافة في المجتمع الجزائري ذات حظ عاثر ، وهي الى جانب ذلك تتخذ شكلا انفصاليا يكاد يكون خطرا على المجتمع نفسه اذ اننا نستطيع ان نقول ان هناك ثقافتين تناصب كل منهما العداء . ثقافة فرنسية محضة وهي عادة لا يظفر بها الا شباب المدن الكبيرة ومن يريدون ان يأكلوا الخبز الى جانب الفرنسيين . ومن سياسة الاستعمار في هذه البلاد وضع العراقيل المتنوعة في وجه هذا الشباب حتى لا يواصل دراسته الجامعية ويتصل بالثقافة في مجال اوسع . وبهذه الطريقة اصبحت ثقافة هذا الشباب مبتورة مشتتة ، والذين توصلوا الى متابعة دراستهم لا يخرجون عن حالتين ، اما انهم كانوا طموحين يتمتعون بشره فكري كبير ، واما كانوا من ابناء بعض الركائز التي يعتمد عليها الاستعمار في حكم الجزائر . وفي كلتا الحالتين نلاحظ ان نسبة هولاء قليلة جدا اذا وضعت بجانب الكثرة الاخرى التي تتعلم لتعيش لا لتتثقف .

اما النوع الثاني من الثقافة فهو الثقافة العربية المحضة وهي ايضا تتخذ طابعا متطرفا استطيع ان اقول عنه انه رد فعل للنوع الاول . والثقافة العربية في الجزائر يسودها الجمود ويسيرها التقليد وينتهي بها السير دائما الى منتصف الطريق اذ ان اهلها غالبا ما يقفون عند المرحلة الثانوية من تعليم لا يخرج عن المجال الديني واللغوي ويرتبط بهذين اشد الارتباط كالتاريخ الاسلامي وفروع اللغة العربية . والى جانب ذلك نلاحظ ان هؤلاء المثقفين او المتعلمين كثيرا ما يكونون قد تجاوزوا سن التعليم بمراحل عندما يذهبون للدراسة . واذا كان ابناء الثقافة الاولى يتعلمون في الجزائر ولا ينتقلون لاستكمال الدراسة الا الى فرنسا فان ابناء الثقافة الثانية يتلقون المبادىء الاولى في المكاتب القرآنية وبعض المساجد ثم يسافرون الى الزيتونة بتونس او القرويين بمراكش او يذهبون الى معهد ابن باديس الذي انشىء اخيرا في الجزائر (١٩٤٧)

ومن الممكن ان نجد صنفا اخر من المثقفين الجزائريين قد استطاع ان يجمع بين الثقافتين ، ولكن هذا الصنف قليل ، وهو بالتالي لم يفرض اتجاها ثقافيا وسطا على المجتمع . ونحن نلاحظ مطلقا ان الجزائر المستقلة سيكون اول ما تواجهه من مشاكل اجتماعية هو التباعد الثقافي الذي خلقته السياسة الاجنبية وساعدت عليه .

ونحسب ان هذا الجو الثقافي الجاف المتباعد لا يسمح ولا يمكن ان يسمح بالاشراق الذهني وانعاش العواطف التي تصقل اداة الشعر وتوجهها توجيها ناعما غزليا كما تفعل الثقافات الحديثة .

٤ – وليس الحديث عن النفس او الشخصية في الجزائر باقل اهمية في موضوعنا من الثقافة والسياسة . فالتركيب السيكولوجي للفرد الجزائري يختلف كثيرا عن غيره ، فهو الى جانب الكبت الذي يعانيه من جراء معاملة

(*) الآداب ، ديسمبر ١٩٥٧

الاسرة والمجتمع والسياسة يعاني ازمات اخرى نتيجة لقسوة الطبيعة من ناحية وقسوة الحياة من ناحية اخرى . ومن هنا كان الفرد الجزائري يعاني تمزقات وفراغات داخلية مخيفة اذ لم يجد الحرية في الاسرة المحافظة او السياسة الشاذة ، ولم يجد الرحمة في ثلوج الجبال او لفحات الصحاري كما انه لم يجد رحمة ولا حرية في حياة مفعمة بالمآسي والدموع نعاني من الفقر والجوع والمرض والالم .

ولست ارى قول الشاعر الجزائري (اللقاني) في الدفاع عن سلوكه والاعتذار عن الغزل :

الا فدع التغزل في غوان فتلك طريقة المستهترينا
فمن صوت البلاد لنا نداء يكاد المرء يسمعه انينا

لست ارى في البيت الاول منه سوى (تبرير) لجأ اليه الشاعر دون شعور ، والتبرير مرض سيكلوجي معروف . فالشاعر يرى ان الغزل خروج عن قيود المجتمع لا عن طبيعة الشعر ، ما دام المستهترون منبوذين في مجتمعه فيجب عليه وعلى زملائه كشعراء ان يبتعدوا عن الغزل لانه سيحيلهم في نظر المجتمع الى مستهترين . كما اني لست ارى في البيت الثاني سوى (هروب) الشاعر من ذاته .. هروبه من صرخاتها وشكوكها الى طرف اخر هو هنا الوطن او صوت البلاد كما عبر عنه ، والهروب شذوذ سيكلوجي ايضا . فالشاعر هنا قد هرب من نفسه الى المجتمع الذي يزعم انه اخذ عليه كل حياته بما فيه من آنات واحزان ونداءات .

واحب وانا اتحدث عن سيكلوجية الفرد الجزائري ان اشير الى ظاهرة اخرى وهي ما يسمى في علم النفس (بالتعويض) . ذلك ان الشعراء الجزائريين قد استعاضوا عن الغزل بالمرأة غزلا اخر ظنوه يحميهم من سلطة المجتمع وعبث السياسة . وهذا الاتجاه ظهر في انتاج بعض الشعراء الذين اتخذوا من حب الوطن او وصف الطبيعة او من حرج الموقف السياسي طريقا الى التنفيس عن ذاتهم وعما يهدها من الام .

وسأعرض هنا نموذجين لشاعرين يختلفان في الزمن اختلافا ظاهرا بالرغم من انهما متعاصران . يقول الشاعر مفدى زكريا (١٩٢٦) :

الحب ارقني والبعد اضناني والبين ضاعف الامي واشجاني

فماذا نلاحظ ؟... ان في البيت ارقا ويأسا والما واحزانا للفراق... وسنمر مقدمة القصيدة كلها على هذا النسق ؟ ونقطع نحن بأن هذا الشعر لا يخرج عن الغزل والتباريح ، ونستلذ الاوصاف البارعة والصور الجميلة ، ولكن الشاعر لا يلبث ان يصدم عواطفنا اذ يصل الى هدفه فيقول :

رفقا بلادي فانت الكون اجمعه لولاك كنت بلادي هالكا فاني

ومثل هذا يقال في قصيدة الشاعر احمد الباني - بلادي هواي - (١٩٥٢) التي يبدأها بهذا المطلع الولهان :

كيف اسلوك منية الوجدان او اجافيك والهوى بنهاني

ثم يقول في حرارة وشوق : -

كيف والحب في الفؤاد مكين انعداك نحو حب ثاني

ثم يكلم قلبه بهذا البيت العذرى : -

عش كما شئت يا فؤادي بحب قدسي مطهر روحاني

ونحن القراء نمضي في قراءة هذا الشعر فتطربنا الموسيقى وتنشينا العطور والاردان واللمسات ، وتلذنا هذه العذابات والتأوهات والتهالك امام الحب الجارف ، ولكن عواطفنا تفيق على الغرض الذي يهدف اليه الشاعر - وهو الحنين الى الوطن - وتتأمل عيوننا العنوان فندرك ان ذلك الحب وتلك الصبابة لم تكونا سوى تعويض عما فقده الشاعر او عما يحسه من قصور في الحب .

وقد يقال ان الشعراء هنا لم يزيدوا على ان مهدوا لغرضهم بالغزل كما يفعل الشعراء القدما وهذا صحيح الى حد كبير ولكني ارجح ان هذا التقليد لم يكن مقصودا لهم او على الاقل لا يتنافى مع طريقة التعويض لان الشعراء كانوا يعبرون عن لا شعورية طاغية ويؤيد هذا ما تعرضت اليه من وصف الحالة السياسية والاجتماعية والثقافية في بلادهم .

ويمكن ان يجد القارىء نماذج اخرى لهذا التعويض في (ليلى المطلقة) للحفناوي هالي و (يا هزاري) لمحمد العيد وفي كثير من شعر السائحي وبوشوشي وسحنون وغيرهم .

والشعراء كأفراد في ذلك المجتمع وجدوا انفسهم امام الامر الواقع فتزوجوا كما يتزوج الناس،وغضوا ابصارهم عن المرأة والحديث عنها كما يفعل بقية الناس واتبعوا تقاليده وعاداته - ظاهرا على الاقل - في كثير من الاحيان . ولم ينزع واحد منهم الى تحطيم عادة من العادات او الى تغيير مفهوم اجتماعي او اخلاقي كما فعل الشابي مثلا حين اكثر في شعره من الغزل الجسدي وغير الجسدي في مثل قوله :

كل شيء موقع فيك حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود

في وقت كان الذوق العربي في تونس لا يستسيغ هذه اللهجة .

واحسب ان هذا المنهج الوراثي في الشعر الجزائري يؤيد ما ذهبت اليه فيما كتبت عنه من انه كان صدى للحوادث ولم يكن صوتا حقيقيا ينبع من ذات الشاعر ، وان الشعراء كانوا ذيولا ولم يكونوا روادا يشقون الطريق امام اية مجموعة في الشعب .

وقد ذكرت هناك ان الشعراء او اكثرهم كانوا مصلحين . والاصلاح في الجزائر (سيما في فترة ٢٠ - ١٩٤٥) كان يعني في الفرد مخبرا ومظهرا . اما المخبر فهو سلوك هذا الفرد المصلح واحساسه بالورع وبرقابة الضمير وتمكنه من ثقافة دينية قرآنية بالدرجة الاولى وسلفية عتيقة في الوقت نفسه . اما المظهر فهو ان العامة لا تثق الا في الرجل المتعمم والمتجلبب الذي يرتاد المساجد ويبتعد عن الشبهات . فاذا اضفنا الى ذلك التدريس الذي لم يكن يعني تدريس الاقتصاد والرياضيات وما اليها وانما كان يعني اصول الدين وفروع اللغة العربية .. واذا اضفنا ايضا ان المدرس كان في نفس الوقت واعظا واماما وقاضيا وغير ذلك من الوظائف الدينية ... اذا اضفنا كل ذلك عرفنا لماذا اصبح الشعراء

دعاة اصلاح من ناحية ولماذا بعد شعرهم عن الفنون الشعرية التي ربما اصطدمت بالذوق العام كالغزل مثلا .. وكيف ننتظر من شاعر ذلك ظاهره وهذا باطنه ان يتماجن ويعبث ويتغزل في سعاد او نهاد ؟

٥ ـ على ان هناك سببا اخر ربما كان له نصيب كبير في فقدان الغزل او ضآلته في الشعر الجزائري ويعنى به الجفاف النفسي والاجتماعي الذي يسود الجزائر ، فالترف والمرح والفراغ وغيرها من الالفاظ الناعمة لا يعرفها الجزائريون ـ طبقة الشعراء ـ الافي الكتب او عن طريق السماع. وهي جميعا عناصر مكونة وباعثة على الغزل . صحيح ان لدى الجزائريين فراغا من جراء البطالة ولكن هذا الفراغ اشد على النفس من الاشغال الشاقة المؤبدة في سجن بربروس ... وصحيح انك تطالع احيانا ابتسامة على وجه الجزائري ولكنها في الحقيقة ابتسامة المرارة التي خلفتها السنون العابسة .. وصحيح ايضا انك تجد لدى الجزائريين بعض منتجات الحضارة الحديثة ويغريك هذا الاقتناء فتحكم على اصحابها بالترف ولكن هذا الترف الحضاري المقتنى يفقد لذته وانفعاله في احساس الجزايريين لانه ترف دخيل مفروض .. وقد لمست بنفسي هذا الاحساس في اكثر من اسرة فوجدتها جميعا نعبر عن خيبة التقليد اكثر مما نعبر عن نشوة الخلق .

٦ ـ ومن العناصر التي نساعد على الغزل روعة الطبيعة وجمال الوجود.. والحق ان الجزائر قد توفر لها الكثير من هذه الروعة وهذا الجمال في غاباتها وجبالها ، في سهولها ومنخفضاتها ، في وديانها وسواقيها في ثلوجها وهجيرها ، في صحاريها وشواطئها ... لقد توفر لها كل ذلك ولكن الذي فقدته الجزائر او فقده شعراؤها حتى الان هو (الاحساس) بعمق هذه الطبيعة وروعة هذا الفن .

وبديهي ان الشعراء قد ادخلوا الطبيعة في شعرهم كغرض من الاغراض ولكن بأية اداة وباي احساس ؟ انها اداة تقليدية عاجزة عن التعبير بالايحاء، واحساس منفعل تتكدس فيه الصنعة والنشازات .. ولست الان في حاجة الى الاستدلال على هذا الانجاه .

وقبل ان اختم هذه الكلمة احب ان اجيب على سوأل ربما خامر اذهان الكثير وهو ـ هل خلا الشعر الجزائري من الغزل ؟ والواقع انني بصدد الاجابة على هذا السوأل ساضطر الى الحديث عن الشعر بالفرنسية ايضا .. والذي ثبت لي بعد استقصاء هو ان الشعراء بالفرنسية كانوا اجرأ من اخوانهم ذوي اللسان العربي ، فقد حدثني الدكتور محمد يعلى ان له شعرا غزليا وانه قرأ لاخوانه شعرا من هذا النوع وهو وهم يكتبون بالفرنسية . ولعل هذا الفارق يفسر لنا ما ذكرناه من ان التدريس والاصلاح كانا حائلين دون انطلاق الشعراء في افاق الحياة الواسعة .

اما الشعر بالعربية فاكبر ظني ان اصحابه قد تناولوا فيه الغزل ايضا ولكن في حدود ضيقة وباحتشام كبير . ودون ان يجرؤوا على نشره في الصحف او اذاعته على الاسماع . وليس من شك عندي في ان بعض الشعراء ممن اشتهروا بتناول الطبيعة والسبحات الفكرية في شعرهم امثال السائحي وبوشوشى والباتني قد ـ تناولوا الغزل في حدود اوسع قليلا ولكن انتاجهم برغم ذلك ظل وراء الستار حيث حال دون ظهوره ظلام التقاليد (*)

أبو القاسم سعد الله

(*) ارجو ان يعرف القارىء ان ظروف الجزائر الراهنة لم تمكنى من أحكام نهائية فيما كتبت ، كذلك عليه ان يلاحظ ان ما قلته عن المجتمع والمرأة كان قبل الثورة .



قصة بقلم الكاتب الجزائري احمد عكاش
ترجمة حنفي بن عيسى

ليس للزنزانة التأديبية من نافذة ، بل لها ثقب صغير في حجم قطعة نقدية، مغطى من الخارج بصفيحة حديدية . لا استطيع ان ارى احدا من رفاقي المعتقلين ولكن استطيع ان اسمعهم . وشيئا فشيئا تعرفت عليهم من كثرة الاستماع الى اصواتهم ، انها اصوات خشنة رزينة ، صافية النبرة ، او عنيفة ، انها اصوات اولاد بلغوا النضج قبل الاوان في زقاق مدينة الجزائر التي مرت عليها قرون ، اصوات فيها محبة وسخرية وموسيقى منسجمة ترتفع فوق منحدرات الجنينة . (1)

انها اصوات فتية ، فاغلب هؤلاء المحكوم عليهم بالاعدام لا تزيد اعمارهم على العشرين او الثلاثين .

لقد تعودت ، كل مساء ، ان استمع بهذه الطريقة الى مرزق ، ومصطفى وعلاوة ، وحميد ، ومحمد ، وقاسم وجعفر وخاصة جعفر الذي تقع زنزانته تحت زنزانتي بالضبط، فقد كنت استطيع ان اتبادل معه بعض الكلمات عندما ينهض كل منا كل مساء ، الى النافذة التي ينفذ منها بصيص من نور النهار .

وجعفر ، وقاسم ، طفلان من نفس الحي الذي كنت اسكن فيه ، انهما في سن العشرين تقلبا في الشقاء ، وكبرا في البطالة ، وتربيا في العذاب كجميع اطفال العالم ، في بلد يتحكم فيه الاستعمار . وذات ليلة ، قتلا مدير الشرطة في الحي ، وحكم عليهما بالاعدام فالتقيا هنا في السجن .

وذات يوم ، استطعت اخيرا ان اخرج للقيام بجولة قصيرة ، فسمعت رجرجة السلاسل في الساحة الجانبية المخصصة للمحكوم عليهم بالاعدام . واطل علي وجه من فوق الجدار الفاصل بيننا . كان قاسم وجعفر يبتسمان وقد اتكآ على جدار المغسلة .

— كم انت ضعيف ! كيف الاحوال ؟

— جيدة ، جيدة جدا .

— والاخبار ؟

— انها طيبة . كن شجاعا .

واشرق وجه جعفر ، المستدير ، ولمعت عيناه الساخرتان . كان يعرف جيدا انه من المستحيل ان تصلني اخبار جديدة بعد ثمانية ايام من الاعتقال . ولكن لا باس من كل هذا ، لان الامل والتفاؤل هما القاعدة هنا.

وحينما يمل احدنا الاعتقال ويقتصر في جوابه على عبارة « الحالة مليحة » فـان المعتقلين يصيحون بحرارة .

— لا عليك . سننتصر

— ستحيا

— بسواعدنا ستحيا ، او سواعد غيرنا

وبطبيعة الحال ، الضمير في « تحيا » يشير الى الوطن . الجزائر . ثم اضاف بعد برهة قصيرة .

— الا تحتاج الى شيء ؟ هل عندك تبغ ؟

وفي الحين سقطت أمامي ، من فوق الجدار ، علبة زرقاء من السجائر التي توزع في السجون ، فالتقطتها ، واعدتها الى الجانب الثاني من الجدار .

— هل انتم مجانين ؟ لا احتاج شيئا .

واردت ان ابرهن لهما عن صحة ما اقول ، فرميت اليهما قطعة من الشوكولاته كان قد وضعها في جيبي بعض ممن عزلوا في الزنزانة ، عندما مررت ببطء امام نافذتهم . وسمع الحراس الضجيج فاسرعوا بالمجيء ، وكان علينا ان نفترق ولكن سنلتقي مرة ثانية، لان مناجاتنا اليومية ستحمل بعد التفقد ، رسالة الاخوة والامل الى كل زنزانة .

ومع ذلك ، فانا قلق في هذه الليلة بالذات فقد كنت منذ لحظات انادي ، بصوت خافت ، وانا متعلق بالنافذة .

— جعفر ! جعفر !

— أنا هنا

— كيف الحال ؟

— مليحة ، مليحة جدا . كن شجاعا

كان صوته واضحا صريحا ، كما عهدته دائما ، وسألني جعفر .

— هل عندك اخبار ؟

— كل شيء على ما يرام. كن شجاعا

لم ارد ان اقول له بانني عرفت في غرفة الزائرين ان المتطرفين يزداد نشاطهم عنفا في الجزائر ، حتى ان بعض المتظاهرين العنصريين جاءوا الى السجن ليطالبوا بمزيد من الدماء ، فاجيب طلبهم ، واعدم اربعة من المعتقلين صباح يوم امس ، قبل الفجر .

وعبر السجن كله عن غضبته ، فاضرب عن الاكل مدة ٢٤ ساعة جميع المعتقلين وعددهم يربو على الالفين، وآزرنا السجناء العاديون .

ومر على السجن يوم حداد مؤثر ، فخيم السكون على ارجائه . وفي هذه الليلة بالذات ، لا داعي لان افكر في هذه المخاوف السوداء، لانه ليس من المعقول ان « يقوموا » بنفس العمل في يومين متتاليين ، ولا شك ان المقصلة تتمتع باجازة في

من ظلام السجن ، بعث الكاتب الجزائري احمد عكاش هذه القصة التي نشرتها مجلة النقد الجديد الفرنسية . ونحن ننقل هذه القصة الى اللغة العربية ليطلع ابناء العروبة على لون جديد من الادب الثوري الذي يعبر عن كفاح الشعب الجزائري في سبيل استقلاله . انه ادب يفيض بالالم والحزن ، ولكن ما فيه من القوة والتحدي، يعبر عن كل ما في الثورة الجزائرية من عنف ، وشجاعة ، وانسانية

(1) — احد احياء عاصمة الجزائر .

مكانها المشؤوم ، او انها ذهبت لتؤدي وظيفتها الدموية في قسنطينة او وهران ، ولكن في هذه الليلة ، هذه الليلة بالذات لا استطيع ان انام .

منذ ساعتين او ثلاث ، انقطعت المناجاة اليومية بيننا ، وخيم السكون حتى صار بالامكان سماع التنفس الثقيل وسعال المساجين المتقطع . وكانت المصابيح الكهربائية ، في الممرات والصالات المشتركة ، تضيء في سكون وحزن ، ولا يكاد يسمع سوى خطوات الحراس الرقيبة .

وفي القسم السفلي على بعد بضعة امتار ، كان التسعة والخمسون ممن حكم عليهم بالاعدام ينامون ، وهم على أتم اليقين انهم قدموا حيـاتـهم ضحية . ولكن الم يتساءل كل واحد منهم عندما تراموا في المساء فوق فراش التبن : « في هذه الليلة يجيء دوري »؟

ونمت من غير ان اشعر . كان نوماً عميقا مقطعا بالاحلام . لا شك ان الساعة الآن هي الثانية بعد منتصف الليل . وخيل لي ، وانا بين الحلم واليقظة انني اسمع صرخة عالية :

ـ انهم راجعون ، يا اخواني ، انهم راجعون .

ووثبت فوق فراش التبن، كانت الانوار منطفئة ، وكان السجن غارقا في الظلمة ، وسمعت وراء بابي همسة : « الزنزانة رقم ٧ . الزنزانة رقم ٧ » وفي الطابق السفلي كنت اسمع وقع خطوات . وصرير مفاتيح في اقفال ثقيلة . وبلغني صوت مبحوح ، صوت رجل يساق بالرغم عنه .

ـ وداعا يا اخواني ، كونوا رجالا ، ستعيش الجزائر .

عند ذلك استيقظ السجن كله ، وعبر عن غضبته واله .

ـ مجرمون ، مجرمون .

وارتفعت الضجة قوية لا تقهر ، انها تدوي كانها عاصفة منتقمة ، تتردد في اللانهاية تحت قباب المباني الضخمة . وكان جميع المعتقلين، وقد تعلقوا بقضبان الغرف المشتركة ، بدأوا يصرخون خلال النوافذ ،ويضربون أبواب الزنزانات ، وكانوا يرافقون بهتافاتهم واغانيهـم ، خطوات اخـوانهم الاخيرة .

ورجع النور مؤذنا بهدوء جديد، وسرى بين المعتقلين خبر .

ـ لقد اخذوا خمسة ،بينهم مرزق ومحمد...

ولم يستطع احد ان يتبين خلال الظلام والضجيج من هم البقية . ولكن من المؤكد ان الخمسة موجودون الان في غرفة الموت ، يجابهون آخـر الاستعدادات .

وبلغنا صوت من بعيد ، من بعيد جدا ، من وراء الجدار المحيـط بالسجن ، صوت يصرخ بافتخار وتحد .

ـ تحيا الجزائر ، يحيا الاستقلال .

وصرخ احدهم قبل ان يموت « تسقط فرنسا . »

ولكن رفيقه في هدوء تام ، اوضح في الحين :

ـ يسقط الاستعمار الفرنسي . تحيا الجزائر .

انه نفس الهتاف الذي القاه ، ايفتون ، وفراج الـذي كنـا ندعـوه « مراكش الصغير » وجميع رفاقهما الذين نفذ فيهم حكم الاعدام .

ان ساطور المقصلة قد انزلق الان في رضاته الفولاذية ، بدون شك . ومن المؤكد ان رأسا في العشرين من العمر قد تدحرج الان فوق نشارة الخشب . ولكن مجموعة المعتقلين رددت صرخة النصر :

ـ تحيا الجزائر ، تحيا الجزائر .

وحطم التأثر احد الطلاب فحيا هذه التضحية بنغمة حزينة رددتها بعض الصالات :

ـ الله اكبر ، الله اكبر .

وبعد أن عاد السكون من جديد ، بلغتنا من جناح النساء اخر اصداء اخواتنا المعتقلات كانها صلاة متألمة بعيدة .

ـ تحيا الجزائر ، تحيا الجزائر .

واستمر الاحتجاج الجماعي ينقل هديره الفائر الى اقصى الزوايا ، تتخلله بعض فترات السكون وخيل الي ان مباني السجن القائمة صارت رئة صدر كبير تتوافق فيه ضربات القلوب .

اما الان ، فقد انتهى كل شيء فالخمسة الذين ذهبوا ،لن يعيشوا الا في ذكرى الشعب المتأججة . وترامى المعتقلون واحدا بعد الاخر فوق فراشهم، وارتفع صوت من جديد .

ـ سننتقم لكم ايها الاخوان.

ستنقص خمسة اصوات فتية ، واضحة النبرة ، من جوقة الزنزانـة الاخوية ، لن يعود هنـاك لا مرزق ، ولا محمد ، ولا .. انني افكـر في الاحرار الاخرين الذين تدحرجت رؤوسهم منذ حين فوق النشارة . افكر في هؤلاءالمقاومين الشباب الذين لم يتحلهم حتى شرف الموت امامكتيبة تنفيذ حكم الاعدام ، افكر في رسالة صاحب الزنزانة رقم ٧ الاخيرة . ما اعظم شجاعته ! ترى من هو ؟ لا شك ان جعفرا يعرف ، وتعلقت بالقضبان الحديدية بشدة :

ـ جعفر !

ولم اتلق اي جواب ، لا شك انه لم يسمعني .

ـ جعفر ، جعفر .

واستمر السكون . عند ذلك ارسلت نداء اخيرا بجميع قواي . وكلي امل في ان اسمع مرة ثانية صوت هذا الشاب الدافيء ، المتعطش للعمل والحياة ، والمجد . واحسست من حولي عشرات الاذان تترقب الجواب . ولكن لا شيء . انه هدوء الموت البارد . عند ذلك فهمت كل شيء .لن يجيب جعفر بعد اليوم ، مثل مرزق ومحمد ، لقد كانت الزنزانة رقم ٧ زنزانته .

وسقطت فوق فراشي ،وانا منهك ، وعيناي محدقتان بالظلام الشاحب. كانت زنزانة جعفر خالية . انه صديقي ورفيقي، واخي ، وحلمت انني ارى ابتسامة الطفولة فوق جدار المغسلة . لا ازال احلم . ورأيت الاشقاء الكبار ، ابناء اليونان، والصين ، رأيت الدم السخي الـذي يرافق الانسانية في سيرها . وفكرت في نفسي « ترى لو اقتضى الامر ان تقدم الضحايا من جديد ؟ » وارتفع النهار في خارج السجن .وزقزقت السناني في شيء من الوجل والاستغراب ، في الهدوء الشامل الـذي خيم بعد العاصفة . اما انا فلا ازال اشم رائحة لذيذة . انها رائحة الياسمين الذي سيزهر غدا فوق قبر الضحايا .

احمد عكاش



اذا كانت جذور الثورة الفرنسية موجودة فيكتابات « هوغو » و « روسو » و « ديدرو » فان « نظرية » الثورة العربية في الجزائر موجودة في كتابات الفيلسوف مالك بن نبي ، هذا المفكر الاديب الثوري العظيم الذي تلمس الثورة في كل كلمة من كلماته .

وأنا هنا اعرض شيئا من افكاره ملخصة عن كتابه « شروط النهضة ومشكلات الحضارة » مبتدئا من الثورة الجزائرية نفسها لصلتها الوثيقة بها (١) وسأعرض لهذه الآراء ولغيرها مما لم اتعرض له بالنقد والتحليل في مقال آخر » (٢) .

لقد دخلت الثورة العربية في الجزائر عامها الرابع ،وليس غريبا ان يكون كل يوم من ايامها ميلادا حضاريا عظيما ... وأن تكون كل ساعة من ساعاتها تفتحا انسانيا خلاقا ، فهي ثورية شعبية تعي حقيقة العمل النضالي ، وتؤمن بالانسان، انسان الرسالة .

وهي بذلك ليست رصاصا فقط ودما فقط وتمردا وتشردا فقط ، وهي ايضا ليست هجرانا لقرى ومنازل ومدن وتخلصا من علاقات وارتباطات فحسب لانها الرفض المطلق لعالم بأجمعه ، بكل تفاهته وخسته والخروج الى فضاء العمل الثوري .. الى حيث يصبح الانسان انسانا . وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها ان نعيش الرسالة وان نبدع الرسالة .

لقد بدات رسالة الاسلام بالهجرة ، وبدأت رسالة الصين « بالمسيرة الكبرى » وتبدأ رسالة الامة العربية من كهوف الجزائر والجبل الاخضر ومخيمات اللاجئين ،من الهجرة ... من الانتقال الذي لا بد منه والذي تتحقق به ممارستنا للثورة .

ليس شيئا ان تدك القنابل بيوتنا وان تحرق بساتيننا وأن تمزق نساءنا واطفالنا وآباءنا وامهاتنا ، ليس شيئا ان يبقى العلوج ارضنا قاعا صفصفا . فان فينا ، في عروقنا دفء عالم جديد يلوح لنا قرى ومدنا ومزارع واطفالا واخوة ونساء سعداء في ابتسامة كل شهيد . اننا نحن في هذه الكهوف .. في حياة التشرد هذه مادة السمو الجديد وعرق نزوعه الخلاق .

ولن نكون اكثر انسانية منا حين نعود الى انفسنا لنجعل منها غير ما كانت ولنرتفع بها من مستنقع تفاهة الحياة اليومية ، حياة الزيف والتمرغ والتسكع الى حياة الخلق والثورة .

هكذا ولدت ثورتنا العربية في الجزائر تصورا كاملا لحياة الرسالة

وخروجا كليا على حياة الزيف ، يرتبط بوعي ثوريلقيمة « الانسان والتراب والوقت » عناصر « الايدولوجيةالعربية الجديدة » .

وهكذا استطاعت ثورتنا العربية في الجزائر ان تكشف عن انسان الرسالة الجبار .

فمنطق الثورة العربية في الجزائر اذن هو الانقلاب الشامل الذي يعني ان استعداد الفرد نفسه للتغيز ، لان يعيش حياة التنظيم الحزبي في مرحلة الاعداد ثم لان يحمل السلاح ليبدأ معركته الكبرى .. معركة الانسان الجديد.

ولقد عاش شعبنا معارك السلاح ولكن على شكل بطولات اسطورية ابتدأت بالامير عبدالقادر وانتهت بالامير عبد الكريم الخطابي بطل الريف . ولكن هذه البطولات الناتجة عن النظام القبلي لم تكن كافية لتأهيل شعب ليؤدي رسالة تاريخية وان كانت أهلته للقيام برواية حماسية حسنة (١٩) لا يبحث فيها الفرد عن البقاء بل عن الخلود ، انها تهويمة البطولة التي تجعل الحياة مجرد رواية دينية حاسمة (تتمثل في جرأة فرد ، لا في ثورة شعب وفي قوة رجل لا في تكاتف مجتمع فلم تكن حوادثها تاريخا بل كانت قصصا ممتعة » (٢٢)

وقد ظل التاريخ مكانه فلم يسجل الا هذه البطولة ، الى سنة (١٩٢٢) قبل هزيمة ثورة عبدالكريم الخطابي لخمسة اعوام « ولقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس » فكانت تلك ساعة اليقظة وبدأ الشعب المخدر يتحرك ويا لها من يقظة جميلة مباركة ! يقظة شعب ما زالت مقلتاه مشحونتين بالنوم فتحولت المفاجأة الى خطب ومحادثات ومناقشات وجدل وهكذا استيقظ المعنى الجماعي وتحولت مناجاة الفرد الى حديث الشعب فتساءل الناس : كيف نمنا طويلا ؟ وهل استيقظنا حقا ؟ وماذا يجب ان نفعل الان » ؟ (٢٣)

ونتيجة لهذا الوعي فقد بدأت تتسرب الافكار والنظريات التي ما تلبث « ان تنفجر شأن فقاقيع الهواء على سطح (الغلاية) او ان تتحول مباشرة من حالة الجمود الى حالة التبخر والشيوع في صورة مدرسة او مسجد ،او مؤسسة اصلاحية » (٢٤) وكان من بين هذه العقائد ــ على الرغم من انها كلها كانت تعني محاولة الحركة والتجديد ــ حركة الاصلاح بقيادة ابن باديس زعيم العلماء الجزائريين والتي

تبنت منهجا قائما على اساس « ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » هذه الآية التي استمدت الحركة من روحها ثورية توحي بضرورة التغيير .

ولكن هذه البادرة الرائعة لم تستطع ان تستمر في مجلراتها لما تستلزمه نقطة انطلاقها فتحدد اهدافها وطرقها التي لا بد منها ليتجاوب معها الشعب التجاوب العميق وكان من نتيجة ذلك ان انزلقت الى مستنقع السياسة في سنة(١٩٣٦) فاشتركت مع الفئات الاخرى فيمفاوضات عادت بالقضية الى هذيان حاقة مفرغة .

لقد بدات حركة الاصلاح من الانسان ، من ضرورة انقلابه على نفسه ليستطيع ان يغير الواقع ولكنها اندفعت اخيرا بطيبة الى الهاوية ، هاوية الوثنية ، هاويةالجاهلية . الى حيث اصبحت السياسة وريثة « الدروشة »فاصبحت الحناجر تردد هذه الكلمات « اننا نريد حقوقنا ولو مع جهلنا وعرينا وسخنا » (٣٨) بعد ان كانت تردد قائلة : ان الله لن يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

والفرق ما بين القولين شاسع وواسع ، فالاول هتاف لاهث والثاني فلسفة ثورية .

«ان جوهر المسألة هو مشكلتنا العقلية ونحن لا زلنا نسير ورؤسنا في الارض وأرجلنا في الهواء وهذا القلب للاوضاع هو المظهر الجديد لمشكلة نهضتنا » (٣٩) .

وعلى هذا فالمشكلة لا يحلها الترقيع غير المنهجي ولا التكديس .. تكديس اشياء الحضارة الغربية في كل مكان من ارضنا ، انما بالدراسة الواعية والتنهيج العلمي الذي يكفل تكون المجتمع وتطوره ونموه . وهذا النمو يجب ان يكون قائما على اساس ان « الحضارة = انسان + تراب + وقت. انسان يفكر ويعمل مفجرا امكانياته فيما هو منتج وخلاق ، وتراب يولى العناية فتستغل كل ثرواته استغلالا يخدم تفجير هذه الامكانيات ، ووقت تعرف قيمته فتملأ كل لحظة من لحظاته بما هي جديرة به ، في حدود تخطيط اجتماعي كلي .

وبما ان الانسان بحاجة الى حالة خاصة وشروط خلقية وعقلية حتى يستطيع ان ينشىء ويبلغ حضارة فقد كان من الضروري معرفة خصوصية المشكلة بالنسبةلنا ومعرفة الحقيقة القائلة بأن الانقلاب يبدأ من الانقلاب على النفس .

ومادة هذا الانقلاب هو رجل الفطرة« الذي عندما يتحرك ويأخذ طريقه لكي يصبح حضارة فانه لا زاد له ــ كما بيناـ سوى التراب والوقت وارادته لتلك الحركة » (٦٧)«فتلك هي القيمة الخالدة التي نجدها كلما وجب علينا العودة الى بساطة الاشياء ، أي في الواقع كلما تحرك رجل الفطرة وتحركت معه حضارة في التاريخ » (٦٨)

وهذا الرجل الذي يعيش العدم غير« رجل النصف » الذي تغلغلت في نفسه دواعي الانحطاط » فهو يحمل روح الهزيمة بين جوانحه وقد عاش حياته دائما في منتصف طريق وفي منتصف فكرة وفي منتصف تطور ، انه ليس نقطة انطلاق ولا نقطة انتهاء ، انه « نقطة التعليق » والتأرجح في الحضارة ، انه « رجل القلة » « الذي دخل في ميدان فكرة هي الاصلاح فمسخها نصف فكرة وأطلق عليها اسم السياسة لانه لم يكن مستعدا الا لنصف جهد ونصف اجتهاد ونصف طريق » (٧١) ان هذا الرجل قليل يمثل القلة في كل شيء ورب عدم خير من قليل .

وما دام انسان القلة هذا يحاول ان يعطي القضية معناه .. ان يمسخها ، فقد وجب علينا ان نضع امامنا المشكلة بأكملها وأن نأخذ باعتبارنا ، على الاخص ، عنصرها الاساسي الرجل ، ويلزمنا اولا ان نفهم كيف يؤثر الانسان في تركيب التاريخ » (٧٢) .

طرح القضية على هذا الاساس الثوري يجعلنا نؤمن بأن الانسان يؤثر في مجتمعه بفكره وعمله وماله وعلى هذا الاساس نفسه تصبح قضية الفرد منوطة بتوجيه (١)الثقافة (٢)العمل (٣) رأس المال .

والتوجيه ليس الا « قوة في الاساس وتوافقا في السير ووحدة في الهدف » فهو بهذا تجنب « للاسراف في الجهد وفي الوقت » وضمان لسير التاريخ نحو الهدف المنشود. وهو يعني شيئين (أ) سلبية تفصلنا عن الماضي (ب) ايجابية تصلنا بالحياة الكريمة ، ويستلزم بالضرورة «تحديد محتوى العناصر الجوهرية للثقافة » وهي اربعة : الدستور الخلقي ، الذوق الجمالي ، المنطق العملي ، الصناعة .

والثقافة من خلال هذا التحديد ليست فلسفة الفرد كما يقول فلاسفة الغرب وليست فلسفة المجتمع كما يقول الماركسيون « فهي نظرية في السلوك اكثر من ان تكون نظرية في المعرفة » (٧٨) وهي بهذا (مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال اولي في الوسط الذي ولد فيه » (٧٩) .

وهكذا تصبح الثقافة فلسفة الفرد وفلسفة المجتمع او الجماعة لانها فلسفة الثورة .

ولكن عدم تحديد موقفنا السلبي والايجابي جعل من ثقافتنا ، ثقافة رجل القلة تعالما اقسى من الجهل لانه جهل حجرته الحروف« الابجدية » وسبب ذلك ان رجل القلة لم ير في الثقافة الا مطامعه وحاجاته . فالعلم ليس الا وسيلة للعيش وسلما الى منصة البرلمان وهذه هي «تهتهة المريض » .

ولكي نعيد للثقافة مستواها ومحتواها فان علينا ان ندرسها كعامل تاريخي لكي نفهمها ثم كنظام تربويتطبيقي لنشرها بين جميع فئات الشعب . وهي كعامل تاريخي « كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة » « من عادات متجانسة وعبقريات متقاربةوتقاليد متكاملةوأذواقمتناسبة وعواطف متشابهة »(٨٣) .

ولنيكون للثقافة محتوى أن لم تعطمعنىاخلاقيا للصلات الاجتماعية يجعلها تضمن تماسكا من مستوى حياة الرسالة وهذا بالاضافة الى الروح الجمالية والمنطق العملي الذي

ينظم الفعاليات وينسقها ، وسيلة الانقلاب ومنطق الثورة الانقلابي .

ثم ان تحديد موقفنا من الانسان يعني بالضرورة تحديد موقفنا من عمله ورأسماله . وعلى الرغم من ان العمل ليس عنصرا اساسيا كالرجل والتراب والوقت وعلى الرغم من انه ليس موجودا عندنا الان فان الحديث عنه ضروري وهام « فالعمل وحده هو الذي يخط مصير الاشياء في الاطار الاجتماعي » (٩٨) .

وتوجيه العمل هو سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد بما في ذلك جهد السائل والراعي وصاحب الحرفة والتاجر والطالب والعالم والمرأة والمثقف والفلاح لكي يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء . » (٩٨) .

«ويجب ان يكون التوجيه المنهجي للعمل شرطا عاما ثم وسيلة خاصة لكسب الحياة بعد ذلك ، كسب العيش لكل فرد » (٩٩) .

ولا شك في ان الذي يهمنا الان ليس الا الناحية التربوية فالكسب لن يكون ويجب الا يكون الا بعد تقسيم العمل .

ثم ان توجيه العمل يقتضي بالطبع توجيه « رأس المال » والتخطيط لاهدافه الاقتصادية . وطبيعي ان تكون مشكلتنا في هذا المضمار مغايرة لمشكلة رأس المال في« اوروبا » ولنظرية « ماركس » التي لم تتعرض له كآلة اجتماعية الا بمقدار ما تتحكم به طبقة من الطبقات ومن ناحية النتائج السياسية المترتبة على ذلك .

كان الحديث في كل ما مضى عن الانسان ، العنصر الاساسي في كل ناتج حضاري ولكن هذا الانسان مرتبط بالتراب ، بالارض وللارض بذلك مشكلة هي من مشكلة هذا الانسان .

ولا شك ان الانسان هو الذي يعطي للارض قيمتها وذلك باستغلالها استغلالا سلميا واعيا ، وصيانتها .

وأية نظرة بسيطة كفيلة بأن ترينا قيمة ارضنا الحقيقية والمرتبطة بالوضع الراهن للانسان العربي . ان الرمال تزحف على تونس والجزائر ومراكش وليبيا فتأكل الاخضرار وتحف بالمدن والقرى وكذلك هنالك ملايين الهكتارات التي لا تستغل في العراق وسوريا ومصر والتي بدأ يسوء اغلالها بسبب سوء الاستغلال والاهمال وعدم اتباع أية من الوسائل العملية .

هذا عدا الثروات التي لا تستغل او التي يستغلها المستعمرون وعملاؤهم لمصلحة الاستعمار والرجعية .

ولن يكون العنصر الثالث ـ وهو الوقت ـ اقل اهمية من التراب فنحن ما زلنا لا نعرف قيمة الزمن .. قيمة الدقيقة على الرغم من صلتها الوثيقة بالتاريخ ، اننا ما زلنا لا نعرف التحديد لاننا لا نعرف التخطيط ، وبذلك فاننا لا نعرف معنى « المدة » الحقيقي ، فالمدة عندنا مرتبطة بمأساة العدم وهكذا يضيع الزمن منا كما يضيع الماء من ساقية خربة كما يقول ابن نبي .

ومع هذا كله تأتي مشكلة الاستعمار الذي (يحرف منهجيا معادلة الفرد المستعمَر باستخدام انواع متعددة من العراقيل يصادفها الفرد في طريقه (١٤٥) وعلى الرغم من ان هذا اعتبار خارجي بمعنى من المعاني فان هنالك اعتبارا آخر وهو روح القبول او المهادنة التي تبدو في الفرد فتجعل منه وسيلة لمآرب الاستعمار في مقاومته لاية حركة ثورية او ترفع انساني يقف حاجزا بين الاستعمار ومصالحه وبهذا تكون « القضية عندنا اولا بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في انفسنا من استعداد لخدمته من حيث نشعر او لا نشعر ، وما دام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية وتبديدها وتشتيتها على ايدينا فلا رجاء في استقلال ولا امل في حرية مهما كانت الاوضاع السياسية » قال احد المصلحين : « اخرجوا المستعمر من انفسكم يخرج من ارضكم » (١٤٨) .

ان اشكالا من التزيي والسلوك بدأت تتسرب الى بيوتنا وعقولنا ، وشعارنا ... الى كل شيء عندنا وهي تظهر في متناقضات « تدل على نزعات متباينة واستعدادات فردية متنافرة في مجتمع فقد توازنه القديم ويبحث الان عن توازن جديد (١٥٢) واننا لنشاهد هذا التناقض في تصورنا للاشياء وفي اضطرابنا امامها .

ونحن لذلك كله لا بد ان يكون سيرنا علميا عقليا فالحضارة ليس اجزاء مبعثرة ملفقة ولا مظاهر خلابة وليست ناتج تحرك عنصر واحد او عامل واحد ، بل هي «جوهر ينتظم جميع اشكالها وافكارها وروحها ومظاهرها وقطب يتجه نحو تاريخ الانسانية »

وان قضيتنا منوطة بذلك التركيب الذي من شأنه ازالة المتناقضات والمفارقات المنتشرة في مجتمعنا اليوم وذلك بتخطيط ثقافة شاملة للجميع ، تستهدف مناحي الحياة كافة وتضمن الاستقرار والاطمئنان لكل مواطن في حياته الجديدة .

اني لاسمع من خلال الرماد والاطلال والحطام ومن ازيز الرصاص ودوي القنابل هذا الصوت الواثق بالنصر ، الدافىء بحرارته يشدو ... يقول : « وهنالك حيث تهدد الصحراء وجودنا وحيث لا نملك في ايدينا سوى العناصر الثلاثة سيرى العالم ازدهار حياتنا من جديد ، هنالك حيث يخيم الجهل والفقر سيشهد الناس سيطرة الصناعة والفن والعلم والرفاهية » (١٣٦) .

انه صوت الثورة الذي يتعالى على صخب السلاح وشخير الدم ..

انه دفؤها الذي يعود الى الربوع التي تلتهم الرمال اخضرارها ربيعا وغلالا .

كويت **ناجي علوش**

١ كتاب شروط النهضة ومشكلات الحضارة .

ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي . الطبعة الاولى ١٩٥٧

٢ ـ انسان ابن نبي ليس عربيا ، انه مسلم اسيوي افريقي . ولهذا يكون ابن نبي ثوريا في منهجيته فقط .



مع الفجر العربي

تأليف سعد صائب

٢٠٢ صفحة من الحجم الكبير - طبع مطبعة الترقي بدمشق

★

هذا كتاب عربي خالص ، واعني ان الصفة البارزة فيه هي هذه الروح القومية العربية الصافية التي تهدر في جنباته وتتفجر صاخبة مدوية تنطق بمعاني الفداء والاخلاص . واعتقد ان المؤلف الذي ادلى بصوته في استفتاء الوحدة السورية المصرية ، على ما قيل لي ، بنقطة من دمه اسالها من اصبعه على ورقة الاستفتاء ، قد سطر هذا الكتاب بمثل هذا المداد الوطني الامين . ويشعر القاريء بأن هذه الوطنية الجامحة التي كتب بها هذا الكتاب تكاد في معظم الاحيان تسبق قلم المؤلف .

وموضوع الكتاب هو النقد ، وعلى وجه التحديد ، نقد النتاج العربي في الادب القومي . وأعتقد انه عبارة عن مجموعة مقالات حول هـذا الموضوع نشرت في الصحف ، ولو أن مؤلفه لم يوضح هذا الموضوع في مقدمة يقدمه بها ، كما انه استخدم صيغة التسلسل في مطالع الابحاث ونحوها ليضفي روح الوحدة على مضمون الكتاب .

وأظن ان ما أسلفته هنا كاف للايحاء الى ذهن القاريء بالمأخذ الرئيسي على الكتاب . فلقد جمع المؤلف بين عاطفة جارفة هي العاطفة الوطنية،وبين موضوع النقد على صعيد واحد ، بحيث ترك هذه العاطفة تسيطر لا على قلمه فقط بل ايضا على تفكيره ، الذي طغت عليه بعنف حتى احالته مجرد اداة للوصف الشعري ونقل الافكار ، مبتعدة به عن ميدان المناقشة ، الذي يفرض فيه ان يكون هو ميدان النقد . فانت ترى كيف ان هذا الجمع لم يكن موفقا ، وانه كان من الاجدر الحفاظ على طابع الموضوعية الفكرية في العمل الادبي لا بل النقدي بنوع خاص ، وجعل السيطرة فيه للفكر لا للعاطفة ، او بتعبير اخر ، لجم العاطفة ليتكلم الفكر ، وليس العكس ، والا خرج هذا العمل عن صفته الجوهرية ، ليلتقي بأغراض الصحافة اليومية من « ريبورتاجات » وتلخيصات وتعليقات انشائية تصويرية .

واستدرك هنا لاوضح ان الموضوعية الفكرية اذ تحتم سيطرة الفكر على العاطفة ، لا تلغي وجود هذه العاطفة بل تحتفظ بها سالمة كاملة بصورة ضمنية ، وذلك على اعتبار ان ابراز هذه العاطفة ، واعني العاطفة القومية، امر غير ذي موضوع لدى الباحث ، لان وجودها هو شأن مفروغ منه بالبداهة ، خصوصا وانه في الاصل ، هو الباعث الاساسي لكتابة البحث او قراءته . أضف الى هذا ان الموضوعية الفكرية تخدم القضية القومية عن طريق الاقناع العقلي الذي يؤدي بدوره الى خلق العاطفة القومية او التأييد لدى القاريء اكثر مما يخدمها ابراز العاطفة القومية في مجال البحث الفكري .

ولقد تناول المؤلف في هذا الكتاب بعض الكتب والمحاضرات التي ظهرت او القيت في المدة الاخيرة ، وكان من بينها كتاب « فلسفة الثورة » للرئيس جمال عبد الناصر ، وكتاب « اراء واحاديث في القومية العربية» لساطع الحصري ، وكتاب « نحو عالم عربي أفضل » الذي يضم ثلاث محاضرات اشترك في القائها ببيروت قسطنطين زريق ونازك الملائكة واحمد السمان ، وكتاب « الحياة والشباب » لواصف البارودي ، وكتاب « وعي المستقبل » لقدري حافظ طوقان . ولا يخفى ما تمتاز به هذه الكتب من قيمة علمية ثمينة . ولكني تابعت كلام المؤلف باخلاص باحثا من خلال عرضه ونقده عنه ... عن العنصر الشخصي الذي يعود اليه ، فلم استطع العثور عليه . ولكي اكون امينا في قولي ، لقد وجدته متمثلا في عاطفته القومية المتأججة ، ووجدته في طريقة عرضه « الريبورتاجي » ـ اذا شئت الموفقة ، ووجدته في مقدماته وتعليقاته الشعرية ، ولكني استميحه عذرا اذا قلت اني لم اجده كناقد او باحث . فهو لم يقدم رأيا جديدا ، كما انه لم يناقش اية فكرة من افكار من تناولهم بالنقد ، وانما اكتفى بعرض هذه الافكار متبدئا ومنتهيا بالتقريظ الذي ذهب فيه على الدوام الى حد الاعجاب .

وقد نقول انه لم يتكلم الا عن كتابات من يؤيدهم ، ولذلك لم يظهر اي خلاف في الرأي . ولكن هذا الكلام مردود ، ففضلا عن ان الخلاف ليس وحده مبعث النقاش ، ليس من المعقول ان لا يصادف فكرة ما مخالفة لتفكيره ، او فكرة ناقصة تحتاج الى اكمال ، او فكرة مغالية تحتاج الى تعديل ، او فكرة غامضة تحتاج الى ايضاح وما الى ذلك . ولو سلمنا جدلا بان المؤلف لم يصادف شيئا من هذا على الاطلاق ، فما معنى كتابة هذا ، ما دامت الكتب التي يتكلم عنها موجودة في المكتبات تحت تصرف القراء ؟

لذا بت ارى اني اذا رمت نقد هذا الكتاب نقدا مفصلا ، كان علي ان اقوم بنقد جميع الكتب التي تناولها المؤلف ولم ينقدها ، أي ان أقوم بالعمل الذي رسمه هو لنفسه ، وذلك ما يستغرق كتابا جديدا ، غير ان هذا العمل لن يكون نقدا للكتاب اياه ، وبذلك أكون قد خرجت عن موضوعي هنا.

ولكي أعطي فكرة عن كيفية مرور المؤلف بالكلام الجديد بالمناقشة مرور الكرام ، اورد على سبيل المثال شرحه لرأي الشاعرة نازك الملائكة في الاخلاق فقد قال في الصفحة ٥٣ على لسان الشاعرة نازك الملائكة بعد ان ذكر انها لاحظت مظهرين للاخلاق في البلاد العربية :

« واما المظهر الثاني لاخلاقنا ، فهو اسلوبنا في النظر الى قضايا الاخلاق، وهو اسلوب يستند الى الاعتقاد بان للاخلاق مقياسا لا تغيره العصور ، ولا البيئات ، لانه نهائي ، ولانه غاية نفسه ، لذلك ظلت الاخلاق التي تدين بها اخلاقا سكونية سالبة - على حد قول المحاضرة - تتخذ نقطة ارتكازها في المظهر لا في الفعل . فليس بعدك عن السرقة يعني انك نزيه ، ولا امتناعك عن الكذب يعني انك صادق ، ولا تحملك المكاره يدل على انك صبور ، فتلك اخلاق سلبية ، لا يكلفك التخلق بها جهدا رائعا تبذله لخير المجموع ، وهي بالتالي اعتبارات لا تنطوي على فعل ، بل تستند الى امتناع ، وليست لها فائدة ايجابية للحياة ، لان المضمون الفلسفي للخير « يجب ان يشمل اداء عمل يفيد الانسانية ، ويضيف الى جمال الحياة وخصوبة الارض ، ويشق للنوع البشري طرقا جديدة الى الامام » ولهذا فان ما يحتاج اليه مجتمعنا في رأي المحاضرة هو توسيع دائرة اعتباراته، فيدخل الاخلاق الايجابية في دائرة الضرورات ، وينحي الاخلاق السكونية عن المركز !. »

فاولا ، بما ان المحاضرة تعني بالاخلاق المفهوم الاجنبي La Morale نظرا للامثلة التي توردها ، ليس من المعقول ان نتصور الاخلاق بغير مقياس ثابت ومطلق ، والا اصبحت الاخلاق نسبية وفقدت معناها .

ثم ان الامتناع عن الرذيلة ليس خلقا سالبا، لان الامتناع ذاته عمل ارادي بكامل معنى الكلمة ، وهو ايجابي كل الايجاب . وماذا يكون المبتعد عن السرقة الا ان يكون نزيها ، والممتنع عن الكذب الا ان يكون صادقا ، والمتحمل للمكاره الا ان يكون صبورا ؟

ثم ان ما تعتقد المحاضرة انه المضمون الفلسفي للخير ليس في الواقع كامل هذا المضمون ، كما انه ليس الجانب الايجابي الذي يقابل جانبا اخر سلبيا من الاخلاق ، وانما هو خلق من جملة تلك الاخلاق ، وقيمة روحية من جملة تلك القيم التي تكلمت عنها .

وفوق هذا ، وهذا هو الاهم ، تفترض المحاضرة في قولها هذا وجود هذه الاخلاق في مجتمعنا ، مع ان اول ما يفتقر اليه مجتمعنا هو هذه الاخلاق بالذات : فكثرة الكذب هو الصفة الاولى التي يعيرنا بها الاجانب، في حين ان الكذب مهما يكن تافها يعتبر في المجتمعات الراقية عارا كبيرا . والسرقة بانواعها الجمة معروف امرها عندنا لدى الجميع . واما تحمل المكاره فهو آخر ما نستطيع ان نعثر عليه في تاريخ مجتمعنا المعاصر . واحرى بنا ان ندعو الى ايجاد هذه الاخلاق، واذا وجدت يجدر بنا ان ندعو الى تعزيزها بدلا من « تنحيتها عن المركز » في سبيل مطالبتنا باخلاق اخرى هي في الواقع من نتائج هذه الاخلاق بالذات ، او بعبارة اخرى هي استمرار لها ، ولا تختلف عنها من حيث الايجاب والسلب الا اذا اتخذنا لتعبيرنا لغة الشعر والخيال .

أما المؤلف ، فالشيء الوحيد الذي علق به على هذا الكلام وغيره من أقوال المحاضرة قوله في الصفحة ٥٥ : « هذه هي ازماتنا ومشاكلنا الاجتماعية بما فيها من تعقد ودقة ، صورتها الشاعرة « نازك الملائكة » في محاضرتها اصدق تصوير وابرعه ، لانها فهمتها على حقيقتها ، ووعت متضمناتها ، وقبضت على اصول الشدة التي تعانيها من جرائها . فكانت موفقة ابعد ما يكون التوفيق ، برهنت على تفاعل حي بين واقعها وفكرها ... الخ »

ذلك هو انطباعي عن كتاب « مع الفجر العربي » نقلته بصراحة أرجو ان تشفع بي لدى المؤلف ليتقبله بصدر رحب . وليس يفوتني في هذا المجال ان انوه بما للكتاب من قيمة قومية ممتازة من حيث بث الشعور القومي العارم وشرح آراء بعض الباحثين في الشؤون العربية .

محمد وهبي



جميلة

احدى عشرة قصيدة

دار الفكر - القاهرة

★

صدرت في القاهرة اخيرا - عن دار الفكر - مجموعة شعر بعنوان : « جميلة » ، ضمت عشر قصائد مختلفة لعشرة شعراء ، بالاضافة الى قصيدة مستقلة عن المجموعة لكمال عبد الحليم ..

.. والموضوع هو مأساة « جميلة بو حيرد » الجزائرية المناضلة التي حكم عليها الاستعمار بالموت ، وراحوا يسقونها كؤوس العذاب منوعة قاسية ، وحاولوا معها كافة المحاولات الشريفة منها وغير الشريفة لكي يحصلوا على نصر ، ولكنهم فشلوا ، وبقي تنفيذ الحكم .

وكما صاحت الملايين في مختلف بلاد العالم يوم حكم بالموت على الزوجين روزنبرج ، وكما صاحت هذه الملايين ايضا عام ١٩٥٠ تطالب بالافراج عن ناظم حكمت .. هكذا ايضا تحركت الملايين حتى في فرنسا نفسها ... ونجحت الصيحات وانتصر الرأي العام العالمي .. وتأجل تنفيذ الحكم ..

.. ورغم صغر حجم هذا الديوان ، خرجت منه بنتائج ثلاث . وقبل ان اورد هذه النتائج الثلاث يحق لي ان اذكر اسماء الشعراء العشرة الذين اسهموا في المجموعة وهم : احمد حجازي ، حسن فتح الباب ، صلاح جاهين، صلاح عبد الصبور ، عبد الرحمن الشرقاوي ، عبده عثمان ، فؤاد حداد ، محمد الجيار ، محمود عبد الرحيم ، عادل قره شولي .. وواضح ان معظهم يعرفه قراء الاداب .

اعود بعد هذا الى النتائج التي اشرت اليها فالخصها فيما يأتي:

- اولا: لا زلت اومن بان التمثل السريع للمناسبة او التجربة لا ينتج ابداعا ناضجا ، وعى التجربة وشملها ، تماما كما حدث في معظم انتاج معركة بور سعيد .. وهذا التمثل السريع ايضا لمأساة جميلة هو الذي جعل معظم اشعار هذه المجموعة سريعة غير ناضجة ، وتبعا غرقت في التصميم والتجريد والتقرير ، وهذا ما حدث بالنسبة للقصائد : « لن تصلب الشمس في الجزائر لحسن فتح الباب ، « جميلة علم وهران » لصلاح عبد الصبور، « دمعة على جميلة » لعبده عثمان ، « مذكرات جميلة » لمحمد الجيار ، واخيرا القصيدة المستقلة لكمال عبد الحليم وهي بعنوان : «الرسالة»

ثانيا : يترتب على التمثل السريع وقوع الشاعر في الاخطاء والتناقضات وهذا ايضا ما نتبنيه في قصائد الديوان ..

في قصيدة « جميلة قديسة » لاحمد حجازي هذه الابيات :

لم تتحسس صدرها

حين اغتنى وصار رمانا

ولم تكلم في امور الحب انسانا

هنا ينفي الشاعر تفكير جميلة في مسائل الحب ، ورغم بعد هـذه الابيات عن الواقع الى حد ما فاننا نجد الشاعر في نهاية القصيدة يقع في التناقض حينما يقول :

لكن ترى من غيرها يقول

اهواك يا ياسين

ثم يقع الشاعر في خطأ اخر .. يقول

كان اسمها جميلة

أفديه من سمى

وهنا استعمل الفعل الماضي « كان » وكرره بعد هذا فكأنه تمثـل جميلة في الماضي.. فيما وراء هذا العالم .. في حين ان جميلة لا زالت تعيش .. وقد يكون الفعل الماضي هنا ضروريا « لاسطرة » التجربة وهنا ايضا لا نوافق الشاعر على ان جميلة اسطورة .

ونتيجة للتمثل السريع ايضا يقول الشاعر في وصف جميلة :

والعين عين ساحرة او

كانما اصطادت رموشها الطويله

من السماء نجما

واتساءل ما فائدة هذه الصور في بناء القصيدة ووحدتها ؟ اما فـي قصيدة « مذكرات جميلة » لمحمد الجيار فاناقش مفهوم المذكرات فـي الشعر – مع ترك ما في القصيدة من تقرير مثل :

انا فوق شفاه الالاف

صرخات نادت بالثوره

انا مشعل في ليل الاحرار

.. الذي تعنيه المذكرات عادة هو انعكاس صاحبها ، ظروفه ومكوناته في زمن معين ، على ما يصلنا من اوراق .. فعند ما تكتب جميـلة مذكراتها في الزمن الذي حدده الشاعر ، فاننا سنحسها ونتحرك معها . اما هنا في القصيدة فنلمس تدخل الشاعر في مذكرات جميلة ... انا الح الشاعر كثيرا في القصيدة بينما تتوارى جميلة لتفسح له مكانـا اراده هو ...

ولهذا لا اعتقد ان يكتب الشاعر او القاص مذكرات لانسان اخر فـلا تخلو من اغراب وابتعاد عن الواقع ..

.. والقصيدة الاخيرة لعادل قره شولى تحمل معها جوا غريبا كـله « آه » ، و « ياويلتاه » «واحسرتاه» حتى في المواقف التي لا تتحمل مثل هذه الاهات والتحسرات والندب .. يقول :

طائري يحمل منا باقة الاشواق

طائري لا يعرف الاخفاق

انما واحسرتاه

جنحه مكسور

... هنا لا ادري ضرورة « واحسرتاه » !

ويبدو لي في بعض قصائد المجموعة ان ثمة احساسا لدى الشعـراء بنهاية جميلة ، فتوقعوا ان ينفذ الحكم في يومه الذي نقضته الملايين.. على ان هذا كله لا ينفى ان قصيدة « فلتعيشي يا جميلة » للشرقاوي رغم انها حفلت بالخطابية احيانا هي اقرب قصائد الديوان الى الشمـول والنضج . فقد نجح الشرقاوي في تصوير جو المأساة متمثلا تـاريخ فرنسا وانتفاضات ثوارها في فالمى والكومون ، وراية الثورة التي تهاوى رمزها ، وضياع فالمى في بور سعيد .. هذا الجو العام يعكسه الشرقاوي خلال الجو الخاص .. جو جميلة .. وهذا الجوهر يصوره خلال الظاهرة المتعينة . ومن هنا تنجح التجربة ..

ثالثا : تبين لي انه في الزمن القصير المحدود بابعاد قصيرة يكـون الشكل الشعبي للعمل الفني اقدر على تمثل التجربة واستيعابها الى حد ما وبشكل لا يستطيعه الشعر .. ولهذا نجحت تجارب جاهين وحـداد وعبد الرحيم هذا وان كانت تجربة جاهين : « اللي جرى لجميلة » اكثـر الثلاثة نضجا وشمولا ..

.. اعود فاقول ان التمثل السريع للامور ليس يعني شيئا سـوى الضرر .. ان التمثل السريع هو الذي يؤدي الى التقرير والصنعـة والخطابية والتجريد وكافة امراض القصيدة الجديدة ..

علي شلش

القاهرة

ذات العماد

تأليف : امين نخله

منشورات دار الكتب بيروت – ١٧٦ صفحة

*

اذ تقرأ« ذات العماد » لا يمكنك ان تصدق بانك تقرأ للاديب التقدمي المعروف الذي كان يسأل ، وهو طريح الفراش ، عن اخبار الجمهوريـة العربية المتحدة ، ويمتص من نسائم الاخبار المفرحة رحيق دواء اكثر انعاشا للنفس وأقوى وأدفع للعزيمة من عقاقير الصيدلي ... اذ تقرأ « ذات العماد » تنسى صورة امين نخله الاديب الريفي وينتقل بك الخيال الى توماس تراهيرن لتعيش معه في « عصور من التأمل » وتقرأ : « لاح كل شيء جديدا وغريبا لاول مرة ، نادرا ومغبطا وجميلا بكيفية لا توصف .. ولاح لي انني كنت مدعوا الى حفل تعرض فيه اعمال الله بكامل عظمتها وفخامتها ، وقد رأيت ذلك كله وسط سلام يشبه سلام جنة عدن ... كانت الذرة شرقية ، وكانت الحنطة خالدة ، ولم تكن لتحصد ، وما كانت مبذورة قط ! اما غبار الشوارع وأحجارها فقد كانت من الذهب الخالص.. وكان الشبان ملائكة براقة متألقة ، وكانت الفتيات قطعا غريبة طيفيـة من الحياة والجمال ... »

لا بل امين نخلة في « ذات العماد » كان ابعد في التصورات الخيالية الكسول من تراهيرن في « عصور من التأمل » . اذ كل حديثه عن الذهب والياقوت والزبرجد والفضة في هذا العصر الذي انسى الكاتب نفسـه رنة الذهب ... ولقد قرأ الاستاذ نخلة حديثا لياقوت « الحموي » عن « ذات العماد » ، وكان الحديث ذاته ، على ايجازه ، من الروعة الادبية والبريق والتلألؤ والتماسك الجمالي والتناسق الخيالي ، مما يدفع المرء لان ينسى « معجم البلدان » بين يديه ويجول ، وهو بين ثنايا الفراش واللحاف ، بين ارجاء ذات العماد ، هذه الجنة التي فاقت جنة القرآن

وجنة ابي العلاء روعة وجلالا وبرودة احجار كريمة . وماذا سوف يرى اذ يجول ؟ انه سوف يرى كل شيء حتى النبات والانهار والبيوت ، مصوغة من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران والجواهر والزبرجد والعقيق ، ولسوف يرى الانهار والسواقي مطلية بالذهب الاحمر ، وسيدهشه ان يرى حصى الانهار من انواع الجواهر : الاحمر والاصفر والاخضر ... حتى سور المدينة الهائل كان مفضضا من خارجه ، ومطليا من داخله بأنواع اليواقيت وظرائف الجواهر .

وما هي مشاغل زائر ذات العماد ؟ انها مشاغل عقلية راقية جدا ! أرأيت الى صفاء الكريستال ؟ أرأيت الى احاديث المتفرغين عن كل هم أو شاغل حياتي؟ ان الاستاذ نخلة اذ يزور ذات العماد يسرع لطرق ابواب الذين يصح فيهم قول الشاعر :

ما فيه لو ولا ليت ، فتنقصه   وانما ادركته حرفة الادب

ليقوم ما قام به ابن القارح في جنة الغفران : يسائل كل شاعر وأديب اسئلة في حرفة الادب وقواعد الكتابة وأصول النحو ومبادىء اللغة ، ويجعل يبادلهم النكات والامازيح ... على ان لا مجال للمقارنة بين رسالة الغفران وذات العماد ، فالاستاذ امين نخله لم يستطع في كتابه هذا ان يحلق الى مستوى الاعجاز الا في امر واحد : هو الاسلوب .

ورغم ان المؤلف قد بذل مجهودا اكثر من ضخم لاخراج كتابه هذا الاخراج الرائع ، او لجعله لبنة من ذهب قوية التماسك شديدة البريق والجمال ورغم انه درس اكثر من مئتي كتاب من « الامهات » القديمة والحديثة ، فان الاحاديث تكاد تدور كلها حول لبنان ، ويكاد لبنان يكون الموضوع الاساسي ، ويكاد جمال لبنان يكون الشاغل الوحيد للمؤلف ، حتى ان مديرية الاصطياف تستطيع ان تأخذ متن هذا الكتاب – اذ ان حواشيه اكثر من المتن – وتجعل منها واحدا من منشورات الدعاية . ولا غرابة في ذلك ، فأمين نخله الشاعر يعرف كيف يجلو البراقع عن جمال « جنة الوطن العربي » وأمين نخلة الاديب البحاثة يعرف كيف يستنطق كبار ادباء العرب ، من امرىء القيس حتى احمد شوقي ، وينتقي شهاداتهم الموثوقة عن روعة لبنان وجماله ... او لم يقل كعب الاحبار : « جبل لبنان احد الاجبل الثمانية التي تحمل العرش يوم القيامة ، وأمسك عن ذكر السبعة الاخرى » ؟

ولكن ...

ولكن ألم ينفصل جبل لبنان عن أهليه ؟ ان مئات الالوف من عرب لبنان الذين زحفوا الى دمشق للابتهاج بعيد الوحدة العربية تشهد بأن كارثة الانفصال عن اهليه قد وصلت اقصى حدود النهاباتها . ام ان الاستاذ امين نخله لم يكتب ذات العماد للناس الذين يحبهم ؟ اسمعه يقول في خاتمة الكتاب : « لو لم يكن من فائدة للعقل ، وراء الشعر والادب ، الا هذه النزهة في الدنياوات التي لا وجود لها ، لكفى ... » .

وماذا تنفع هذه الدنياوات التي لا وجود لها ؟

أو ليس من الغريب ان ترد لفظة « ذهب » و « لبنان » عدة مرات في كل صفحة ،وان لا يرد ذكر « للاستعمار » مثلا ولو مرة واحدة في كل الكتاب ؟

ما نعلمه ان هذا الاديب المرهف العظيم من اصل ريفي ، وانه لا يزال يعيش وسط الريفيين . ولن نرجع الى « تحت قناطر ارسطو » لنقتطف لك مقاطع تدلك على مدى تعلق الاستاذ بالريف ، وانما سنقتطف للاستاذ زهرة من اشعار ييتس ، فلعل لغة الشعر هي المنظف الوحيد الذي يعيد الصفاء الى نظارته السميكة . يقول ييتس :

« تلوح الاشياء كلها قبيحة محطمة بالية .
صراخ طفل على جانب الطريق ، وزقيق مركبة عتيقة
وخطوات الفلاح الثقيلة الغائصة في وحل الشتاء
اشياء تزيف الصورة التي تتوهمها عن زهرة تتفتح في قلبك »

وبعد ، فان كنا قد شهدنا بأن « ذات العماد » كان وثيقة جديدة على براعة الاستاذ امين نخلة الادبية وطاقته الشعرية وأسلوبه الذي يصل حد الاعجاز ، فاننا نتساءل ، والحرقة تملأ نفوسنا : متى يجعل امين نخلة كل المواهب الجميلة تعيش في « دنيا لها وجود » ؟ متى يحدثنا عن لبنان ؟

ام أن امين نخلة لم يسمع بعد بالقسم العظيم الذي اقسمه ادباء لبنان ، من شرفة قصر الضيافة ، على لسان المواطن رئيف خوري ؟

حماه   **شريف الراس**



رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء

نشر دار صادر ودار بيروت

✶

اذا ذكرت الآثار القديمة التي كانت بمثابة القمم الجبارة للفكر العربي رأيت « رسائل اخوان الصفاء » في طليعة هذه الآثار التي اجتمعت لها سعة الثقافة العربية والاجنبية ، وجهود الفكر الخلاق .

وهذه الرسائل هي نتائج فئة من العلماء تسترت ، وتألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة ، وجاءت رسائلهم شبيهة بدائرة معارف مرتبة تضم علوم ذلك العصر ، واكثر وجوه هذا الرقي الفكري اشراقا هو الوجه اليوناني ، وكان العقل العربي ، اذ ذاك ، لا يزال يستمد مما حوله من ثقافات وحضارات ، ولاسيما العقل اليوناني الذي وجد فيه العقل العربي رائدا له ، باعتبار انك لا ترى ثقافة قديمة يحترم فيها العقل كالثقافة اليونانية . والاسلام ، في كثير من مواقفه ، يدعو الى تقديس العقل ، ويستعين بالمنطق .

وقد كان هؤلاء العلماء المسلمون حريصين على ان يجمعوا بين الشريعة الاسلامية التي يدينون بها ، والفلسفة اليونانية التي اطلعوا عليها . وربما كانوا اول فئة حاولت التوفيق بين النزعتين ، ومن مبادئها قولها : « انه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية ، والشريعة العربية فقد حصل الكمال » فالكمال ، اذا ، عند هذه الفئة ، هو التوفيق بين الدين والعقل الفلسفي . وهنا علة العلل .. ولقد رأينا ، من الفلاسفة ، من يميل الى العقل وترجيحه والقول بأحكامه ، وهذا المغزى نفسه يسمعنا على لسان هؤلاء الفلاسفة قوله :

كذب الظن : لا امام سوى العقل مشيرا في صبحه والمساء !

ومن العلماء من يميلون الى الشريعة باعتبارها وحيا اعلى من صوت العقل . ومنهم من يؤثر الفلسفة على الشريعة – كالمقدسي – باعتبار ان الشريعة طب المرضى ، والفلسفة طب الاصحاء . حتى اذا جاء المتصوفة شققوا هذا الموضوع ، وذهبوا الى تفضيل الاولياء على الانبياء ، باعتبار ان النبي يستقي رسالة من غيره ، بينما الولي يتبع الهام نفسه . فكأن

الولاية بمنزلة الفلسفة ، وكأن النبوة بمنزلة الشريعة (عن ابن عربي)

ويميل المحققون الذين درسوا « الرسائل » الى ان الحكمة اليونانية قد استوطنت الشرق عن طريق اخوان الصفاء . واخوان الصفاء هم جيل القرن الرابع الهجري ، فأين غزوات العقل اليوناني للثقافة الاسلامية في القرنين السابقين ؟ والمعروف ان الثقافة اليونانية بأشكال تراثها المختلفة بدأت تقتحم العقلية الاسلامية في اوائل العهد العباسي . ولا شك ان الكثير من معارضها المترجمة قد وجدت لها قرارا في هذه الامة الجديدة. ولكن قد يصح القول « ان رسائل اخوان الصفاء » قد استطاعت ان تركز « الفكر اليوناني » وما ابدعه في شتى المعارف العقلية والعلمية والفنية في هذه الرسائل تركيزا موجزا واضحا .

ومؤلفو هذه الرسائل جماعة صغيرة من الرجال تتكون من أربع طبقات، ولهم اتباع واعوان في كل بلد . وهم ينتظرون منذ الصغر حتى الكبر بحسب عقولهم . ويبدو ان هذا التقسيم هو طريق الى التغلغل باعتبار طريقتهم « رسالة » اصلاحية ، فلذلك يكون الاعتماد على الشبان اكثر لسلامة جوهرهم ، وسرعة تقبلهم .

ويذكر صاحب « تاريخ الفلسفة في الاسلام » : «وجملة القول فيارائهم انها مذهب جماعة مضطهدة ، فيها ما عانوه من آلام ، وما اختلج في نفوسهم من امل، وما تواصوا به من صبر.وهم يلتمسون في هذه الفلسفة الروحية سلوى لنفوسهم او تطهيرا لها . وهذه الفلسفة هي دينهم . وشعارهم المذكور ان يكون الواحد منهم مخلصا حتى الموت ، لاعتقادهم ان الموت في سبيل صلاح الاخوان هو الجهاد الصحيح، فأوجبوا على الانسان ان يساعد اخاه في هذه الحياة بكل ما يتسع له جهده ، فيجب على ذي المال ان يجعل للفقير حظا من ماله ، وعلى ذي العلم ان يعلم اخاه الجاهل . غير ان العلم ــ عندهم ــ خاصة على المستبصرين من افراد الطبقة العليا .. »

هذه رسالتهم من الناحية الاجتماعية ، وقد يكون فيها خير كثير للمجتمع ، لانها قائمة على اساس الارشاد والتعاون ، ولكن لماذا كانت هذه الفئة تتستر ؟ ولماذا عوملت بالاضطهاد ؟ الجواب على ذلك ليس بالعسير . فالعصر الذي نشأت فيه هو عصر عاصف بقلقه واضطرابه ودسائسه . فكان من المعقول جدا ان يرتاب الحكام في كل حركة تنهض، او فئة تقوم ، مهما ذهبت اليه هذه الحركة ، وهذه الفئة . وهم اشد ارتيابا حين تلبس الحركة زي الفلسفة ، وتدعو الى نهضة قائمة على اعمال الفكر . والرسائليون احوج ما يطلبون الابتعاد عن هذا الارتياب خشية ان يتهموا بالالحاد .

وهم ، في وعيهم الفكري، ارادوا من الفكر ان يثور ، وان يكون هو عنوان الثورة ، ولكنهم ارادوا ان تبقى هذه الثورة محدودة في التعاليم الفكرية ، ولم يدعوا ابدا الى الثورة على اولي الامر باعتبار ان الفكر متى تحرر كان ثورة قائمة بنفسها . فكان من مظاهر تفكيرهم المتحرر انهم راحوا يسعون الى تأويل الايات والاحاديث بحسب هواهم ، وفي هذا تجرؤ على النصوص بهذا التأويل المقتسر . ومن مظاهر تفكيرهم السمح انهم لا يؤثرون مذهبا على مذهب ، بل يتقبلون جميع المذاهب والاديان ، ويرجعون بها الى مبدأ واحد . وهم ، في هذه الحالة يقتربون من معرفة الله على نمط صوفي خفي جرى عليه المتصوفة في تفهم الكون ، والايمان بوحدة الكون . فهل ، يا ترى ، هذه السماحة مظهر من مظاهر ايمانهم بوحدة الكون ؟ هل يجعلون المتضادات مؤتلفة في الاصل ، تصدر عن مبدأ واحد ، وعلة واحدة ، وعالم واحد ، ونفس واحدة ؟ ام هي مجرد تسامح فكري قادهم الى اللقاء مع المتصوفة الذين يقولون بصحة الاديان جميعا ؟ وعلى رأسهم الشيخ محي الدين بن عربي صاحب البيت المشهور :

ادين بدين الحب اني توجهت ركائبه ، فالحب ديني وايماني

وصاحب البيت الذي يجهر بوحدة الكون مع الاله :

فانظره في شجر ! وانظره في حجر
وانظره في كل شيء ، ذلك الله!

وقد اراد بعض فلاسفة الغرب ان يبنوا فلسفة خاصة على هذه الفكرة، منهم « سبينوزا » و « شيلنغ » القائل : « ان المطلق يرقد في النبات ، ويسكن في الحيوان، ويستيقظ في الانسان » . و « وفيكتور كوزان » الذي جعل من هذه الفلسفة طريقة له ومذهبا خاصا به .

على ان البعض شك في اسلامهم ، وحملوا رسالتهم على انها لون من الوان الالحاد . وساعد على هذا الحكم تكتم الجماعة في عقيدتها . ولكن هذا التكتم لا يجعلنا نسرع في هذا الحكم . لانهم اتخذوه مبالغة منهم في الحذر . ولذلك لم تلاحقهم الدولة ، وقد كان من حقها ان تلاحقهم لو رأت في سيرهم انحرافا عن سياستها او عقيدتها . ولكنها تركتهم وشأنهم، لان سلوكهم بين الناس لم يبد فيه اي اثر لاشتغالهم بالسياسة ، لما تحلوا به من فضائل الزهد في الدنيا ، والمحبة والوفاء .

واما مجموع رسائلهم فقد بلغ اثنتين وخمسين رسالة ، ورسالة . والاخيرة تدعى « الجامعة » الملخصة لكل ما ورد في الرسائل الاولى ، ومصادر علومهم التي استقوا منها انما تعتمد على كتب الوحي وكتب العقل . وهي الكتب المنزلة، والكتب الالهية . والرياضيات والطبيعيات ، والكتب الطبيعية والفلكية . اما كتب الوحي تدفق من سماء الشرق، واما كتب العقل فقد انحدرت مع ثقافات الامم الاجنبية ، كاليونان والهند وغيرهم .

ففي القسم الرياضي ــ اليوناني ــ عالجوا الاعداد والمربعات وادخلوا فواصل الموسيقى ضمنها .

وفي القسم الطبيعي كانوا فطنين الى ما نسميه « مذهب النشوء والارتقاء » حين اشاروا الى قوة « التحول » في الطبيعة بين اعضائها « فالمعادن متصل اولها بالثبات وآخرها بالنبات . فخضراء الدمن ليست بشيء سوى غبار يتلبد على الارض والصخور والاحجار ، ثم تصيبه الامطار وانداء الليل ، فيصبح بالغد كانه نبت وحشائش ،.. والنبات اخره متصل بالحيوان ، وكذلك اخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الانسان » وهذا قول صريح في الاستحالات الطبيعية التي يبني عليها رجال الطبيعة مذهبهم في النشوء والارتقاء .

وفي قسم الآراء والديانات ، نراهم يحاولون التوفيق بين الدين والفلسفة ــ كما أشرنا ــ وجعلوا مذهبهم يستغرق المذاهب كلها . وكما قال ــ دي بور ــ ارادوا ان يضعوا دينا عقليا يعلو الاديان جميعا . وبه يتم التوفيق بين الشريعة والحكمة . ولكن فات « دي بور » ان يرى ان الجماعة لم تتخذ طريق العقل وحده الى غايتها ، ولو استخدمت العقل وحده لكان طريقها الى الفلسفةادنى، ولكنها سلكت طريق التصوف في طلب الحكمة ، وجعلت الايمان جناحا ، والعقل جناحا . وفي«الرسائل» « شطحات » صوفية كما يسميها المتصوفة لا تقل رحمة وحنانا عن آية شطحات اقسم بها كبار الصوفية . ومن ذلك رأيهم ان « التعذيب في جهنم مؤلم ، ولا يمكن ان يدوم ، وهو يجعل الناس يسيئون الظن برحمة الله وحنانه » والله ، قبل كل شيء ، هو رحمة وحنان ، ومثل هذه « الشطحة » ذهباليها رأس الصوفية الشيخ محي الدين بن عربي في

كتاب « الفتوحات المكية » ورأى ان الله ، بدافع الرحمة ، يخفف عن المعذبين ، فيجعل النار باطلا عملها ، وان كانوا في النار .

وجل ما يمكن القول في هذه الرسالة انها شبيهة ، الى حد بعيد ، بالمعلمة الفرنسية التي ظهرت في عصر الثورة ، تحمل البذور الاولى للعلوم والافكار ، الا ان هذه المعلمة كانت طليعة نهضة تريد ان تتفجر ، وتلك المعلمة جاءت في اعقاب نهضة كانت في طريق الذبول ، فهي تشتمل « على مجمل ما انتهت اليه علوم الاقدمين وعقائدهم ، ولئن فاتها العمق فما فاتها التوجيه الذي حكم عليها بالشهولة ، واليسر في العرض والتعبير . وتوجيههم لم يأت بطريقة العنف . « وانما مثل ما يقدمونه كمثل بستان يمر به المار ، فان اعجبه شيء اقتطعه .. وقيل له : « كل ما شئت ، وشم ما شئت ، واختر ما شئت ، وانظر كيف شئت ، وتنزه اين شئت »

وقد كتبت هذه الرسائل بلغة واضحة ، وتعابير لينة طيعة ، تجافت عن اللغة الفلسفية القاسية ، وبرئت من شوائب اللغة المترجمة . تستجيب لما يراد منها ، وتدل على نضج اصحابها فيما يفكرون وفيما يريدون .

وقيمتها العلمية قد تزول من ناحية « الحقيقة العلمية » لتطور هذه الحقيقة كل يوم . لكنها تبقى في انها اول كتاب عربي اشتركت فيه طائفة تدين بمذاهب معينة على نحو جديد لم يسبق اليه في اي ادب، تحمل معها التسامح العقلي ، وتنم على الثقافة الواسعة الخيرة .

جزى الله الناشرين لهذا الكتاب عن العقل العربي والتراث العربي خير الجزاء . لان عملهم هذا هو الذي يضع اللبنات الاساسية في سبيل دراسة الادب العربي والفكر العربي قبل العصور دراسة صحيحة ، متجردة ، موضوعية .

خليل الهنداوي



انا احيا

رواية تأليف ليلى بعلبكي

منشورات دار مجلة شعر ، بيروت ٣٢٨ ص

*

لا آتي بشيء جديد حينما اردد ما يكاد يجمع الناس عليه من انه ليس من احد يفهم نفسية الانثى ، امرأة او مراهقة ، مثلها هي. ولكن بمقدار ما نشعر بهذه الحقيقة ، نجد من الجهة الاخرى فراغا غريبا في الادب النسائي ، واحجاما عند حاملات الاقلام بيننا عن تشريح انفسهن(افكارهن وعواطفهن وامانيهن)بانفسهن،ممايتيح للرجل،الاديب او غير الاديب،والمجرب او غير المجرب ان يقوم هو بذلك ، فيعجز عنه عجزا يتفاوت في الفشل بالنسبة الى مدى خبرة الرجل بالمرأة . ولذلك فنحن نبتهج لان نقرأ لقلم جديد غمست صاحبته بمداد اختبارها الحياتي . انه قلم ليلى بعلبكي ، اللبنانية ، في « انا احيا » .

« انا احيا » قصة فتاة تعرفنا على نفسها حيث هي تعرف نفسها ، وتدخلنا الى غياهب نفسها المجهولة حيث هي لا تعرف نفسها وتريد ان تعرف . اننا نقوم برحلة استكشافية داخل عالم عذراء ، وهو عالم مجهول، تقوم المؤلفة فيه بدور الدليل الخبير : الدليل الذي يشاركك في ما يعرفه ويحس به، ثم يشترك معه في البحث عما يجهله او يستعصي عليه فهمه دون ان يكتم ما يعرف او ان يزعم لنفسه ما لا يعرف ، كما يفعل ادلة المتاحف والاثار !..

انها قصة الفتاة الشرقية ـ ولاكن ادق واصرح: قصة الفتاة المسلمة الى حد بعيد ـ ذات الحجاب المسدول على روحها وفكرها ، ان لم يكن حجابا مسدولا على وجهها وشعرها بالفعل . ذلك الحجاب الذي يفرضه المجتمع اليوم ، ومنذ عصور التحجر والانحطاط . انها قصة الكبت الذي تعيش الفتاة فيه ، فيحرم عليها ان تفكر او ان تحب حسب ما تريد هي ، لان « واجبها » ان تفكر وان تحب حسب ارادة ابيها او امها . انها قصة الحرية الضائعة التي تبحث الفتاة عنها ، وتنشدها في كل مكان ، لتبرهن بها لنفسها ولغيرها انها كيان بشري وليست اداة يستخدمها الرجل لصالحه ، سواء كانت هذه الاداة رفيقة او حبيبة او زوجة او ابنة . انها قصة بحث الفتاة عن مستقبلها ، لتضمن ان يبقى ذلك المستقبل لمصلحتها ولا يرسمه غيرها لها ، لان الفتاة الشرقية لا تثق بغيرها ، مهما كان هذا الغير قريبا منها . انها قصة الحب الشرقي الذي يولد من الفراغ ، وتتيه الفتاة ، معه، في عالم كالغريب عليها ، ثم يتبدد كالضباب المنقشع ، على الرغم من الشهوة التي تذكيه والامال التي تغذيه ...

تعلن ليلى بعلبكي في روايتها ثورة الفتاة الشرقية على واقعها . تثور على فراغ الحياة ، فلا حبيب يصمد ، ولا تسلية تلذ ، ولا بيت يمتع ، ولا اهل يتفهمون . وتثور على كل ما هو بال في علاقاتنا الاجتماعية ، وفي تفكير الناس . وتثور على زميلاتها اللاهيات بدون هدى ، الطامعات بالمال، الباحثات عنه في كل مكان . وتثور على الشاب العربي ، حتى الجامعي والمثقف الذي لا يفكر بفتاة الا وترتسم في مخيلته صورة سرير . وتثور على البيت لانه سجن كبير حتى ولو كانت قضبانه من ذهب ، ولانها تشعر به بيتا لاهلها وليس بيتا لها .

ابرز ما في هذه الثورة جرأتها . انها صراحة من نوع جديد لم نعهده في كاتباتنا العربيات : نازك الملائكة وصوفي عبدالله وفدوى طوقان وثريا ملحس ووداد سكاكيني : كلهن ، وغيرهن، عبرن عن امال المرأة او الفتاة والامها . ولكنهن لم يخرقن « التقاليد » التي خرقتها ليلى بعلبكي ، تقاليد الجنس بنوع خاص . فلم يهاجمن الرجل الذي يغمط « حتى » شريكته ويحرمها من نصيبها في متعة العلاقات الزوجية ، ولا اعترفن بان من احلام العذراء ان تجد من يرحق لعابها ويداعب نهديها .. كما فعلت ليلى بعلبكي.

انها صريحة لانها واقعية ، وواقعيتها تتعدى حدود ذكر الاسماء والمواقع فلا تنحصر واقعيتها في انها تذكر الجامعة الاميركية (مطعم فيصل ومقهى انكل سام في بيروت) . انها واقعية لانها عندما تذكر هذه « الحقائق »، يشعر القارىء انه يعيش في قصة حية ، ويرافق انسانا حميما ، فيسير معه في الشارع ، ويدخل مكتبه وصفه ، ويشاركه في ارتشاف القهوة ومحادثة الامواج ، سواء كانت تلك الامور عند « فيصل » او في « الانكل سام » او في اي مكان اخر . انها الحياة التي تتدفق من الكتاب ، مثلما تتدفق من لوحة الجيوكندا فتبرزها على باقي الرسوم الخالدة . انها الوقائع الصغيرة ، بل التافهة ، التي تحصل لك ولي، اما عند ليلى فهي حجارة فسيفساء ، صغيرة او تافهة لوحدها ، ولكنها رائعة اذا جمعت ومسحت بلمسة فنية كما يمسح الكاهن الطفل بالزيت .

الفرق بين هذه الواقعية الفنية عند ليلى وبين الواقعية «الريبورتاجية» عند عدد من اديباتنا الاخريات هو ان ليلى ترسم موديلا عارية بريشتها ،

اما الاخريات فانهن يصورنها بآلة التصوير . ليلى تضع حياة — جزءا من حياتها هي — بينما ترسم . انها ، مثلا ، تصور الحرمان ، حرمانها الخاص (شدة ابيها وامها معها) ومنع الحرية في التصرف، ولكنها تصور حرمانا آخر ، حرمانا خاصا ايضا ، بصورة ثابتة ، مختلفة . ليلى فقيرة . انها شبه محروبة ماديا . ولكنها تصور هذا الحرمان كأنه اكتفاء. تتحدث عن نفسها ، في الرواية ، كثرية ، كمليونيرة ، وتحتقر المال ، مع انها في الواقع تصف احتقارها المال الذي ليس لها، الذي هي في حرمان عنه. مثل ثان : تصف ليلى نهم الشباب لصدرها المشرئب ولساقيها المكتنزين. ووصفها هذا واقعي. ولكنه ليس مجرد تصوير فوتوغرافي، لان ليلى التي تعتز بجمال ساقيها (وتختبر ، كل يوم ، نهم الاعين الجائعة بهما) محرومة من الصدر الذي ينادي تلك الاعين لتعيره انتباها . ولابد ان ليلى تفكر في صدرها الضامر مثلما تفكر بالاقسام الاخرى من جسمها ، الجميلة عكس صدرها . ولا بد انها تشعر انها محرومة في هذه الناحية ، ان لم يكن دائما فعلى الاقل حينما تشاهد فيلما لجينا لولو بريجيدا ، مثلا ! ولكن ليلى واقعية حينما تتغزل بصدرها — التغزل المزعوم — مثلما هي حينما تتغزل ببشرتها او فخذيها او شعرها العابث ..

ثم ان ليلى واقعية ، وصريحة ، في ايمانها بالانسان ، وبالوطن ، وبالعروبة ، وبالاشتراكية . تخبرك ليلى بايمانها دون ان تتطفل عليك ، وتعرف انت مشاعرها الوطنية دون ان تكون حشريا . التزامها حي ، مثل واقعيتها . فلا تبذل عناء ولا تصطنع الاحداث لتخبرك انها تكره الاستعمار وانها تقدر بطولة مجاهدي الجزائر وبور سعيد . عواطفها الوطنية الانسانية تكمل باقي الصور الحية التي رسمتها في الكتاب ، وتلتحم معها بلا تكلف . فهي تشكو « مدير المؤسسة » التي تعمل عنده (اي صاحب الجريدة البيروتية الذي يتعامل مع الاستعمار) لانه يستلهم لندن وواشنطن في كتاباته مثلما تشكو حبيبها الذي تركها . وهي ترفض ان تبتاع «حمرة» باريسية يحول ثمنها الى رصاص يجندل ابطال العرب في الجزائر مثلما ترفض طلبات شاب لا تحبه . اي انك لا تحس ان ليلى تحاول ان تعظك وعظا قوميا عندما تحدثك عن احاسيسها القومية ...

وقد يوجه بعض اللوم الى ليلى لانها كانت حاسمة في وصف ابطال روايتها ، مع انها تركت لهم حرية الكشف عن انفسهم ، فجعلت السيء منهم سيئا من اول الرواية الى نهايتها ، وجعلت اللاهية او الغامض لاهية وغامضا دائما ، ولكن ربما يشفع لها ان مسرح روايتها التاريخي كان قصيرا جدا (عدة اشهر فقط) ، اي اقصر من ان تعطي لكل بطل مجالا حتى يبدل شخصية ، وحتى يبرز جوانب حياته الحسنة مثلما ابرز الجوانب السيئة ، وحتى ترعوي اللاهية عن لهوها ، وينجلي الغموض عن الغامض .

اما اللوم الاهم فنوجهه الى ليلى من ناحية اخرى. لقد مثلت لينا فياض (بطلة الرواية ، وشخصية ليلى بعلبكي نفسها كما تظهر في الرواية) دور الفتاة تمثيلا رائعا ، فهي كمراهقة تعلو على باقي المراهقات من حيث اتساع تفكيرها ، كانت تغيب احيانا في غياهب الخيال ، وتسبح في عالم الاحلام ، وتنسج من وقائع حياتها نظريات مطلقات ، الى ان تصدمها حقيقة ما (وقد تكون مجرد رؤية الحبيب او سماع صوته) فتعود الى الواقع ، الى العالم ، الى حقيقة كونها انثى حية ، امرأة ذات جسد وقلب ولحم ودم ، فتحن الى فراش يتمدد عليه رجل يمارس معها ما تدعوه «صناعة الاطفال» ، مثلت لينا فياض دور الفتاة التي فشلت كموظفة وطالبة وكاتبة وثرية وصديقة وابنة ، ولم يعد امامها الا ان تنجح في دور اهم : دور المرأة ... المرأة التي تريد ان تعطي — لا ان تعطي فكرا ولا فنا ولا عملا يدويا ولا مالا، بل ان تعطي طفلا ، طفلا تستودعه ما لديها من حب لزوجها وله وللحياة . الى هنا ولينا فياض (اي ليلى بعلبكي)موفقة ، بل ناجحة تماما .

ولكن ليلى تعود من انطلاقتها الرائعة التي بدأت بها (الانطلاق من المجتمع ونظرياته المهترئة والبالية) لتقع في الحلقة المفرغة ذاتها ، التي يرسمها المجتمع ، ولتدور فيها ، في تيه وضلال — مثلما تدور فيها باقي نساء المجتمع . وهنا خطأ ليلى بعلبكي ، الخطأ الاجتماعي لا الفني . لقد جعلت العطاء — عطاء الاطفال — هو حياة المرأة ، هو مبرر وجودها ، هو كيانها . « انا احيا » ، بالنسبة اليها تعني « انا اعطي » ، « وانا اعطي » تعني « انا احمل في احشائي طفلا : انا احبل » . وبذلك يتحول جهاد الفتاة الشرقية الى سعي لان ينتفخ بطنها !

لسنا ننكر على الشرقية حقها بالحب وبالحمل وبالتفكير بهما . ولكننا لا نريدها ان تنظر الى الحب والحمل بالنظرة نفسها التي ينظر الرجل اليهما بها . سر تعاسة المرأة الشرقية ان الرجل يعتبرها مجرد متعة للسرير ، واذا كانت المرأة تجارية في هذا التفكير ، فاي امل بالتحرر يبقى

لها ؟ ما كانت ليلى بعلبكي تحبل « انا احيا » ثورة على المجتمع لو لم تكن نظرة الرجل الى الانثى انها للمتعة فقط ، ولكن ليلى الثائرة على هذا الوضع نعود فتعترف به ، ونرجع الى بيتها ، بيتها الذي هربت منه ، ذليلة رافعة راية الاستسلام. لماذا ؟ لانها الاخرى تجعل شعارها « انا أحيا ، انا حبلى » ، لانها تنسى ان « صناعة الاطفال » ليست مبرر وجود المرأة اكثر مماهي مبرر وجود الرجل ، يمارس الرجل الزواج ولكنه لا يحيا للزواج . وتمارس المرأة الزواج ولكنها لا نحيا له ، وعلى المرأة ان نعترف بمجالات حياتها الاخرى للعطاء واللذة ، غير مجال الزواج الذي هو مجال واحد فقط للعطاء واللذة من مجموع مجالات كثيرة ، مثلما يعترف الرجل بوجود مجالات كثيرة في حياته للعطاء واللذة غير الزواج والى جانب الزواج.

« انا حبلى » لا نعني « انا احيا » بالضرورة . فليلى نفسها نصف صديقتها « الشامية » التي تحبل وتلد ولا تزال تتقيأ بعد كل مضاجعة مع زوجها . فهل يعني حبل تلك الصديقة انها تحيا ، الحياة التي تريدها ليلى بعلبكي ، ويريدها كل انسان يعتز بانسانيته ؟.

« وانا احيا » لا تعني « انا حبلى » فحسب . انها قد تعني ، ايضا ، انا انتج فكرا ، انا اكافح عدوا ، انا انصر ضعيفا ، انا اربي يتيما ، الخ.. نعم ، ان الانتاج او الكفاح او الاحسان لا يفترض الرهبنة والتنسك والعذرية الجسدية او المعنوية ، ولكن ، من جهة اخرى ، هذا الانتاج او الكفاح او الاحسان لا يفترض عدم الحياة والزوال والهباء اذا لم يقترن « بصناعة الاطفال » . وهذا ينطبق على المرأة مثلما ينطبق على الرجل.

ولو كانت الحياة هي الجنس – كما يفهم من نظرية انا احيا فانا احمل – ولو كان مجتمعنا يعيش في كابوس من الجنس – كما يفعل مجتمعنا اليوم – لما حق لنا ، والحالة هذه ، ان نلوم اجدادنا الجاهليين لانهم كانوا يئدون بناتهم ، ولكن علينا ان نعود الى ممارسة الوأد اراحة لمخاوفنا التي يزرعها هذا الكابوس في نفوسنا ، والتي تحصدها الفتيات الشرقيات علقما مرا ، في كبتهن ، وحرمانهن ، واحجبة الجسد والنفس .

وبعد ، ليلى بعلبكي امكانة كبرى . لن نسميها فرنسواز ساغان العرب ولا نريدها ان نكون فرنسواز ساغان العرب . نريدها ليلى بعلبكي ، وحسب . نريدها ان تحقق امكاناتها ، اديبة ومواطنة، فتاة تحب او تحلم بالحب وتتزوج او تحلم بالزواج ، ولكنها ، الى جانب ذلك ، تنتج فكرا او ادبا وفنا ، وتضع روائع من عيار « انا احيا » واحسن من «انا احيا» ويهم المؤرخ ان نصنع ليلى روائع كهذه او أحسن من هذه اكثر مما يهمه ان نصنع اطفالا !..

ولتحقق امكاناتها ، ولتتابع نتاجها الادبي الرائع ، على ليلى بعلبكي ان تعتبر نفسها انها على اول الطريق . وبمجرد ان تحسب انها قد وصلت الهدف او القمة تكون قد انتهت دون الوصول الى الهدف او القمة . ولا نريدها ان تنتهي لاننا نريد منها الكثير ، الكثير الجميل الممتع من نوع « انا احيا ».

انيس صايغ

شهيد من اليابان

قصة الصياد الياباني ضحية التجربة الذرية الامريكية في جزر بيكيني بالمحيط الهادي

الافق يحصب الفضاء بالشرر
بالهول والدمار والفناء
والنار مارد يطوق البشر
وتغتلي البحار بالدماء
يا أيها الرفاق
لا تنشروا في اللجة الشراع
لا تنصبوا الشباك للضياع
الريح تعدو خلفنا محمومة الهزيم
وفوقنا توهجت سحابه
سوداء كالهموم
والعاصف الذرى ينفث الجحيم
دجاه تقهر النهار
تطويه في غياهب الصراع
ويفغر المحيط فاه الرهيب
يميد بالرعود واللهيب
فتختفي الضفاف والتلال والتخوم
وتسقط الحياة من اقدام غائل رجيم

★

تفتحت ازهار «يازو» * في غلائل (الشروق
والورد في الميناء ينشر العبير كالمطر
والشمس تحضن البيوت والشجر
ويلتقي الرفيق بالرفيق
على تحية الصباح في الطريق
وغيب العباب وجه قارب عن العيون
يقل صيادين يرتادون مائج الحصون
قد زودتهم طيبها عيون زوجة وطفل
ورطبت جباههم انامل البنات بالقبل
وحين صاح حارس الرياح : فلنعد
ودوت الافاق بالرجام والشهب
لم يبق فوق الموج غير لاهب الرماد
وثار في المحيط مرجل غضوب
يمد أذرع القتام والخطوب
ولعنة مشبوبة الاحقاد تزرع الكلام

يا ويلتا لصائد يجالد الرياح
يمضي على وجه العباب عاني الجراح
وصاحباه يضربان في مجاهل الخضم
والموج عارم اشم
تذرو عليه السحب جاحم الحمم
وزوجه هناك ترقب الغروب
ويرقب الصغار بالحنان لحظها الكئيب:
الليل خيمت ظلاله ولم يعد
وعاد كل غائب لاهله ولم يعد
وغلق الجيران بابهم ولم يعد
اطفاله اغفوا على انتظار
ولم يحن مآبه للدار
وكان لا يطيل غيبته
ولا يضل في الظلام رحلته
كم عاصف اذل كاهل الرجال
وما هوى شراعه ولم تهن
شباكه وغاد يحمل السلال
عيناه توقدان عتمة الظلال
وتسكبان في دمي الحنين والسلام
وساعداه يحملان طيب الطعام
والعطر والشعاع والصفاء
على مشارف المساء
ترف من جدار عشنا الصغير
وكان دافق الوداد ساعة اللقاء
لكنما لقياه هذا الليل لم تحن

★

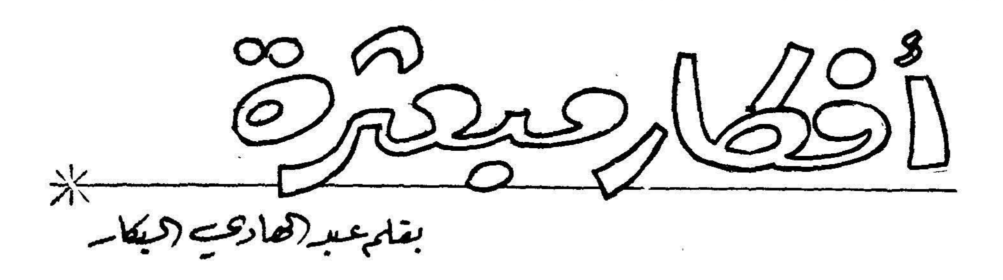
يا رفقتي ولم يحن عود الحبيب
اسرت به الرياح للمغيب
لم يحتضن بناته الثلاث منذ ذلك الصباح
لم يشجنا هتافه الطروب في الغروب
وخالف العذاب والدموع
وجمرة الاوجاع في الضلوع
ثيابه على الصوان ما تزال
شباكه على الجدار ما تزال
وهمس خطوته
في ردهة الكوخ الوديع وقعها
وخفقة اليدين في يديَّ رجعها
وطيب نظرته
في أعين الصغار ما تزال
وكان حينما هوى يحن للبقاء
يجالد الجراح يغلب الفناء
كأنما تشوقه الرياح والانواء
والعود بالصيد الوفير في المساء
كأنما يستاف نفحة البحار
وينشر الشراع فوق قمة التيار
واودعوه بين صحبه العناة في المدينه
والموت ظله الكئيب رابض على السكينه
وما خبت انفاسه الحرار
وما انتهى عذابه بالنار
ويلاه ، ذاب شعره ولم يمت
وغاض ماء وجهه ولم يمت
وحين مات لم يكن به رمق
يصد عنه غائل الحريق
واسّاقطت قبل الوداع منه كلمتان
« لا موت بعد اليوم بالغبار »
وكان آخر الضحايا في تجارب الدمار

★

يا اصدقاء الشمس ، يا طلائع النهار
يا ايها العمال في شواطيء البحار
لترتطم تجارب الدمار
بصخرة الاصرار :
لن يسقط الاباء من محارق الرماد
لن يرجع الابناء تائهي الوجوه
لن يطفيء الجلاد نضرة العيون
لتنحطم على جداركم يداه
من قبل ان يحطم الحياه
ويغصب الاطفال بسمة الشفاه
يا أيها الاعلون بالسواعد الشداد
الزاحفون بالجوانح الوضيئة الحرار
يا أصدقاء الشمس، يا طلائع النهار

القاهرة **حسن فتح الباب**

*ميناء صغير بالقرب من طوكيو موطن الصياد الياباني واسرته



أفكار مبعثرة

بقلم عبد الهادي البكار

اعود من بيروت هذا الاسبوع وبي من حب الحياة والاخرين اطنان وأطنان . ان الانسان الفنان – أو غير الفنان – يصل به تفاعله الشديد بما حوله من ناس وامكنة ومشاكل احيانا ، الى درجة يشعر فيها انه يكاد يتمزق من الضجر والوحدة والفراغ والملل ، ذلك ان الاستمرار على ممارسة العيش في لون واحد – سيء او جيد – والتعود على استهلاك الحوادث الواقعة ، في الحالة الثابتة التي اعتيد العيش فيها ، انما هو الامر الخالق ذلك الشعور بالسأم القاتل ، المحرق لكل اخضرار . ومن هنا نشأت قيمة الارتحال والسفر بصورة عامة . ومن هنا ايضا نبت نزوع الانسان القاصر عن القيام برحلة ينتقل فيها من ارض الى ارض : الى الحلم والتخيل يمتطيهما في اسفاره البعيدة الى العوالم الضبابية . والهدف الاول من هذا الارتحال ان هو الا التبديل للصور المحيطة ، او تغيير لماهية هذا المحيط .

لقد ابدلت خلال الاسبوع الماضي الصور التي اعتدت ان احيا وهي حولي ، تلك الصور الثابتة : البيت .. شوارع دمشق ... الاذاعة – مكان العمل ، بصور اخرى واقعية ولكنها مشوهة ، فعشت في احد المستشفيات الكبرى الى جانب مريض ما ، سبعة ايام كاملة ، رأيت فيها انسانا يُبتر ساعده ، وفتاة يعالج قلبها مبضع الجراح فينزع شريانا ، ويثبت الجرح المنفتح بخيط دقيق وابرة ، وكهلا شقت جمجمته ، وفتاة صغيرة تقيح دمل في وجهها، فحكته باصبعها ، فأحدث هذا الحك ثغرة فيه قرب المنخر ، تحت العين ، – ثغرة هي الى منظر مغارة معتمة رطبة اقرب – فجيء بها الى المستشفى ليخلع الجراح من كتفها ومن بطنها قطعا من الجلد ، فيرقع الوجه المشوه الذي كادت معالمه الانسانية ان تضيع .

عشت سبعة ايام الى قرب هذه الصور المريضة ، وحمدت القوة العليا المخيفة – من ثم – الف الف مرة .

ان الحياة فن .. فن صعب التفاصيل ، دقيق المقومات ، غير ان مبدل الصور المحيطة – بين حين وحين – يكاد يكون فنانا انجح من غيره في هذا المضمار . لقد تألمت مع المتألمين ، وتعذبت باخلاص مع المعذبين من مرضى الجسد ، وجذب صراخهم وأنينهم من عيني الكثير الكثير من الدموع ، الا انني عدت اليوم الى غرفتي القديمة ، الى صوري العتيقة ، لالفي ان الزهور متفتحة ابدا ، وأن العبير منتشر ابدا ، وان الحياة جميلة حقا ، وأن المحبة هي التي يجب ان تسود لان الزمن قصير مهما طال في الامتداد، ومهما توغل في ظلام البعد .

عدت الى الصديق الذي اساء ، فلم يتحرك في صدري هواء الموجدة او الحقد .. وعدت الى الناس جميعا ، فاقتنعت بكل ما يفعلون ويصنعون بكل احكامهم وتقاليدهم العامة . التقاليد !انها اشياء ظاهرية سطحية ، ومن السهل ان اوافق عليها ، وأن اقتنع بكل هذه النظم المصنوعة الموضوعة . ذلك من اجل سعادة الاخرين ، ومن اجل رضاهم هم ، ومن اجل ان اعزز شعورهم بالسيادة والانتصار . وعرفت انها مهمة الفنان التي تتكشف في : أن عليه ان يؤمن بوجوب ممارسة جميع التجارب ، او اكثرها على الاقل مهما كان نوعها ، ليبرهن ، او ليعرف اولا ان الحياة جميلة حقا بكل ما فيها ، فيبرهن للآخرين فيما بعد ان الجمال كائن موجود في كل الدقائق والزوايا .... ان الحياة هي الجمال الكلي الاعلى ، ما دامت العافية قائمة ، والصحة لا يشوبها المرض او التشويه . ذلك حقيقي مهما اختلفت الصفات المادية للفرد ، ومهما كانت صفة هذا الفرد في مجتمعه ، تلك المهمة التي تفرض عليه بشكل طبيعي ان يحقق التناسق الذهني في هذه التجارب جميعها .

عدت الى البيت القديم ، والام والاب والاخ والناس، لأجد ان كل شيء قد ولد مرة أخرى ، ومسحت عليه اليد الخفية بالنعومة والرقة والوضوح ، ولأسمع صياح الاطفال الصغار – هذا الصياح الذي كان يزعجني من قبل – فأكتشف انه ايضا غناء قوي مطرب ورائع . عدت احمل على كتفي مسؤولية العمل الدائب المخلص . مسؤولية مشاركة المناضلين المخلصين جهادهم في سبيل المحبة الانسانية الشاملة . عدت الى دمشق ، والدار القديمة الفقيرة باللمعان والزهو ، لاعلن لرفاق الالم ، الفنانين الحقيقيين في بلادي ، أن مهمتهم صعبة ، ولكنها لذيذة لانها هي المهمة الاولى . وكثيرون كثيرون اولئك الذين اكتشفوا من قبل أن الجمال العام موجود لدى كل الاشياء ، بين سطور الكتاب، في ثنيات وريقات الزهرة الصغيرة ، في النجوم ، بين اصابع البيان ، حول شرايين الكمان ، وفي

الحركة العامة . وفي النضال الطبيعي من اجل خلق الحياة الافضل . غير ان العقل البشري كان من الضمور بحيث انه لم يكن ليتمكن من المساهمة مع المكتشفين الفنانيين الاولين ، الا ان هذا العقل البشري قد تفتح اليوم ، وأصبح من واجب الناس العاديين أن يعترفوا بعبء الواجب الاكبر الذي يؤديه الفنان للحياة ، اي ان عليهم ان يفسحوا له الطريق ليقف في المقدمة ، ويتبوأ العرش الرئيسي . ولكم تمنيت لفان كوخ ان يبعث من جديد ليشعر باللذة العارمة وهو يعاصر العقل البشري يتفتح عن ضموره المرعب ، وكم تمنيت هذا البعث ايضا لبيتهوفن ومي زياده وغاندي وجبران خليل جبران وبخنسكي وسيد درويش ودوستويفسكي ونيتشه ، الا ان العزاء ، كل العزاء ، في هذه القلة الناهضة من الفنانين الحقيقيين الناشئين من الان فصاعدا .

اقف هنا قليلا ، لاعرض السؤال الكلاسيكي الجاف الذي كثيرا ما يطرحه الناس العاديون ـ وفي عملية الطرح بالذات كفر بالجواب الايجابي ـ : (رسام .. يعني ماذا ؟ فن .. يعني ماذا ؟ فنان . . يعني ماذا ؟)

وان الجواب الصحيح ، هو الغموض الازلي الذي لا يفسر وانما يفهم . غير اننا نستطيع ان نقول في تواضع ، ان الرسام مثلا هو الذي يكتشف ، او يكشف للآخرين ان (المقشة) المسكينة المتروكة في ذلة في زاوية ما من زوايا الدار ، فيها من الجمال الكامن ما في باقة الورد . ان فيها روعة اللون وسحره وتأثيره ايضا . وهكذا يغدو في امكان المبتعد عن حقول الورد مثلا او باقاته ، ان يعيش الى جانب الجمال بشكل مستمر .

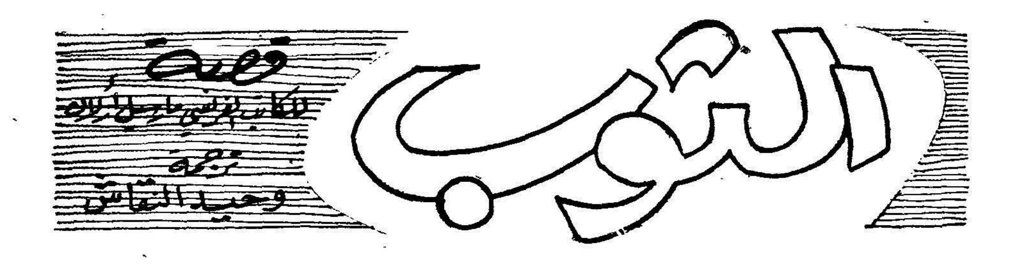
هنالك لوحتان لفان كوخ تعتبران من اعظم ما انتجته يد الفنان النزق من حيث اللون : (الكرسي الاصفر) و (الحذاء) . ان الناس العاديين الذين كانوا يجلسون على ذلك الكرسي المهترىء وينتعلون مثل ذلك الحذاء البني اللون ، لم يكونوا على علم بالكمية الجمالية التي كان يحتويها كل من هذين الشيئين البسيطين ، حتى اذا ما جاء فان كوخ ، كشف الغطاء المنسدل . وفي الفترة الاولى لم يكن فان كوخ ليدرك هذه القوة الجمالية الخارقة الموجودة لدى كل الاشياء في العالم ، الا انه عندما انتقل من اوفير الى لندن ، من صوره القريبة الثابتة ، الى الصور البعيدة ، وبدل ما حوله الى حين ، وذهب ليكتشف (طريق الخلاص) ـ كما يعبر عن ذلك Colen Welson في كتابه (اللامنتمي) ـ فتوصل اخيرا الى ما توصل اليه كيركغارد من قبل : (اما وأني قد نفذت الى قلب الانسانية فاني لم اجد شيئا في هذا الكاريكاتور الصامت) .. عاد كوخ الى صوره القديمة يلهث شوقا وهو يحمل راية الاكتشاف العظيم : ان العالم الجميل هو الدقائق التي حولي .

سوريا ـ دوما **عبد الهادي البكار**

شجون

انا من أنادي غدا ان كبرت
غدا ان هرمت
وأغلق بابي عليا
انادي ابنتي ام انادي بنيا
وليس لدي سواي
وكان خيالي سخيا
وكان كتابي وفيا
سؤال يدوي بقلبي
ويبهت في مقلتي
ويظلم روحي انتحار السنين
وتذبل دنيا من الياسمين
على منكبيا
غدا ان كبرت غدا ان هرمت
ورحت اعد السنين
سنين حياتي
واسبح في ذكرياتي
لمحت شبابي بزهو جمالي حزينا شقيا
ولكن برغم الشقاء تراه بكنز الجمال غنيا
اذا ما بكى خلت دمع الربيع يهل سخيا
اذا ما تألم غنى المآسي لحنا سجيا
غدا ان ذبلت وفارق نفسي سحر الجمال
وزهو الشباب
شعرت ببؤس اغترابي
وكان شبابي طلق المحيا
ينور حزني بألف شعاع
ويغمر بؤسي حبا نديا
شبابي واذكر همس النسيم
ولين الحرير
ووهج الثريا
وتسأل في مقلتي الدموع
لماذا أطلت رثاء الشباب
دعيه يمر بغير نحيب
دعيه يمر بغير عتاب
دعيه فما زال هذا الشباب
يرف رفيفا كسحر مذاب
كأن لم تهوم عليه الهموم
كأن لم تبادر اليه الصعاب
دعيه ولا تجرحي كبره
ولا تفضحي سره المغلقا
كفاه من الحزن ان يحرقا
كفاه من البؤس ان يشرقا

عزيزة هارون



لم نعرف شيئا حتى اللحظة الاخيرة . انه ثوبها ، ثوبها على الخصوص هو الذي خدعنا . منذ خمسة عشر يوما والحديث يدور حوله . فـان توصي في المدينة على ثوب عروس ، وان تذهب الى هناك اربع مـرات من اجل ((البروفات)) ، وان تحتاج من الخياطة ان تحضره بنفسها ليـلة الزفاف اتية بالقطار ثم بالعربة ، لو ان ذلك حدث من فتاة اخرى ، لاثار العجب . ترى هل نسيت الى هذا الحد ، في أقل من عام بعد مـوت توماس ، حبها الاول ، حبها الجميل ؟. لا بد وان خيال الفتى سيخرج من قبره المجهول ليلة العرس ليشدها من قدميها ويقول لها : ((لقد تحاببنا منذ الطفولة . وكنا ، ونحن خطيبان ، نشكل اجمل رفيقين في القريـة واذ كنا نمر في امسيات الصيف جنبا الى جنب امام الدور ، نكـاد نتلامس تقريبا ، كان الناس يبتسمون على عتبات المطابخ في الظلام، ملوحين بايديهم وهم يتهامسون : ((هاهما العاشقان .))

وقبل حكاية الثوب ، كان البعض ما زالوا يدافعون عنها . وقد كـانوا يديرون لها ظهورهم ـ ولم يكن ذلك بوصفهم اصدقاء لتوماس ـ منـذ اليوم الذي جاء فيه شخص اخر ليجلس على مصطبة دارها مكان الراحل، شخص غريب ، احد رجال الشرطة . ولكن الرجال العجز كانوا يقـولون وعلى محياهم ترتسم امارات الطيبة : ((حسن . لقد انتهت الحرب : يجب على الانسان ان يعيش في الحاضر ، ولا يحيا المرء مع ميت . ثم ان الاب يمكن ان يختفي. فماالذي ستؤول اليه اذا ما صارت وحيدة ؟)) غير انهم كانوا يضيفون : ((ومع ذلك فقد كان بوسعها ان تنتظر قليلا .))

ولم يفهم أحد شيئا من هذه العجلة ، او انهم كانوا يترددون في الفهم. وكل ما ارجعوه في الماضي الى الحزن ، بدا انه لم يعد ينبع الا من اللامبالاة: فبعد موت توماس ظلت حبيسة حجرتها لاسابيع طويلة ، حتى انه بعـد ذلك لو تصادف ان التقى بها احد وحدثها عن الميت، لكانت تجيب ببطء، جامدة في مكانها ، والذهول باد عليها . وفي الزيارات الاولى للشرطي كانت بعض الشكوك ما زالت موجودة . فالحقيقة انه عندما يأتي شـاب كل يوم لزيارة فتاة يافعة ويجلس بالقرب منها ويتحدث مع والدها ، فان المرء ليدرك ما تعنيه تلك الامور . وكل مساء كان الشرطي الممتلىء يـأتي على الدراجة ويجلس ، ويتكلم حتى مهبط الليل . غير ان الخبر انتشر عن طريق اعلان الزواج في الكنيسة . والان ، ها هم يستعملون طرقـا كانت تستعمل في زمن راح ، وهذا الثوب الموصى عليه في المدينة ، والمسرح الذي سيقف عليه المغنون واغصان الزينة ، كل هذا الذي كان يتم ترتيبة في الفناء منذ ليلة الزفاف ادى الى تأكيد الخبر .

ومن الفناء الى المطبخ ، ومن المطبخ حتى الحجرة ، كانت تمر لوسى ، قائلة لكل واحد كلمة ، مادة يدها وقد بدا عليها انها توافق على كل شيء وتعجب بكل شيء . وفي الايام السابقة لم يفت الفتيات اللاتي في مثل سنها ان يقلن : ((انها تستطيع ان تدعونا ، ولكننا لن نذهب)) . وقد كن هناك، كلهن تقريبا ، يدفعن مائدة او يضعن الازهار في وعاء ، وكن عـلى الخصوص يرقبنها ، هامسات ، موزعات بين الابتسام والامتعاض . وفي عربات صغيرة حضر بعض الاقارب البعيدين من القرى المجاورة . وكانت مجموعة من الاطفال ـ كنت أنا بينهم ـ على عتبة الفناء ، تحملق فاتحـة عيونها على آخرها . واحيانا كانت لوسى تلاطفنا على خدودنا اثنـاء عبورها ، فكنا نتراجع قليلا ، ولكننا كنا نتابعها بنظراتنا : كانت كبيرة رخصة ، ذات عينين معتمتين في وجه طويل بيضاوي. وكنا نعجب بخفتها ، وهدوء نبرتها ، وخطوتها السريعة : وقد كان من الممكن ان يقال انها لـم تكن موجودة في هذا الحفل الا بصفتها مدعوة ، او احدى القريبات ، وان ما سيحدث في اليوم التالي لم يكن يعنيها الا قليلا . وفي حظيرة كان جسد خنزير مذبوح وممدود على حامل ينشر رائحة دافئة مائعة . وكـان الجزار ذو الاذرع الحمراء يخرج امعاء الحيوان ويرتبها في اناء .

وامام المنزل ، كان عجوز ضعيف البنية ، يبدو عليه المرض والخوف ، هو والد لوسى ، متكئا على عصا . قالت له احدى الجارات :

ـ اذن ، فالحفل سيقام غدا !

ـ نعم ! نعم !

تمتم العجوز بذلك ، وقد بدا عليه الضيق ، ودون جدوى بحث عـن كلمة مما يقال في المناسبات ثم دخل الى المطبخ . واضافت الجارة :

ـ الحفل ، انهم يستطيعون القيام به فلديهم كل الامكانيات

ثم اضافت وهي تغمز بعينيها :

ـ لن تتبقى ((لجنديهم)) الا الفضلات .

وبدأ نوع من الحمى في الانتشار عند المساء . كانوا يترقبون العربة، وكانوا يتكلمون بشكل اكثر قوة ، وفي بعض الاحيان كانت تنفجر ضحكة. وشرعت فتاة في الدندنة ، وفجأة سكتت واحمر وجهها اذ كانوا يغمزونها من مرفقها : كانت لوسى قد ظهرت . وقالت لها لوسى :

ـ اتذكرين عندما كنت نغنين في المدرسة : ((في الاماكن القريبة وفـي الغابات ؟))

ومع ذلك فيبدو لي انه كان علينا ان نكون حذرين . هذه النبرة المستخفة التي يشوبها قليل من العمق ، وهذا النشاط الذي لا ينقطع،ولكنه غير ذي هدف محدود ، وهذا الشحوب على الخصوص ، الذي كانت تبرزه تلك البقع الوردية على الوجنتين ، لم يكن كل ذلك ليتلاءم مع لوسى التي ستصبح عما قليل زوجة . ثم الحادث المفاجىء الذي وقع لها ، الم يكـن من الواجب ان يكون بمثابة تنبيه لنا ؟ لم تكد الفتاة تخطو خطوتين حتى وكان والد خطيبها القديم يمر في الشارع في نفس اللحظة ، قامت لوسى بحركة تراجع ، ثم تقدمت وقالت : ((مساء الخير)) ، قالتها في صوت حار

ومكتوم في وقت واحد، كما لو كانت تريد ان تقول : « سوف ترى : كل شيء سيتضح . » ومر الرجل دون ان يجيب وحتى دون ان يدير رأسه. ولم تبد عليها الحيرة لذلك الا بصعوبة . لقد كنا هناك ، ولم يفتنا شيء من ذلك المشهد .

ووصلت العربة التي كانت تحمل الخياطة ، وهي سيدة ممتلئة لها عينان كعيني لعب الاطفال ، تلف حول رقبتها « ايشاربا » في قلب الصيف ومعها ثوب العروس ، في صندوق كبير من الكرتون . وهناك بعيدا في احدى زوايا الشارع ظهر الخطيب على دراجته ، كما تعود في كل مساء بعد الانتهاء من جولته . منذ زمن طويل ، على قدر ما تستطيع ان تحفظ ذاكرتي ، كان رجال الشرطة يخيفونني على الدوام . ليس هناك غيرهم من تتوفر فيه هذه العمودية في الشكل ، وتلك الكبرياء ، ثم هذه الثقة الهادئة بالنفس . لم يكن ذلك الرجل قد تجاوز الاربعين الا بقليل . كان ضخما ، قويا ، منتفخ البطن قليلا . ولم يكن لعمل الحزام والجراب الا ان يزيدا هذا البروز الخفيف في البطن اكثر . كان سالفاه حليقين ، وله عينان مضيئتان في وجه زيتوني . وكنا نفهم جميعا ان فتاة ، وفتاة جميلة ، يمكن ان تكون فخورة اذا ما تأبطت ذراعه ، واكثر من واحدة من رفيقات لوسى كان عليها ان تشعر بانها قد حرمت من حقها الشخصي . كنا قد تجمعنا حول العتبة من كل جانب ، اما هو فقد ترجل عن الدراجة واسندها الى المصطبة ، ثم تقدم الى المطبخ رافعا قبعته ، والصق على خدي لوسي قبلة ذات رنين . وقال :

ـ بوسعنا اخيرا ان نبدي اعجابنا بهذا الثوب الجميل .

ولف ذراعه حول خطيبته ، وظل محتفظا بها ازاءه ، غير انها تخلصت برفق ، تخلصت : لا ، لقد بدت وكأنها تنساب خارج الوثاق . وقالت له :

ـ لم يحن الوقت بعد . غدا .

ـ ولكن لي رغبة في رؤيته ، انني متعجل ، اذ علي ان اذهب الى ودفعتها امامها للصعود الى حجرتها . وقال الخطيب :

متخذا منا شهودا على رغبته الشرعية في الاستطلاع . اما هي فقد اعادت بهدوء :

ـ غدا ...

ونظرت اليه للحظة ، وهزت رأسها ، ثم امسكت الخياطة من ذراعها ، ودفعتهاامامها للصعود الى حجرتها وقال الخطيب :

ـ حماي العزيز ، أن للسيدات اهواء ، ولكن لهن الاحترام .

وجلس مفتوح الساقين ومرفقه على المائدة وجذب منا اثنين وحطهما وجها لوجه على فخذيه الفليظين . وقال :

ـ اذن ، ايها الكسالى ، سيحين في الحال دوركم .

وهبط الليل ، وغادرنا الشرطي ، ولكننا لم نكن نفكر في الرحيل . وكانوا قد اشعلوا المصباح المعلق، ووضعوا على المائدة ثلاث فطائر كبيرة بالبرقوق ، وبعضا من شراب الليمون وبعض الفواكه . ولم نكد نلمس تلك الاشياء ، وكانت آذاننا مرهفة لاقل ضجة تأتي من السقف ، ولم تكن تسمع اي همسة . وذهبت احدى الفتيات مرتين لتطرق باب لوسى .

ـ لا تدخلي ، انني قادمة . دقيقة .

واخيرا انفتح الباب ، وسمعنا ، على السلم ، وقع خطى سريعة ، اصبحت ، فجأة ، أشد بطأ . وظهرت لوسى ، بيضاء تماما ، من قمة رأسها لاخمص قدميها . تراجعت لحظة ، امام نظراتنا ، بينما سرى لون من الرعشة في وجهها حتى وصل الى رقبتها . ثم تقدمت الى وسط القاعة ، وازاحت الاذرع ، وقالت :

ـ ها هوذا !

وظللنا في البداية بلا حراك .

وصاحت احدى الفتيات : ـ

ـ حسنا يا عزيزتي .!

ومر بعض الوقت لم تسمع غير كلمات الاستحسان ، واطراءات اياد تداعب الثوب ، وكانت هناك بسمات مغتصبة او اخرى مسحورة . وكان يبدو على لوسي انها استعادت طمأنينتها ، كانت تتأهب للرد على الاسئلة وتدور حول نفسها وتستسلم للتقبيل المصحوب بالمدائح . ثم جلست لوسى بيننا ، وفي هذه المرة ، افرغ كل منا كأسه ، واكل نصيبه من « الجاتوه » .

ـ الن يدركك الخوف غدا في الكنيسة ؟

وابتسمت دون ان تجيب . انني لارى صورتها تعود لذهني : عذبة ومتكتمة ، منتظمة الملامح ، وربما قويتها الى حد ما (كنا نعرف فتيات أشد منها جمالا) ، ثم فجأة تتحول الى انسانة متوهجة ومبتهجة ، ولكنها ايضا اشد تكتما في توهجها . وظلت على هذا النحو حتى اللحظة التي ابتعدت فيها جميع صديقاتها ، واحدة تلو الاخرى ، او اثنتين اثنتين . وعندئذ قامت واقتربت من مجموعتنا الصغيرة من الاطفال ، وكنا جلوسا امام الطرف المنخفض من المائدة

وقالت اذ هي منحنية نحونا :

ـ حسنا ، هل نجحت في صنعه، ثوبي ، ثوب زفافي ؟

لست ادري ما الذي اهتدينا الى قوله ردا عليها . لم يكن يبدو انها تسمعنا . وازداد انحناؤها فجأة ، وهمست :

ـ هل تذكرون ، توماس ، هل تذكرونه جيدا ؟

ولكن ، اذ كانت الخياطة تقترب بدورها ، استانفت لوسى

ـ اذن ، هل تجدونه جميلا ؟

ثم قبلتنا . وقالت لنا الى اللقاء ، ووصلت الى حجرتها .

كيف لنا ان نتأخر اكثر من ذلك؟ انها لمعجزة الا يأتي للبحث عنا احد . لقد رأينا الثوب الجميل ، وتذوقنا اطايب الحفل . ومع ذلك فقد مكثنا غير قانعين . وعندما انفتح الباب على الشرطي الذي كان عائدا من « دورينه » ، استحوذ علينا فرح جديد .

أكان ذلك بفعل الحرارة ، أم التعب ، أم انه بكرم فائض قد استجاب لما أملته الظروف ؟ كان نفسه قصيرا ، وجبهته تقطر ، عندما ارتمى على مقعد وفك حزامه .

ـ يا لله يا حماي العزيز ، كم هي رائعة في رشاقتها الاشياء الطبيعية في بلدكم !

ثم اضاف وهو يفرك يديه :

ـ وزوجتي الصغيرة ، الن اقول لها طاب مساؤك ؟

فنادى الاب :

ـ لوسى !

ومن الحجرة ، اجاب صوب مختنق :

ـ نعم .

وسمعنا باب دولاب يصر ، ثم عاد كل شيء الى الصمت .

لطالما تساءلت عما دار عندئذ في رأس الرجل الممتلىء الذي كان ينشف جبهته ، او عما دار في قلبه . اي غريزة قد انذرته ، اي حدس، اي تنبؤ . آه ان كل حياة ، حتى اشد الحيوات تواضعا ، لها اشعاعها القدسي . ثم ان خطيبنا هذا لم يكن مجرد جندي بسيط ، كان معاونا في مركز الشرطة . لقد قام فجأة ، وجرى ، وتسلق السلم . وسمعنا صرخة، وضوضاء صراع ، ثم صوت شيء يتدحرج على الارض ، ثم انات وشهقات يسيطر عليها صوت حنون وقوى .

وكان الاب ، فاقد الحيلة عند نهاية السلم ، ينادي :

ـ لوسى ! لوسى ! ماذا جرى ؟

ونحن ، وقد جمدنا في مقاعدنا خوف مضطرب ، كنا معقودي الايدي، فاغرى الافواه ، نتساءل عبثا بنظراتنا .

وبدأ ان الصمت مع ذلك قد عاد هناك . كان الشرطي يتحدث بصوت خفيض ، واحيانا كنا نعتقد ان الفتاة ترد عليه بتنهيدة او بهمسة . ودام ذلك طويلا . ثم بحذر شديد ، نزل الشرطي على اطراف حذائه الى المطبخ. وما بدا لنا وجهه اشد اصفرارا مما كان عليه حينئذ . ورانت على عينيه غشاوة رطبة . ومد للعجوز زجاجة صغيرة ، وقال :

ـ يجب ان يحفظ هذا دائما في مكان مغلق بالمفتاح ، انه للفئران وليس للبشر ، وفي بعض الاحيان يخدع المرء .

ثم نشف جبهته ورقبته ، ومشى عدة خطوات في الحجرة ، وقال وذراعاه متشابكان وهو يطلق تنهيدة طويلة :

ـ آه ! ان ذلك لمفهوم .. مفهوم تماما ..

ولكنه ، وهو يواجه ملامح العجوز المفزوعة ، أضاف :

ـ اذن ، لقد انتهى ذلك ، فلنبعده عن رأسنا . والان لنتركها تنام .

واوثق حزامه ، وحاول ان يطلق ضحكة قصيرة ، واستنتج : ـ

ـ غدا ، يا حماي ، سوف ترى، ستجري الامور على ما يرام .

غير ان الزواج لم يتم في اليوم التالي ، فقد كانت لوسى ما زالت تعاني . لقد عقد بعد ذلك بخمسة عشر يوما . وقال البعض « هـذا مؤسف » . ولكن اغلبهم قالوا « لا يجب ان نفرط في التساؤل عن هذا الموضوع . »

مارسيل ارلان

ترجمة : وحيد النقاش

مُناقشَات

الادباء المغمورون

بقلم سامي الكيالي

تفضلت اديبتنا الكبيرة السيدة وداد سكاكيني فأشارت اشارة مرموقة الى المحاضرات التي القيتها في معهد الدراسات العربية والتي احتواها كتابي « الحركة الادبية في حلب » وقد اخذت علي ان اهمل الإشارة الى الاستاذ العدناني ـ وهو اديب موهوب له عناية وبراعة في القصة والشعر والدراسة الفكرية ، مع اني ذكرت المغمورين ، والقيت ضـوءا سـاطعا على وجودهم الادبي الموهوم »

واحب قبل ان اعقب على كلمتها ان اشكرها اعمق الشكر على تقديرها البليغ . ولا غرو، فهي الاديبة الرصينة والناقدة البارعة التي تعـرف قيمة الجهد الادبي الذي يبذله الباحث ولا سيما حين يتحدث عن فترة من الفترات التي يعتورها الغموض .

اما عدم الماعي الى ادب الاستاذ العدناني ، وهو اديب وشاعر وقصاص، فأنا اول المعترفين بادبه وفضله ، وقد كتبت عنه وعن كتبه اكثـر من مرة .. وسيدتي لا تجهل ـ وهي الحصيفة اللبيبة ـ ان الاستـاذ العدناني فلسطيني ، وقد نزل حلب ضيفا مكرما منذ الكارثة المشؤومة ... وله مقامه السامق في قلوب اصدقائه وتلامذته الكثر .. فهل استطيع وانا اؤرخ الحركة الادبية في حلب منذ منتصف القرن التاسع عشر الـى منتصف القرن العشرين (١٨٥٠ ـ ١٩٥٠) ان اسلكه مع ادباء حلب ؟

كأني بالسيدة الفاضلة تريدني ان اصهر الادب الفلسطيني بالادب الحلبي ... تماما كما يريد الاستعمار ان نصهر اخواننا الفلسطينيين في بوتقة البلاد العربية ليصبح وجودهم عدما ، وتصبح قصتهم وهما من الاوهام !

وتعلم سيدتي حق العلم ان للادب الفلسطيني ميزاته وخصائصه ، وان لفلسطين العزيزة ادباءها الاحرار وقد انتشروا في جميع الاقطـار العربية .. وجميعهم يأبون ان يتخلوا عن « لونهم المحلي » بل يرفضون ان نسلخ عنهم رداءهم الاصيل ـ رداء فلسطين العزيزة الموشى بالدم ـ

والغريب ان هذا اللوم الذي وجهته السيدة الي ـ وجهته في نفس الكلمة الى الدكتور ناصر الدين الاسد الذي القى محاضرات في نفس المعهد عن زملائه ادباء فلسطين ، فذكر الاستاذ عدناني عرضا ولم يتناول ادبه بالبحث والدرس .

وقد يكون الحق معها في توجيهها اللوم الى الدكتور الاسد . وانـا اشاركها هذا اللوم .. اما ان توجهه الي فهو لوم مقصود .. واظـن ان اديبتنا الكبيرة قد حشرت اسم الاستاذ العدناني حشرا في كلمتها وهـي تريد ان تغمز من قناة ادباء لا تريد ان تعترف بادبهم !

وانا لا اريد ان اقول ان هناك « بواعث ذاتية » جعلتها ان تضيـق بالحديث عمن ذكرتهم في كتابي ، بل اريد ان اوكد لها ان هؤلاء المغمورين الذين اعتبرت وجودهم وهما واخذت علي ان اسلط عليهم الاضواء ـ انهم يتمتعون بخصائص ادبية ثمينة .. وانه من العقوق لتاريخ الادب ان لا اشير اليهم هذه الاشارة الخاطفة ..

وبعد ... فهل تريد سيدتي الاديبة الاربة ـ هل تريد من انسـان يكلف بتاريخ الحياة الادبية خلال قرن كامل وان يكتسب بأسهاب عـن الشوامخ والاعلام ، حتى اذا جاء الى الفترة الاخيرة التي يعيش فيخضمها

ويرى هذه البراعم الجميلة ، والازهار ذات الاعراف الطيبة ، والغصون المخضوضرة اليانعة التي نلمح في غضارتها بشائر الربيع ـ ربيع ادبنا الجديد ـ هل تريد مني ان الوي وجهي عنها .. وليس هذا فحسب بل تريدني ان ازدريها وان ادوسها !

وفيم هذا اللوم اذا وقفت معها لحظات اتأمل غضارتها واستجلى محاسن هذه الزهرات الجميلة التي ستعطينا غدا اطيب الثمرات ..

لا يا سيدتي !

لم يصل بي العقوق الى هذا الحد ..

بل من الكفر ان نتخطى ادب هؤلاء الشباب ، ادب غدنا الباسم ، الادب الحي ، القوي ، المتطور ، الزاخر بشتى الوان المعرفة والاحاسيس ، والذي يتفاعل مع حياتنا ، وواقعنا ، ونضالنا ، وشتى مشاكلنا القوميـة والاجتماعية .

حين صدر كتابي سمعت من يهمس في اذني :

يا استاذ كان عليك ان تهمل الحدبث عن هذا .. وان لا تكتب عـن ذاك .. وكان لهذه الهمسات « بواعث ذاتية » محضة لا تقوم على اسس من النقد بل على الحب والكره .. فكنت اقابل همساتهم بل « وخزاتهم

المقنعة » بروح متسامحة لا لشيء الا لاني اعرف بواعثها .. ولاني ، من جهة ثانية ، اديت واجبي نحو ادباء لا يمكن ان انكر وجودهم قط ، مع العلم اني اوجزت الكلام جدا عن ادباء الشباب ، وكان حقي ان اسهب ، وان اتناول ادبهم بالدرس والتأمل الطويل ، ولكن كلامي كان لونا من الالماع، وعذري ان انتاج اكثرهم ما زال موزعا على صفحات الجرائد والمجلات ولما تنتظمه الكتب .

واقسم انني كتبت عن ادباء يكرهونني وتتآكل نار الحسد في صدورهم نحوي ، ولكن الامانة التاريخية كانت تقتضي ان لا اهمل الحديث عنهم ، فكتبت وضميري مستريح .

واخيرا ، اريد ان تثق سيدتي الكريمة ، اني لم احاول قط ان اكيل المدح لاصحاب المواهب الهزيلة ..

وقد عشت انت مع « الحديث » في جميع مراحل حياتها ..

وكانت صفحات المجلة ، وما تزال موصدة امام الادب الرخو ، المهلهل ، الضعيف .. نعم ، انها قد تفسح المجال لمن تلمس عنده الموهبة المعطاء.. وقد تدعم ادبه ، وتفسح له الطريق .. ولكن ما حاول صاحب « الحديث » قط ان يكون كما قلت ـ شبيها بمدير رواية مسرحية يبرز على الخشبة ابطالا فيهم مهازيل يخلع عليهم اردية البطولة » .

وليس لي ازاء كلمتك هذه الا ان اقول : سامحك الله ..

ولنعد قليلا الى الوراء ..

فانت يا سيدتي ـ انت اليوم في القمة بين اديبات العرب الفضليات والمنتجات بحق ، وقد كتبت كثيرا في بدء نشأتك الادبية على صفحات « الحديث » أكان علي ان اقف دون نشر تلك النفحات التي استحالت مع الايام ادبا نضيرا ، وثمرا شهيا ، له قيمته ، وله رواؤه ، وله جزالته..

وصاحب « الاداب » ـ وعفوا من الزميل الصديق لهذا الاستطراد ـ فقد كتب اقصوصاته الاولى على صفحات « الحديث » وكان في بداية نشأته الادبية ، وقد لمست عنده هذه الالمعية المبكرة ليكون في غده القريب من كتاب القصة البارعين ... فلو حلت دون نشر اقصوصاته ، او اطفأت هذه الجذوة المضطرمة في صدره ـ انا او غيري من اصحاب الصحف والمجلات ـ اكان وصل الى المرتبة التي تضعه اليوم بين كبار كتاب القصة..

أكان استطاع ـ ولو عاش العمر كله في باريس ـ ان يكتب لنا قصته البارعة « الحي اللاتيني »

وغيره وغيره كثيرون ..

انك تريدين ان انكر هذه المواهب الندية واعتبر وجودها وهما من الاوهام ..

ثقي يا سيدتي ان الذين اخذت علي الماعي الى ادبهم ـ هم ادباء الغد .. بل في طليعة ادبائنا الشباب الذين يتميزون بثقافة واسعة ، واصالة ادبية متميزة ، واسلوب رصين ، وتفكير تقدمي حر .. ولا ازيد.. وانت تعرفين هذا حق المعرفة ...

واكتفي بهذا الالماع لاكرر شكري لكلمتك الطيبة وتقديرك البليغ ، واتجاوز عن بيت المتنبي الذي خص الرجال بقلة الانصاف ـ سامحه وسامحك الله ـ

ولك من المعجب بادبك التحية والتقدير

حلب سامي الكيالي

النقد اللامسؤول !

بقلم حبيب صادق

كان، وما يزال ، يغريني من « الاداب » فيما يغريني باب « قرأت العدد الماضي » . ذلك لاني شغوف اشد الشغف بعملية النقد المقابل التي تتم بين رأيي الشخصي الذي اكون قد كونته خلال مطالعتي للعدد وبين رأي الناقد له نفسه .

ويعمّق شغفي ويعرض،ان كان العدد موضع النقد محتويا على محاولة شعرية لي ما زعمت يوما انها ادركت موطن الشعر . ان هي الا خواطر تبتعثها في النفس احداث امتي العربية ولا شيء اخر ، وغايتي من المحاولة ان اسجل هذه الخواطر بصدق مجتهدا ان ياتي التسجيل اقرب ما يكون للنجاح . لكن ايتم لي ذلك ؟ من الجهل المدعى ان اعتمد رأيي الشخصي للاجابة على هذا السؤال . من هنا جاء شغفي العميق العريض بعملية النقد وغايتي الوقوف على رأي الاخرين . ولا احب الى نفسي من اليد التي تشير الى اعوجاج في وتقدم وسيلة التقويم . اما من حيث الشكل فلا يهم سواء امتدت بخشونة وقسوة او تغلفت بقفاز حريري. المهم ان تشير ، هذه اليد ، باخلاص وصدق ثم تقترح مسؤولة .

بهذا الروح اقبلت على الباب الاثير عندي من « الاداب » في عددها الاخير . وكان من الطبيعي ان يستوقفني منه رأي الناقد في القصائد ، على اعتبار ان لي محاولة اتوق لمعرفة موقف الناقد منها .

وطالعتني مقدمة التهمت من المساحة الورقية مقدارا يوازي ما خصص للقيام بالمهمة ، لاعطاء الرأي. وقد استوقفتني في هذه المقدمة اكثر من نقطة لن احاول الان الرد عليها كما لن احاول ان ادفع عن اصحاب القصائد الاخرى فلهم وحدهم الحق في ذلك . وحسبي ان اقف مع الناقد حيال رأيه الذي ارتجله حول محاولتي « دعوة الى الاغنيات » .

هنا حيث يحتاج الحكم الى مطالعة حيثية نراه ، سلمت يده ، يبدهنا بحكم يناقض فيه بعض المفاهيم التي ضمنها مقدمته الطويلة ، انه بيسر وسهولة يجردني من هويتي ويحكم بالفائي او بافنائي في النرفانا سعيد عقل ... يتم له كل ذلك من غير ان يجشم نفسه بعض العناء الـذي يقتضيه ايراد دليل واحد على صحة اتهامه . ويتبين ان الامر عنـده لا يحتاج الى دليل ، فيكفي ان يقول ليصبح زعمه القول الفصل .

« ذات الفاظ الشاعر سعيد عقل وذات صوره وذات طريقته في تركيب الجمل » لهذا السبب « توقع ان يجد اسم سعيد عقل بدلا من اسم حبيب صادق » يقول هذا ويقعد فلا يشير الى اللفظة المجنى عليها او الى الصورة المنهوبة او الى التركيب ذي الطريقة المسجلة المعتدى على ماركته !..

يا ناشدتك الله ، هب ان « الالفاظ هي ذات الالفاظ والصور هـي ذات الصور » - مع ما في هذا القول من ارتجال وعدم مسؤولية - اتعدو هذه كلها ان تكون الثوب ، ان تكون الشكل ، ذلك الشكل الـذي لا يكتسب الحياة الفنية الا بمضمونه . فالمضمون وحده الذي يمنحه اللون والنكهة والنسب ، وحده يبعثه خلقا جديدا ..

وانت الذي « تربط بين النتاج الفني وحياة الامة العربية » زاعما انك « تنظر الى قصائد العدد الماضي على ضوء هذه النظرية »

وانت الذي تعرف عن الشاعر سعيد عقل ما يعرف الجميع عنه ، من ان الهموم التي تؤرقه وتتشكل بشعره هي غير الهموم التي تشغلنا نحـن القوميين العرب وتتشكل بشعرنا ، بفننا ، ان لم نقل ان هذه وتلك على طرفي نقيض وفي حالة صراع على الغلبة فالبقاء .

فكيف اذن توفق بين نظريتك التي زعمت وحكمك الذي اصدرت ؟..

يا سامحك الله ، لنرضي نزعة البطش والاستعلاء التي تبرزها كتابتـك ان في المقدمة وان في الرأي ، فلا يمنعنا هذا من ذكر الحقيقة وهي ان ثمة تغيرا كيفيا في الالفاظ والصور افاض عليها وجودا اخر .. هذا التغيـر متأت من الانقلاب في المحتوي . ف « دعوة الى الاغنيات » لا تخرج عن كونها مجموعة انطباعات عفوية لانسان عربي جن من السعادة لدى سماعه اعـلان الوحدة من الراديو في اليوم الخالد من شباط ... قد تكون المحاولة ما استوعبت فرحة الوحدة بجميع ابعادها فهذه حقيقة لا اخجل من الجهر بها لكن الذي يشفع لها انها كانت الطليعة الاولى للبهجة الغامرة ، يشهد على ذلك انها القصيدة الوحيدة المستوحاة من الحدث الاكبر في عدد شباط من « الاداب » الغراء.

وبعد ، ان اليد التي كنت اتوق الى رؤيتها تشير بصدق واخـلاص وتقترح مسؤولة ، ان هذه اليد خاب املي بها بعد ان هوت علي فجـأة والغتني الغاء ، هكذا من غير مبرر .

فان كانت هذه عينة « من فوائد منهجك الذي يخلص الواقعيين العرب من الوقوع في الحيرة » فارجو مخلصا ان تتحول انت عنه ، عن هـذا المنهج ، اقول انت لاطمئناني بان احدا لن ينكب مختارا بالسير عليه

ولك شكري وعذري ايها العزيز

بيروت حبيب صادق

آراء في نقد القصة ...

بقلم سمير تنير

في هذه الفترة التي تحقق فيها امتنا اعظم انتصاراتها ، يجب عـلى الفنانين ان يعمقوا لحظات الكفاح والانتصار والمرارة والالم والفرح ، من خلالهم هم ، او من خلال ابطالهم ، فبذلك فقط يكونـون فنانين او لا يكونون .

أسوق هذا الكلام ردا على ما كتبه الزميل علي بدور في « مناقشات » العدد الماضي ، تعقيبا على نقد الاستاذ « فاروق خورشيد » لقصتـه « العيد للجميع » ولقصة « الشيخ حداد » للاستاذ عثمان سعدي .

ما زلت اذكر صيحة اطلقها منذ مدة قارىء من بغداد ، لانقاذ الشعـر مما يكاد يتردى فيه ، بقوله ان الشعر يجب ان يظل شعرا ثم يكـون بعد ذلك حرا او مستعبدا . وفي العدد الثالث من الآداب اطلق الاستاذ فاروق خورشيد صيحة اخرى لانقاذ القصة قائلاً ان القصة يجب ان تظل قصة ثم تكون بعد ذلك نضالية او غير نضالية . وقد احببت آنذاك حديث الاستاذ خورشيد فقد كان حقا كله . وقد كان حديثا موضوعيا قائمـا على التحليل ثم الخروج بالنتائج .

بعد فما الذي يقوله الزميل بدور ؟

يقول: « ان بعض السادة النقاد قد تجمدوا عند آراء خاصة لا يبرحونها



كأن اراءهم اكياس كبيرة تسع كل شيء ، الخ . » وهذه عبارات لا دلالة لها على الاطلاق . وان كان الزميل يعني بها خورشيد ، فقد طاش سهمه، لان الناقد الفاضل لم يأت بأشياء من عنده ، بل اقام نقده على التحليل والاستقراء ، ومن ثم الخروج بالنتائج .

ويقول الاستاذ بدور ان الشكل في القصة لا وجود له لانه متغير متبدل « حتى لنذهب دون مخاطرة بان الشكل في الاقصوصة لا وجود له وان المضمون وحده هو العنصر الاول والاخير ، وما الشكل الا اسلوب الكاتب وطريقته » .

فما الذي يعنيه الزميل هنا « بالشكل » ؟ هل هو البناء الداخلي للقصة **Plot** ، ام اسلوب السرد **Technique** ، ام الاسلوب الكتابي **Style**

ان فهم الزميل للشكل مفهوم جد سطحي . ان النظرة الحديثة للشكل تعني مدى نجاح القاص باستخدام كافة امكانياته في خلق موضوع قصصي. تعني رسم الشخصية **Characterization** ، واضاءة الاماكن ووضع الحركة في الاقصوصة . فاذا اخفق الكاتب بعد ذلك في خلق موضوع قصصي اصبح نتاجه شيئا اخر غير القصة ، بل شبيها بها لان عملية الخلق لم تتم . وها هي نللي كورمو (1) تقول : « من غير فن القصاص ومن غير تأليف دقيق بارع تظل القصة لا شيء على الاطلاق وتبقى اجمل الموضوعات تافهة بليدة » .

من هذا يتبين للاستاذ بدور ان في القصة ، كما في اي نسيج فني اخر ، حقائق بديهية لا يمكننا ان نتحلل منها . ومن هذه الحقائق ان الشكل والمضمون في القصة لا يجوز فصلهما . وحين ينهار الشكل بتأثير وجود افتعالات ومشاهد وعبارات تناقض الصدق الفني ، فقد سقطت القصة الى وهدة لا خلاص لها منها . فالشكل هو الخالق للموضوع القصصي ، لا العكس . والمضمون لا يؤخذ باقتطاع عبارات معينة من القصة ، بل يؤخذ ككل بعد الفراغ من قراءتها . اما اراء الكاتب عن الانسان والعالم ، فتؤخذ ككل بعد دراسة آثاره . وما دمنا نعالج الكاتب القصاص ، فنحن نستطيع ان نتبين موقفه من خلال تعبيره عن الاحتكاك بالعالم . فالكاتب قد يقدم الانسان اولا ثم يقدم لنا من خلال هذا الانسان ، العالم. فالمضمون الموجود في قصصه هو الانسان ثم العالم . ومن كتاب هذه الفئة دستويفسكي ، وسارتر وكامو . وهناك كاتب اخر يقدم الانسان كشيء في العالم . فالانسان شيء كبقية الاشياء ملقى بغير عناية في العالم غير الانساني . ومن هذه الفئة كالدويل وجوركي وشتاينبك . ويتضح للزميل علي بدور بعد ذلك، ان جمل الخطابة والسباب الحماسة لا تدخل في المضمون ، بل هي مقحمة عليه . وسأقدم الامثلة على ذلك :

(1) الآداب العدد الاول ١٩٥٤ ، ص ٧٥

لماذا تنجح قصص محمد ديب التي يروي فيها حياة الظلام في الجزائر، وتترك في انفسنا اثارا لا تزول في حين تفشل قصة كقصة « الشيخ حداد » في اثارة اي تعاطف فينا ؟

الفرق بين واضح . ان محمد ديب يضي اذهاننا بلمحات ولمسات مرهفة فاذا بعقولنا مضاءة على غير وعي منا ، بعالم من الاشخاص والاماكن والحركات . انه يهز اعماقنا ، ويجعلنا نتساءل بالم « اتلك هي الحياة التي يحياها ابناء الجزائر في ظل الاحتلال ؟ » .

لماذا لا نجد في قصص محمد ديب عبارات مثل : « يا لهؤلاء الفرنسيين الانذال قتلوا كل جمالنا ولم يبقوا لنا من قطيع مائة راس سوى عشرين شاه .. حتى الكلاب قتلوها . انهم اوغاد .. اوغاد جبناء » ؟ لو فعل هذا محمد ديب ، لما كان فنانا عظيما ، بل لكان مجرد هاتف. ولما هزنا هزا شديدا ، وايقظ فينا ينابيع الثورة .

مثل اخر : ان مونسيرا مسرحية « ثمن الحرية » لا ينطق بالفاظ السباب مع ان الموقف مناسب جدا لمثل هذه الالفاظ ، عندما اعتقل الاسبان عددا من الابرياء واعدموهم واحدا بعد واحد امام عينيه ، لكي يفشي لهم اسرار اختباء بوليفار .

مثل اخر : ان مونسيرا بكل مسرحية«ثمن الحرية»لا ينطق بالفاظ السباب « جسد الجمهورية » تروي بطولة الفدائيين الجزائريين حين يقدم الواحد منهم على التضحية بابنته في سبيل الثورة . لكن القصة على الرغم من نجاحها النسبي اعتقد انه كان بوسعها ان ترتفع الى مستوى تأثيري اعلى لو سلمت من بعض العبارات الخطابية المقحمة اقحاما ، ولو سلمت من بعض الاخطاء التكنيكية . فكاتب القصة ينتقل فجأة في الفترة السابقة (ابتداء من .. كان السائق شابا لطيفا .. الى اخر الفقرة) من السرد الى التداعي . وهذا خطأ تكنيكي بارز . فالكاتب قد دخل منذ البداية في رواية الحدث ، فكان عليه ان يستمر في روايته لا ان يقطعه فجأة . واعتقد ان الكاتب لو كان متفهما لاساليب القص الحديثة لاستطاع ان يتفادى هذا الحرج ، بنقل الفقرة السابقة الى بداية الاقصوصة .

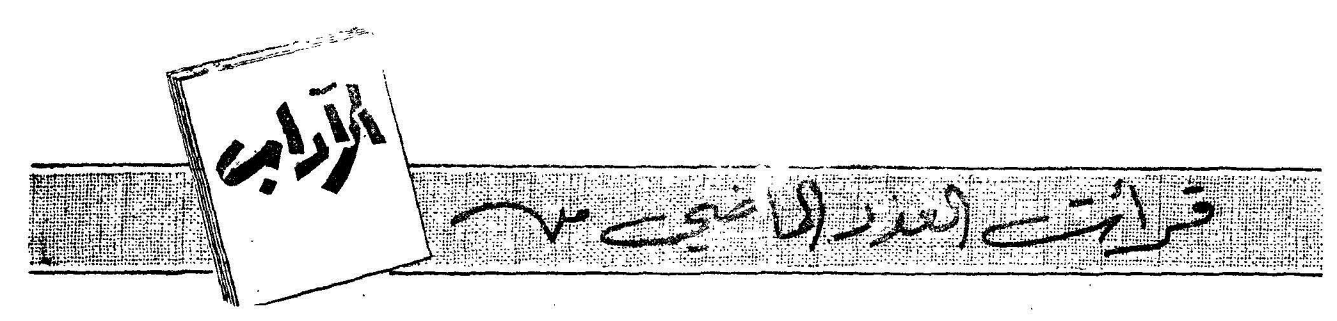
ارجو من الزميل علي بدور ان يقارن بين هذه القصة وبين قصة القناص الاداب (العدد الرابع ١٩٥٧) ، التي تروي بطولة الفدائيين الارلنديين. والتي تقص كيف قضى اخ على اخيه من اجل الثورة . ما اشد البون وما ابعده !

وبعد فلعل الزميل يقتنع ان الكاتب غير المقتدر يسيء اساءة بالغة الى الاهداف التي يدعي انه يكتب من اجلها حين يقدم فنا زائفا . انه بمعنى اخر يلتزم التزاما وصوليا ، لا التزاما فلسفيا . ان الالتزام نتيجة تطور ، وليس بداءة ابدا . ان الالتزام يعني ان الكاتب قد وجد نفسه، بعد ان تاه وضاع . ان ا لالتزام ، لا يعني ابدا التخلي عن القيم الفنية بحجة تسمية الاشياء باسمائها .

ثم يتحدث الزميل ، بكلام كثير ، عن الزمن ، والقصة الروسية ، و(م) الذي يعيش في بلدة (س)، ودفع الحياة الى امام ، والتطور وتسمية الاشياء باسمائها ، كأنه حتم على القصة النضالية ان تكون رديئة ، وان تخلو من الحركة ، وان تحفل بالفاظ الخطابة والسباب والوعظ !

ما اصدق الاستاذ محي الدين محمد حين يقول : « اذا كان الفنان الكتابي مدافعا عن الحرية ، فليكتب دفاعه مشتعلا مضيئا ، قاسيا وعنيفا، ولا فليعلن افلاسه ويذهب لاصطياد السمك فذلك عمل اكثر جدوى » !

سمير تنير



القصائد

بقلم الدكتور علي سعد

قد يكون عدد ((الآداب)) في الشهر الماضي ، اغنى اعدادها بالقصائد ، فهو يكاد يزخر في كل صفحاته بالشعر المتمثل في خمس عشرة قصيدة .

ولعل الآداب ، حين افسحت هذا المجال الواسع ، لصوت الشعر ، أحبت ان تستجيب لنداءات الحياة العربية التي تمر في لفتات حاسمة من تاريخها وتعيش اياما حافلة بالمجد غنية بالاحداث ، زاخرة بكل ما يحرك المشاعر ويلهب الاخيلة ..

والشعر ، لغة الاحاسيس والشعور ، هو اكثر الفنون الادبية استعدادا للتعبير عن هذه المرحلة من حياتنا التي دفعتها احداث الجزائر ، وقصة جميلة بوحيرد وولادة الجمهورية العربية ، الى اوج توترها العاطفي وقمة نبضها الانفعالي .

واكثر قصائد العدد الماضي من ((الاداب)) تحمل الى القارىء لمحات ملتهبة من هذا المد الشعوري الجارف الذي تدفق منذ اشهر على حياة العرب وجعلهم يعيشون ابهى ايام عمرهم الحديث واخصبها بالامال والغضب والايمان والحقد والمحبة .

وهذه القصائد بتدفقها وعفويتها وصدق لهجتها وعمق الرعشات التي تميز اكثرها تظهر الى اي حد بدأ الشعر يلتصق بحياتنا ويستمد غذاءه من ينابيعها ويربط مصيره بمصائرها .

ولكن العدد الماضي من الاداب ، اذا كان يرهق الناقد ، لكثرة ما فيه من قصائد ، لا يخلو من متعة وفائدة . فهو اشبه بمعرض شعري متنوع الالوان والاساليب والآفاق . وتنوع الشعراء ، الذين يحفل بهم ، واختلاف الاجيال التي ينتمون اليها ، وتعدد طرق التناول الشعري امام المواضيع الواحدة ، يتيح للقارىء فرصة ثمينة لمقارنة القوى الفنية والمتقدمة التي تركض اليوم في حلبة الشعر العربي . ويسرني ان اعلن هنا ان الاصوات الشعرية الفتية التي ترتفع على صفحات هذا العدد ، ومنها ما نسمعها لاول مرة ، ومنها ما لا نسمعه الا من عهد قريب جدا ، تحتمل المباراة والمنافسة بنجاح واحيانا بفوز اكيد ، مع اسمائنا الشعرية الكبيرة ، كنزار قباني وصلاح عبدالصبور .

وانني اجد في هذه الظاهرة ، ظاهرة القوة الابداعية المتجلية في عناصرنا الشعرية الفتية التي يطلعها من لهب المعركة ، من كل مكان ، دلالة اكيدة على الخصب والزخم والعافية في حركة الشعر العربي المعاصر . وان شعرا يجد كل يوم في الاجيال الطالعة اصواتا جديدة تعبر بصفاء وعمق عن حاجاته وتفجر طاقاته ، لشعر حي كفؤ للماضي المجيد الذي تحدر عنه .

والان لننتقل الى استعراض قصائد العدد الماضي الخمس عشرة .

ان اسهل طريقة لولوجها هي تصنيفها حسب المواضيع التي اوحت بها .

وتبعا لهذه الطريقة نستطيع تقسيم هذه القصائد على الوجه التالي :

اولا : خمس قصائد تتناول مأساة جميلة بوحيرد .

وتدخل في هذه الفئة قصائد نزار قباني ومحمد المصري وشفيق الكمالي وعيسى الناعوري ونجيب سرور .

ثانيا : ثلاثة قصائد تستوحي ميلاد الجمهورية العربية وصورة البطولة العربية المتجسدة في جمال عبدالناصر .

ونذكر من هذه الفئة قصائد نقولا قربان وحبيب صادق ورامي لبابيدي .

ثالثا : قصيدة هنري صعب الخوري التي تستمد جذورها من مأساة الحرية الفكرية المصلوبة على ايدي بعض للسياسيين اجراء الاستعمار ، وقصيدة عبد الجبار البصري في وصف جهد الفلاح لاطعام الاخرين ، تدخلان من نافذتين مختلفتين الى نطاق الشعر السياسي الثوري .

رابعا : خمس قصائد متنوعة تصور مشاعر ذاتية تختلج في نفوس مؤلفيها ، اما في مواجهة الطبيعة التي تتجاوز باصدائها حدود الطاقة الانسانية (ملك عبد العزيز وانور خليل) واما امام الاحداث العاطفية والامواج النفسية التي تتدفق في حيوات الناس ، كالحب (صلاح عبد الصبور وكمال نشات) والقلق الذي يسمونه مرض العصر (زكي قنصل) .

ومن قصائد الفئة الاولى احببنا اكثر ما احببنا قصيدتين :((جزائرية)) لمحمد المصري و ((الجمعة الحزينة)) لنجيب سرور .

واننا احببناهما معا ، على بعد الشقة بينهما في الاسلوب والاتجاه .

فقصيدة محمد المصري تعتمد في احداث الاثر الشعري على النغم والتلاوين وبراعة النقلة بين الخاطرة واختها والاناقة والتساوق في توزيع الحركة والنغمة والصمت حيث يجب .

والقصيدة رغم تركزها حول قصة البطلة الجزائرية جميلة ، تعالج هذه المأساة اكثر ما تعالجه من زوايا الجمال والحب . وقد استطاع الشاعر ان يحافظ امام هذه الجريمة البشعة التي تلطخ الانسانية بالعار ، على الكلمات الحلوة وان يبقي في شعره مكانا للفرح والغناء والتفاؤل . انه لا يجد في استشهاد الصبية الا جمال البطولة ورونق النضال . لذلك خلت قصيدته من طعم المرارة والحقد والغضب وظلت اشبه بأغنية حب ، من اغاني الحب ، فيها رشاقة النغم وعذوبته ، وحلاوة الصور ورقتها وهبات ربيعية دافئة :

وافرحي فارسة الارض التي تشرب
من عين الصبايا
يا جميلة
اتراهم يطفئون الغابة الخضراء
في العين الجميلة

اترى تهدأ ... هاتيك الجديله

واذا كان محمد المصري يفضل ان يتحرك في هذا الاطار الشعري البهي الذي يستعير كل عناصر بنائه من العالم الحسي الخارجي ، فان نجيب سرور في قصيدته « الجمعة الحزينة » ، يبعث جو الجريمة المريعة التي كان الفرنسيون على وشك ارتكابها باعدام جميلة ، بالتسلل الى داخل النفس الانسانية وبالنفاذ الى اعمق اعماق الالم الذي يزرع درب الانسان منذ مات الناصري الى استشهاد الفتاة الجزائرية .

وبقدر ما يضفي محمد المصري من الرواء على البطلة ، لانه لا ينظر اليها الا من خارج ، كمتفرج سريع الحساسية ، بقدر ما نرى نجيب سرور يحترق في لهب الفاجعة التي تجرفه بهولها ورعبها وتحمله على ان يعيش مع البطلة آخر ساعات عمرها وان يدخل زنزانتها ويتلمس جليد الذعر الذي يدب في اطرافها وذهول اليأس ينسج خيوطه في عينيها وان يعرف معها الخوف الذي عرفه المسيح ليلة صلبه .

لا ، ان الشاعر سرور لم يشأ ان يقف متفرجا امام الجريمة ولا ان يصورها بالصورة الزاهية التي احب اكثر شعراء وادباء العربية ان يصوروها بها ، لانطلاقهم من الزاوية الوطنية فقط ، وانما استطاع بصدوره عن الزاوية الانسانية الصرف ، ان يقدم لنا عنها الصورة الحقيقية كما يمكن ان تبدو في نفس الضحية التي عرفت اقسى ما يمكن لانسان ان يعرفه من العذاب حين ظلت اياما واسابيع واقفة بين الحيرة والرجاء واليأس في انتظار ساعة اعدامها .

وبالرغم من ان احد مقاطع القصيدة الذي يصف فيه الشاعر احاسيس البطلة حين تسمع وقع نعال الجلادين تقلق صمت الليل ، فيتجمع كل كيانها في اذنين وفي عينين ، وحين يدور المفتاح في ثقب الباب ويدخل الحارس بوجه مرعب ، خلف ضوء اسود ، يحمل فانوسه واخبار الموت والحياة ، اجل بالرغم من انهذا المقطع يذكرنا من قرب بالصفحات الرائعة التي صور بها أرثر كوستلر تلك الثواني الرهيبة التي يعرفها نزلاء السجون قبيل مرور موكب الاعدام في البهو القائم خارج زنزاناتهم ، فاننا لا نتمالك انفسنا من ان ننجرف مع الشاعر في دوامة الحزن القاتل والخشوع والتهيب والوجل والخجل الذي يحسه امام حادثة اعدام فتاة لا يملك لنصرتها الا شعره وبعض كلمات العزاء . شأنه في ذلك شأن محمد المصري الذي لا يملك لنجدة الشهيدة الجزائرية الا اغانيه يهديها اياها .

وانني ارى في قصيدة نجيب سرور نموذجا من الشعر البسيكولوجي الذي يندر كثيرا في ادبنا العربي . وهو هنا يظهر انه يحسن الغوص الى سراديب النفس الانسانية والى الكشف عن اختلاجاتها واسرار مكنوناتها بلغة بسيطة لا ادعاء فيها ولا كلفة ، وعلى جانب كبير من المرونة لتتلاءم مع مقتضيات السرد والتسلسل المنطقي . ومع هذه البساطة في التعبير ، وانحداره احيانا الى ما يشبه حديث النثر ، فقد استطاع ان يحملنا على ان نشاركه جو الحنين والشفقة الذي توحي به ذكريات الجمعة الحزينة ، كل جمعة حزينة . ولعل اختياره لبحر الخبب قد ساعده كثيرا على احداث التدحرج والاندفاع الى الاغوار الموحشة التي يهوي اليها .

وعلى النقيض من هذا الشعر ، تقف قصيدة نزار قباني في جميلة ابو حيرد ايضا .

فهنا يلجأ الشاعر ايضا الى لغة السرد . وهو هنا ايضا يستعين بالتصوير الواقعي لابراز مأساة البطلة العربية التي هزت ضمير الانسان في كل ارض .

ولكن هذا التصوير يظل تصويرا. وواقعية الشاعر تظل متعلقة بالجوانب الخارجية من المأساة . انها لا تقف الا عند الاحداث ، او الملامح والسمات والشكل ، انه يصف مسلك البطلة الشابة في زنزانة بسجنها ، ويصف شعرها ويدها ، وصدرها وثغرها وطهارتها ثم يصف صنوف التعذيب التي انزلت بها ، بكثير من الصراحة .

وهذا كل شيء ، وقد يكون هذا كل الكفاية لو قيل باللغة المجنحة التي عودنا عليها نزار في اكثر شعره . ولكنه في هذه القصيدة يكتفي باعطائنا تقريرا امينا لقصة جميلة ، كالذي يحسن تنظيمه رجال الضابطة العدلية، فلا لفتات جانبية ، ولا نبضة شعورية ولا رفة جفن او خفقة قلب تشعرنا بان المأساة قد دخلت في عروق الشاعر واستنزفت مآقيه او استقطرت مقالع خياله . ان كلمات الشاعر ظلت باردة كالرخام الابيض الذي لم يمسه بعد ازميل نحات.

قد يقول قائل ، في الدفاع عن هذه القصيدة : ان هول الموقف وجلال المصيبة قد دفعا الشاعر الى التزام الاسلوب الصارم المتجرد من كل زخرف او تفجع وان فيض العاطفة لا يليق بالرحلة البطولية التي يمر بها الشعب الجزائري وان ما يخطه هذا الشعب وما كتبته جميلة ابو حيرد بدمها لاجل وابهى من ان تضيف الكلمات شيئا الى القه ورونقه

انا اعلم ذلك . ولكنني اعلم ان آخر من يستطيع ان يحتج بهذا الامر هم الشعراء الذين لا يملكون الا الكلمة والذين لا يتخلون عنها ابدا ولا يقعدهم ابدا جلال موضوع ولا روعة اي امر عن تصريف كلماتهم وعواطفهم حيث يحملهم خيالهم والهامهم .

وكل ما ننكره على نزار قباني انه ظل على السطح من قضية جميلة بوحيرد يتأملها كما يتأمل زائر متاحف علوم الاحياء ، الاسماك السجينة

في اقفاصها الزجاجية . لقد ظل جدار من الصمت يفصل بينه وبين القضية ويمنعه من الاندماج فيها والالتفات الى اصدائها ورنانها الانسانية . اننا لا نجد في قصيدته امتدادات المأساة الى نفسه او الى الوجود البشري كما نجدها في القصيدتين السابقتين . وبكلمة انها تخلو من عذابات التجربة الشعرية التي تميز القصيدتين السابقتين .

وليس في القصيدة شيء آخر يشفع بهذه البرودة الموضوعية التي تمتّع وراءها نزار قباني . هذه القصيدة ليست من مقالع الصفاء والشفافية والرشاقة والجرأة التعبيرية التي اعتدنا عليها في شعر القباني . ولو كنت محله لما اسلمتها للنشر الا بعد تردد كبير .

وقصيدة شفيق الكمالي تتصف بالبراءة واكاد اقول بالسذاجة في كثير من صورها وافكارها وهذا يعني انها تتضمن عنصرا ثمينا من عناصر الاداء الشعري الذي يدخل في صميم طبيعته عفوية تبجسه وعودته بالسامع او القارىء الى ما يشبه طفولة الحواس والذهن . وفي القصيدة محاولة لربط صورة جميلة بالذكريات والوجوه التاريخية المحببة التي كانت تملأ طفولتنا . ولكن فيما خلا بعض المقاطع التي تطل منها ومضات شعرية اكيدة ، تسقط القصيدة بأكثريتها لمستوى القول العادي .

وقصيدة الناعوري هي القصيدة الوحيدة ، بين القصائد المكرسة لجميلة الجزائر التي نظمت على النهج التقليدي في الشكل وفي المنحى.

ولكن هذا الاطار من النغم الموضوعي الذي يضفيه عادة قالب الشعر التقليدي والبحر الواحد ، لم يستطع ان يرفع القصيدة الى المستوى الشعري الحقيقي . فهي اقرب شيء الى النثر المنظوم . فالطابع الخطابي الذي يغلب عليها وبسلوكها طريق التعبير المباشر الذي يحمل الشاعر على استعارة التعابير والكلمات والصور الخام من مقالعها في الحديث الشائع بين الناس ، دون ان يخضعها لاية عملية تنسيق واختيار وتقطير، مما يدخل فيما يسمونه بالذوق الشعري .. فنحن لا نجد في هذه القصيدة شيئا من معالم الصفاء والعمق والاناقة والنبض الانفعالي الحي ولا شيئا من تزاوج الانغام واصداء الصمت والنبرات ولا من التبادل الايقاعي بين التعبير والانطباع ، بين الصورة والحس ، وغير ذلك من الملامح التي تميز القول الشعري . ورغم ما في القصيدة من بوادر الشعور بالنقمة على جرائم الفرنسيين في الجزائر فان الشاعر لم يقدر على ان يبعث فينا حرارة انفعاله ولا ان يجرنا الى مسالك نفسية فاجعة تمسك بخناقنا وتجعلنا نشاركه نقمته وغضبه وشفقته ، كما فعل الشاعر نجيب سرور مثلا . والقصيدة ، بعد ، تخلو من الوحدة العاطفية والصياغة ، ومن كل ما يجعل من العمل الشعري بناء عضويا حيا ، وعالما خاصا يبنيه الشاعر بمزيج موفق من اللمحات والاشارات والرموز والخلجات والاصداء المعبرة عن معطيات الحس والذهن والقلب والعقل.

ومن قصائد الفئة الثانية المستوحاة من الحديث الذي جمع سوريا ومصر في وحدة شاملة بقيادة عبدالناصر ، نجد ثلاث قصائد لشعراء لبنانيين ، قيلت كلها على نسق الشعر الحر ، او المنسرح ، ايضا .

وقصيدة « جدائل الاطفال » لنقولا قربان هي اكثر هذه القصائد تحررا من ناحية الشكل وأقلها التزاما لوحدة الوزن والقافية . انها محاولة لقول الشعر في قالب يقف بين الايقاع الشعري والايقاع النثري.

وأنا شخصيا لا احب هذه المحاولة الهجينة . فاذا كان الشاعر لا يؤمن بالايقاع كعنصر اساسي من مقومات العمل الشعري فلماذا لا يتخلى عنه نهائيا ويبقى على صيغة النثر الفني ؟

واذا كان يؤمن به فلماذا لا يبقى على ايقاع واحد ، او على ايقاعات متقاربة متساوقة ؟ ان تنويع الوزن في داخل كل بيت او ضمن كل مقطع ، والانتقال المفاجىء من مجزوء وزن الى مجزوء وزن آخر ، جعل القصيدة في حالة عدم استقرار دائم يستنفد جهد القاريء ويدفعه دائما الى الهاء سمعه وانتباهه عن مضمون القصيدة ومادتها في محاولة غير مجدية - وتحويلهما لتتبع نغم مستقر متوازن .

ولولا هذا الحاجز الشكلي لكانت متعتنا اكبر بالنبرات الشعرية الصافية التي تتصاعد من بعض ارجاء القصيدة والتي تدل على شاعرية اصيلة عمادها خيال مجنح واناقة صبورة وطرافة لفتة ولهب احاسيس .وتلاوين في العبارة والخاطرة .

ولكنني احذر الشاعر الصديق من السقوط في مزالق السهولة التي تقف في نهاية الدرب عند الانسياق وراء التفلت من قيود الانضباط التي يفرضها الوزن الموحد ، او التوازن بين الانغام المتساوقة .

وقصيدة « بطل من بلادي » لرامي لبابيدي نموذج للشعر الذي يقف على الحدود بين الابداع والابتذال ، هذه المنطقة الخطرة التي لا يجرؤ الناقد على ولوجها .

وكل ما استطيع قوله هو ان شعر اللبابيدي يلفت النظر بطاقته اكثر من واقعه . عسى ان يكون الشاعر عند حسن الظن به ، وكل ما ارجوه ان يتخلى قدر امكانه عن الدروب المطروقة كثيرا وألا يخاف من شق درب جديد خاص به .

اما حبيب صادق فيظهر في قصيدة « التاريخ والطلبة والصغار » اكثر

اكتمالا لعدته الشعرية . ولست اتردد في التصفيق لهذه القطعة التي يعجبني فيها الترابط العضوي بين اجزائها والتوازن الظاهر بين دفق العاطفة وضبط العقل المتمثل في التزام ايقاع واحد لا يتغير ، رغم وعورته ، وكثافة المادة الشعرية التي يؤديها بيان ناصع ، باهر ، مختار، واللهجة الحيية التي ينطلق فيها الشاعر من الواقع المؤلم ، وتدرجه على اجنحة الحدث الذي زلزل العالم للتطلع الى ابعد آفاق الامال التي يولدهـــا .

وفي قصيدة « برونو ... ابدا » يصب هنري صعب الخوري كل ما يجيش في حلقه من شتائم ولعنات وبصاق على الرأس القذر الـــذي يدبر في كل بلد عربي المحاولات لخنق الفكر الحر . وقد وفق الشاعر، رغم كل ما قيل نثرا في هذا الموضوع المطروق دائما في كل الصحـــف الحرة ، ان يبعث فينا بكلماته الملتهبة ، اللاسعة كالسياط ، وبصدق لهجته وايمانه بما يقول ، وبعباراته المتلاحقة على وتيرة واحدة ، الرجة الانفعالية التي يهدف اليها كل عمل شعري .

ولا يضير هذه القصيدة انها تستهدف شخصا سياسيا معينا ،عرفناه في كل كلمة من كلماتها ، فواقعيتها الآنية لا تقضي على طبيعتها الشعرية . ان قصيدة « برونو .. ابدا » جديرة بان تدخل في كتـــاب الشعـــر النضالي العربي الحديث .

اما قصيدة « اغنية الكرمة » لعبد الجبار داود البصري فتسلك درب النضال الثوري ضد الواقع الفاجع ، باسلوب لامباشر اكثر استخفاء ، واقرب للرمز والايماء منه الى لهجة المقارعة المواجهـة التي يعتمدهـــا الشاعر اللبناني.

فالشاعر البصري بوصفه العامل في الكروم يروي العناقيد بدمعه ودمه ليطعم غيره يومىء الى المأساة الاجتماعية التي تفصل الناس الى مالكـين ومحرومين . ولكنه يشير الى ذلك بصورة حيية ، خفية لا تزيـــــد شعورنا بالمأساة الا احتداما . وهذه القصيدة ، على براءة مظهرها تزخر بطاقة شعرية متفجرة ، وبلمحات وتعابير رائعة تنطلق من الرمزية حينا ومن السريالية حينا ، ومن الواقعية احيانا كثيرة . ان هذه القصيدة تذكرنا كثيرا بشعر الشاعر السوداني جيلي عبدالرحمن ، بشفافية الاحاسيس البكر التي تنم عنها كلماتها البسيطة التي تحاول ان تنقل الوجـــــود الطبيعي الى وجود النفس الانسانية .

وقصيدة زكي قنصل « ثورة » لا تحمل شيئا من معنى الثورة التي يوحي بها عنوانها . انها تصوير رومنطيقي لحالة الحيرة والقلق التي تنتاب الانسان المضيع وراء اسئلة لا يريد لها جوابا . انها صورة عما كـان يسميه الغرب في القرن الماضي « مرض العصر » ، وهو في الواقع مرض الشباب المراهق في كل عصر وفي كل مكان . والسلاسة والرقة التي تميز دائما الشعر المهجري هي كل ما يشفع بهذه القصيدة ، التـي ترتبط بشعر العقد الثالث من هذا القرن .

وقصيدة « النهر الحبيب » لانور خليل تدخل ايضا في فئة الشعـر الرومانسي الذي يستلهم مظاهر الطبيعة وروابطها مع الانسان . ومع ان الشاعر ، هنا ، يبدو مشدودا بالف وتر الى النهر الكبير الذي يصفه ويأخذ عليه دروب فكره وباله ، فان ارتباطه بالطبيعة هنا يظل من النوع الرومانسي العادي ، اي مجرد محاولة للهرب من الواقع ، بخـــلاف الرومانسية الثورية التي تحمل عبدالجبار البصري مثلا على الانطلاق من واقع الطبيعة وجمالاته للانتهاء الى تناقض هذا الواقع الخارجـــي الجميل مع بؤس الانسان بسبب الواقع الاجتماعي الظالم .

ولكن ، مع هذا ، لا يسعنا الا ان نقر بقوة قصيدة « النهر الحبيب » وجلال النفس الملحمي الذي يمور في ابياتها وما يتناوب في سياقها مـن نبرات قاسية وحشية حينا ورقيقة احيانا حسبما تقتضيه مراحل هــذا الشعر التصويري امام النهر الكبير .

وتنتمي قصيدة ملك عبدالعزيز « الى نجمة الغروب » للنوع الشعري نفسه . وكما يصف انور خليل مشاعره وانفعالاته امام النهر الحبيب تصف لنا الشاعرة المصرية كل ما يتركه في نفسها المرهفة الحساسة اطلالة نجمة الغروب . وهذه القصيدة مثل رائع من الشعر المهموس الذي يهـــدد بالانقراض في شعرنا العربي . ولا يسع القارىء الا ان يحس لـــدى سماعه ، احساس الانتعاش بعد غطسة في مياه ساقية تظللها اشجـــار برية .

ويساعد على احداث هذا الاثر المنعش المحيي ، ما يفيض في القصيدة من حلو البث ، والحنين والابتهال والشوق والمحبة التي تتسع لكـل الوجود . كل هذه المعاني والاندفاعات النبيلة ، تسوقها الشاعرة بكلمات وأنغام يرتعش فيها الصفاء وتتقطر الرقة والعذوبة . ان في قصيدة «الى نجمة الغروب » كل هناء الامسيات والتأملات في ساعات المغيب،حين تمتلىء النفس بالحسرة على الضياء المولي وتتفتح ليد الليل والحلم والغيب .

هناك ، خلف غابة النجوم

وخلف استار الغيوم والظلام

تربع الاله

فالعين لا تراه

وانت يا صديقتي ..

اشارة عليه

رسولتي اليه

الجوهر المنضود في بوابة السماء

✶

هناك يا صديقتي

تركته هناك

شباكنا الغربي

ملتقى المساء

ليتنا نسمع كثيرا من هذا الشعر الذي نستطيع ان نضعه في ارقى مصاف الشعر الصوفي .

واخيرا يبقى امامنا قصيدتان لشاعرين مصريين معروفين : كمال نشأت وصلاح عبدالصبور . ويؤسفني ان اصارح هذين الشاعرين اللذين لا يحتاجان الى اي دليل على رسوخ قدمهما في الابداع الشعري ، ان قصيدتيهما لا تستحقان النشر ولا تليقان بماضيهما ، شأنهما في ذلك شأن قصيدة نزار القباني.

فقصيدة « احلام عذراء » لكمال نشأت قد تصلح اغنية لمدرسة ابتدائية بما فيها من سذاجة وبساطة مجردتين من كل لمحة فذة . وحتى المواويل الشعبية في القرى تحمل من هذه اللمسات الفذة والدعابات الساخرة اكثر مما تحمله قصيدة كمال نشأت التي لا يشفع بها الا عدم ادعاء صاحبها وتواضعه وخفره .

اما قصيدة عبدالصبور « الحب » فانها تتضمن الى جانب هذا الفقر في الملامح الشعرية الاصيلة ، الكثير من التشويش النغمي ، والاخطاء العروضية وحتى البيانية ، كقوله :

وقلت لها بأن الحب ما يصنع بالانسان انسانا

فان تعدية فعل قال بالباء يصح في العامية وليس في الفصحى .

وما كان لي ان اقف عند هذه الهفوة الشكلية لو وجدت في القصيدة قبسا من القول الملهم يتيح لي ان اغفر للشاعر الذي احببته كثيرا في قصائده السابقة .

وان كبوة شاعرين كبيرين كعبدالصبور ونزار القباني تحتم على شعرائنا التنبه الدائم للحفاظ على غارهم .

فالقارىء الذي يقدم له كل يوم شعراء الجيل الطالع من الزاد الدسم امثال الكثير من قصائد هذا العدد لن يرضى من سابقيهم ما يقع دون المستوى الاعلى الذي بلغوه . وهو دائما واقف لهم بالمرصاد . وترصده الواعي هو الضمانة لاستمرار سير شعرنا العربي الصاعد نحو الافاق الرفيعة التي يقتضيها تراثنا الماضي وآمالنا في المستقبل المجيد لامتنا الكبيرة .

علي سعد

الأبحاث

بقلم عبد اللطيف شراره

الجلادون

هذا مقال كتبه جان ـ بول سارتر تعليقا على كتاب « الاستجواب » الذي وضعه بيير أليغ عن فظائع التعذيب في الجزائر ، ونقلته الى العربية السيدة عائدة مطرجي ادريس .

يجب ان اشير ، في بداية حديثي عن هذا البحث ، الى صفاء الترجمة وامانتها وقوتها ، اذ اتيح لي ان اطلع على فقرات كبيرة من الاصل ، وآنست لدى المترجمة تدقيقا في النقل ، وتحريا ينطوي على كثير من الجهد ، للعبارة العربية الصحيحة التي تؤدي ما يقوله سارتر .

وسارتر يدرس هنا قضية التعذيب ، من زاوية تحليلية خالصة ، كظاهرة من ظواهر العصر ، ينطبق فيها على فرنسا ما ينطبق على غيرها من الامم التي تمارس هذا النوع من السلوك ازاء افراد يناهضون سياستها العامة ، ويشجبون تصرفات حكامها في المبدأ والهدف والوسيلة .

وأهم النقاط التي يوضحها هذا التحليل السارتري لظاهرة التعذيب، ثلاث ، هي : (١) تحول الضحية الى جلاد (٢) الهوة بين الانساني واللاانساني (٣) عفوية التعذيب في الحرب الجزائرية ، بمعنى ان «الظروف أدت اليه ، وعمقته النعرات العنصرية » .

لا يزال هذا التحليل ، في رأيي ، ناقصا ، لانه يُغفل او يسهو عن « الاساس » الذي تقوم عليه عملية التعذيب في نفس فاعله ، وهو لا يعي منه .

هذا الاساس هو الشعور الخفي بالهزيمة في المعركة التي يخوضها الجلاد ضد الضحية ، او هو الاحساس الذي يخالج المعذب (بالكسر)انه ضعيف ، وانه غير محق ، وانه معتد ، وان المعذب (بالفتح) لم يقتسره على شيء ، ولم يطلب سوى ما يراه حقا وعدلا .

القوي ، المحق ، المؤمن بصواب مسلكه لا يلجأ ابدا الى التعذيب ،حتى ولا يفكر به . ولقد كان الحلم ، او العفو عند المقدرة ، من ابرز علامات القوة ، ولا يزال الى يومنا هذا ، مظهرا من مظاهر القوة النفسية . فاذا رأيت امرأ يصطنع اساليب الاوغاد في معاملة اعدائه بعد ان يتمكن منهم، ويصبحوا في قبضته ، فذلك يعني ، دون ادنى ظل من شك ، انه مغلوب، منهزم ، وان ظهر غالبا منتصرا .

وشأن الامم في ذلك شأن الافراد . ان قسوة فرنسا على الجزائريين اليوم ، ولجوءها الى هذه المسالك والطرائق في اذلالهم ، وعنفها البالغفي الرد على الثائرين منهم ضد وجودها في بلادهم ، ادلة ساطعة ، علىان فرنسا شاعرة في قرارة سريرتها ، انها منهزمة لا محالة ، وأن الغلبة آخر الامر للوطنيين الجزائريين وشعورها هذا يقلقها الى حد لا تعرف معه كيف تتصرف ، ولا كيف تفكر ، ولا كيف تستنقذ نفسها من الهزيمة المنتظرة .

وليس امر فرنسا في هذا بمختلف عن امر المانيا الهتلرية ، فقد كانت اكاذيب غوبلز ، وتأويلاته للمواقع والاحداث ، تؤكد وحدها ان النازيين لا يؤمنون بما يقولون ، وأنهم يتلمسون حتى في انتصاراتهم الوقتية العابرة ، ما يخولهم الشعور بالظفر الاخير ، ولكنهم عبثا ما كانوا يأملون !

واذا كانت الحكومة الفرنسية تطمس اليوم حقائق التعذيب ، وتمنع كتاب أليغ من الانتشار ، وتصادر الصحيفة التي نشر بها مقال سارتر ، فهذا من علامات الضعف الذي يشعر به جلادو الجزائر امام انفسهم، وأمام العالم . وضعفهم هذا هو معنى انهزامهم ، عن قريب . غير ان سهو سارتر عن ببان هذه الحقيقة في تحليله لما سماه « وباء التعذيب »ناجم عن ايمانه بأن انهيار فرنسا لم يتم بعد . ولكن ألا يرى سارتر انها في طريق الانهيار ؟ ألا يرى في تصرفاتها ، في قرية ساقية سيدي يوسف التونسية ، بربرية المنهارين ؟!

ان ما يرويه بيير أليغ في كتابه « الاستجواب » لا يكشف عن أمة وقفت على هوة « اللاانساني » فقط ، وانما يؤكد انها سقطت في تلك الهوة . ولن ينتشلها منها سوى الاعتراف بالحقيقة ، والرجوع عنالخطأ، واعطاء كل ذي حق حقه ، ثم البدء من جديد على اسس عادلة ... في العلاقات والمعاملات .

السياسة العربية في شهر

هذا العرض للتاريخ الراهن ، على يد الاستاذ محمد النقاش ، يشكو كثيرا من فقدان « الروح التاريخي » ، ويربط القضايا العامةباعتبارات حماسية وذاتية ، قد تكون اليوم على جانب كبير من الافادة في توجيه القراء ، وتركيز انتباههم على احداث لها قيمتها الراهنة ، ودلالتها الصحيحة ، ولكنها تظل « اعتبارات »ظرفية ، تنقصها موضوعية البحث الهادىء الذي يترك الاحداث وحدها تتكلم ...

ولن آخذ دليلا على ذلك سوى موقفه من دستور الجمهورية العربية المتحدة ، اذ يقول : « والعجيب ان الذين طالما تذرعوا بنص الدساتير القديمة في سورية ومصر على الاسلام دينا للدولة ، حجة للدس والتفرقة والتمسك بأهداب الاجنبي ... اصابهم البكم امام النص الجديد ،فبلعوا ألسنتهم وأكلوا اقلامهم ، لم يلعنوا ولم يباركوا ، كأن الامر عادي وكانه ليس تطورا خطيرا يستحق الذكر والتنويه ... » ثم يضيف الى ذلك قوله : « نحن نعتقد ان المسألة اكثر من تطور . انها ثورة ، ما كان غير عبدالناصر انيقدم عليها ، ولئن استطاع الاقدام عليها بسهولة ، فلانه رجل كبير ، آمن به الشعب ووثق بايمانه المتين »

لم هذا الاهتمام ، في معرض تقرير الوقائع ، بأهل الدس والتفرقة ؟! ولم التحدث عنهم في شأن وقفوا حياله ساكتين ؟! وكيف يطلب اليهم ان يذكروا امرا وينوهوا به ، وهم المتمسكون بأهداب الاجنبي ؟!

اما ان المسألة ثورة ، وأنه لا يقدم عليها غير الرئيس عبد الناصر لانه رجل كبير آمن به الشعب ، فذلك ترجمة غير كاملة للواقع .



الواقع ان الشعب العربي انتهى من تجاربه الطويلة الى النتيجة التي قررها الاستاذ النقاش ، قبل الفقرة التي نقلناها بقليل وهي ان « الدين دستور سماوي ، يقرر علاقة الانسان بالله ، بينما دستور الدولة دستور دنيوي يقرر علاقة المواطنين بعضهم ببعض » .

انتهت التجربة العربية ، في اكثرية البلدان ، الى هذه النتيجة ،ومذ كان الرئيس عبدالناصر ، يمثل الشعب العربي في ارقى افكاره ، وأغنى تجاربه ، وأفضل اتجاهاته ، استجاب لهذه الافكار والتجارب والاتجاهات، وألغى النص على دين الدولة في الدستور ، وكان الشعب مرتاحا ، مطمئنا ... هذا كل ما هنالك !

ثورة الابداع والثقافة

ويقف الاستاذ مطاع صفدي موقفا مشابها لموقف الاستاذ النقاش ، في تحمسه وطغيان عاطفته ، في معرض درسه لتاريخ العرب الثقافي الحاضر. وكل ما يريده ان يستبق العرب اليوم الزمن بتفكيرهم ، ويجعلوا للاحداث « قناة » تجري فيها يحفرها لهم « العقل » كي لا تفرقهم الاحداث المقبلة ، ويفقدوا سلطانهم عليها ، في المستقبل .

الا انه يتناقض تناقضا عجيبا ، اذ يعود فيقرر : « نحن نستطيع ان نجزم بسرعة ان الثورة العربية ، الثورة التي تطفح الان من جميع تفاصيل واقعنا اليومي والعاطفي والذهني ، انما هي ثورة بنت المجهول ، انها ثورة قدر عميق جبار ، يصعد من خلفية هذه الامة ، بل من اعماقها ،ونحن لا نملك ازاءه الا الدهشة وشيئا من القلق ، وشيئا من التساؤل : انحن صنعنا كل هذا ؟ »

الصفدي هنا ، في هذه الفقرة« غيبي »النزعة ، قدري التفكير ،وجودي الاحساس ، بينا هو في الفقرة التي سبقتها كان عقلاني النزعة ، يؤمن بالتفكير المنظم ، ويدعو الى التخطيط . وهو في الحالتين مخطىء.

هناك مبدأ علمي ، في تفسير سلوك الانسان ، يقرر ان الفكرة تجنح لان تكون عملا ، وليس من واقع اجتماعي معين الا ووراءه مجموعة « افكار » أفضت بتحققها اليه . وذلك يعني انه من المستحيل علميا ان تكون ثورة « بنت المجهول » وانما تكون دوما وليدة تيارات فكرية حلمت بها الاجيال السابقة . والثورة العربية الراهنة ، تحقق عفوي للافكار والاراء والتيارات القومية التي نمت وترعرعت في الاقطار العربية ، منذ قامت ثورة اليمن على العثمانيين ــ وهي اول ثورة عربية تحررية خالصة ــ الى يومنا هذا ، وغني عن البيان ان لتلك الافكار والاراء والتيارات، جذروا قوية في تربة العروبة ومناخها الثقافي ، وتكونها التاريخي ، التي يمكن تلمسها والاهتداء اليها بسهولة . فثورة الجزائر اليوم تتمة لمقاومة الجزائريين عام ١٨٣٠ ، وفرع قام على جذع النضال الهائل الذي نهض به عبد القادر الجزائري المشهور ، وهكذا ... الى ما لا نهاية ، فيثورة مصر ، وانتفاضات الاقليم السودي ، ووثبات العراق التي لم تنقطع ، ومعركة عمان في شرقي الجزيرة ، ونضال التونسيين والمراكشيين ، من اجل الاستقلال .

اما « ثورية العقل والثقافة » التي يشعر الاستاذ الصفدي ان العرب في حاجة اليها ، فانها لا تنفصل ابدا عن الثورة الاجتماعية ــ السياسية، فهما ، في التحليل الاخير ، شيء واحد . وكل تقهقر اجتماعي او سياسي، يشير حتما الى تقهقر عقلي او ثقافي ، والعكس بالعكس ، واذا وقعنا على ظواهر من شأنها ان تهدم هذه القاعدة او تثير الشك في صحتها ، وجب أن نحلل تلك الظواهر ، وتحليلها يقودنا حتما الى اكتشاف الزيف والخداع والدعاية المضلله ، كأن يظهر بلد ما انه راق متمدن متعلم ،وأهله يغوصون في اوحال التفرق والتخاذل والعجز تجاه الاحداث وتغلب الانانيات الفردية على المصالح العامة ، فالمظهر هنا ، لا يعدو ان يكون مظهرا ، وجوهره هو الانحطاط والاضطراب والضعف .

ليطمئن اذن الاستاذ الصفدي ، فما دامت الثقة السياسية قائمة ، والنهضة الاجتماعية سائرة في ديناميتها المنتجة ، فلا بد وأن تنتهي الجمهورية العربية المتحدة ، الى ثورة ابداع وثقافة ..

التحدي والجواب عند توينبي

يحاول الاستاذ محيي الدين اسماعيل ، في مقاله هذا ، ان يقدم للقارىء « زبدة » ما جاء به ارنولد توينبي ، من آراء في فهم التاريخ الانساني، وقد وفقفي محاولته هذه ، احسن توفيق .

غير اني كنت اود ان لا يكتفي بالعرض المجرد ، فآراء توينبي تشكل خطرا حقيقيا على الناشيء الذي يأخذ بها من قراء العرب ، ولاسيما في المرحلة الراهنة من تاريخنا ، لان هذه الاراء تشكو من ثغرات فراغ ثلاث هي : ١) انها صوفية التفكير ٢) مضطربة في تفهم الحس القومي ٣) تؤيد ــ رغم صوفيتها ــ الحركات الاستعمارية .

« يذهب توينبي الى ان الفرصة الوحيدة لانقاذ الحضارة الغربية بأسرها ، هي بعث الروح الديني ، بأوسع معانيه ، اذ ان هذا الروح هو ينبوع الفعالية الفردية . فالفرد هو المبدع ، والافراد هم اسس الحضارات العظيمة » .

هذا التفكير الصوفي يغفل الوقائع ، والتجارب ، ويتيه من المجردات في ضباب معتم ، فالحضارة الغربية في اساسها ، ومتجهاتها العامة لم تقم على الروح الديني ، ليستنقذها هذا الروح ، وقد مرت بالتجربة الدينية في القرون الوسطى ، فلم تستطع ان تتابعها ، وسارت عليها ،ودكت بناءها ، وخرجت منها الى الاستعمار في ابشع جرائمه ، وأحط معانيه وصوره ، وها هي اليوم تعاني النزاع ، لا لانها فقدت الدين ، بل لانها تستثمر الاديان في الابقاء على سيطرتها وتحكمها . وهذه النزعة الى استثمار كل شيء حتى الدين نفسه ، هي التي كانت السبب في صعود الحضارة الغربية ، وهي التي تكمن اليوم وراء انحدارها .. وليس لها بعد في الامر حيلة ، لان الانحدار الذي تعانيه الان، لم ينشأ عن نفسها ، ولا عن انتقاضها على الاسس التي صعدت فوقها اول ما صعدت، وانما هو وعي الاخرين ، وتحديهم الاخلاقي لها وانتصارهم عليها في هذا التحدي ، دون ان تملك جوابا ...

اما اضطراب توينبي في تفهم الحس القومي ، فهو انه لم يلتقط الفروق بين قومية وقومية ، وحسب ــ خطأ ــ ان جميع القوميات تنزع الى التفوق العسكري ، والفتح والاستعلاء ، كما هي الحال في القوميات الغربية ، ولذلك ، حمل على « الوثنيات » القومية ودعا الى التخلص من « صنم » الامة ــ الدولة !

وجه توينبي هذه الدعوة ، في الوقت نفسه الذي كان يدعو به الى تمجيد الفرد واعتبار الافراد اسس الحضارات ، وفي الوقت نفسه الذي يسخر به من « كاتو » ويثني على يوليوس قيصر ، مع ان يوليوس قيصر بداية الطغيان والحكم الاستعماري في روما ، وكاتو هو المتشرع الذي حاول تركيز الحياة العامة ، وفق قوانين رآها عادلة . وبهذا يؤيد توينبي الاستعمار من حيث لا يشعر ... تماما كما يؤيد المتصوفون الطغاةبمجرد

انصرافهم عن الحياة الى شؤون يحسبونها فوق الحياة وأسمى منها .

وقد كان حريا بالاستاذ محيي الدين اسماعيل ، ان لا يترك هـذه النقاط في حديثه عن توينبي ، دون ان يشير اليها .

حدود الفنون وحكاية الالتزام

هذا البحث يقف على شفير هاوية : الشفير هو التجريد ، أي اخذ الكلمات ذات المعاني المجردة ، والبناء عليها ، دن استقراء عملي ،للوقائع والنتائج والاثار والاشخاص ... والهاوية هي الغموض ، والتيه،والضلال، واستحالة الوصول الى نتيجة . والوقوف على شفير هاوية لا يعني الوقوع فيها ، وانما يعني ان الخطر ، خطر الوقوع ماثل في كل آن ، في كل لحظة .

علينا ، كي نفهم الالتزام في الفن ، ان نعالج الموضوعات الاتية : ١) علاقة الفنان بالمجتمع ٢) حرية الفنان ٣) معنى الالتزام في الفن من حيث انتاج الاثار الفنية . ٤) الامثلة الواقعية التي يقدمهاالتاريخ من الفنانين وآثارهم . ٥) ربط هذه الموضوعات فيما بينها ، واستخراج النتائج العملية ، او الحقائق الاخيرة .

اما ان نتحدث عن ((الفنون)) و ((حدودها)) ونفصلها فصلا اصطناعيا الى كومنين مختلفتين ، بين حواسية، وروحية ، ونلقي الف سؤال وسؤال حول الموسيقى والنفس ، وطبيعة الرسم والعمل الكتابي ، وموقفنا من رفض تأثر او قبوله ، فاننا نقع دون ان نشعر في ((الهاوية)) التي تحدثت عنها .

لو كان لي ان اخوض في حديث ((الفن والالتزام)) ، لتحدثت بالتسلسل عن شاعر مثل طاغور ، ونحات مثل رودان ، ورسام مثل بيكاسو ،ومؤلف موسيقي مثل فاغنر ، وأديب مثل الجاحظ ، ودرست علاقة كل من هؤلاء بمجتمعه ، والخدمة التي اداها فنه ، وما هو مدى الحرية التي كان ينعم بها في نفسه وحياته ، وكيف التزم بما اعطى من آثار ، وهكذا ... الى ان يتضح لكل قارىء موقف الفنان الحقيقي ، المشهود له بالموهبة والتأثير من مشاكل الحياة والمجتمع .

ذلك بان الالتزام ، وكل مايتعلق به من افكار وآراء ونظريات ، يدور حول علاقة الفنان بالمجتمع ، ووظيفة فن ما في حياة مجتمع معين ، في عصر معين . وهذه العلاقة ليست مما يستطيع احد انكاره ، ولا سبيل الى التهرب منها ، فان تهرب بعض الفنانين منها اكبر تأكيد على قيمتها، وقوتها وشدتها ...

بقية الابحاث

كان علي ان اتحدث للقـراء بعـد ، عن ((تطور شعر الوجدان النسائي المعاصر)) وقد رأيت الدكتور محمد مندور يروي اشياء عن ذلك الشعر تحتاج الى اطلاع دقيق ، وتتبع مفصل للشاعريات النسائية ، مما لا املك ان اعطي فيه رأيا مؤيدا بالبراهين والشواهد ، ولكني لاحظت انالدكتور مندور لم يربط بين الاحداث الاجتماعية التي حدثت وأدت الىتحرير المرأة ، وتطور الشعر النسائي . فهذا الشعر لا يختلف في قليل ولا كثير، من هذه الناحية عن شعر الرجال .

اما حديث المداوي عن نجيب محفوظ ،وسلمى الخضراء الجيوسيعن شعر خليل حاوي ، فلم اعرض لهما ، لاني لم ادرس محفوظ في قصصه، وحاوي في شعره ، لاقرر شيئا حول نقد كل منهما .

عبد اللطيف شراره

الجمهورية العربية المتحدة

قضايا الفكر العربي الحديث

لمراسل « الاداب » في دمشق

دعت حلقة الدراسات لجمعية الادباء العرب بدمشق الى عقد ندوة للتباحث في قضايا الفكر العربي الجديد . وقد دار النقاش في الاجتماع الاول بين اربعة من اساتذة الجامعة (كلية الاداب والتربية) هم :الدكتور حكمة هاشم ، والدكتور عبدالكريم اليافي والاستاذ حافظ الجمالي والدكتور ابراهيم كيلاني . وحضر الاجتماع بعض اعضاء حلقة الدراسات . وتولى احدهم طرح الموضوع وكان على الشكل التالي :

« يتساءل المثقفون العرب اليوم بعد الوحدة : ترى ماذا أعد المفكرون في البلاد ، لملء هذا الفراغ الفكري الذي نشعر به ، لتعقيل واقعنا الثوري المتعاظم بالحوادث الجبارة التي تخلق للامة كيانها السياسي والقومي ؟وما ثقافة تعادل في عمقها وشمولها احداث واقعنا السياسي والقومي ؟ »

ثقافة تعادل في عمقها وشمولها احداث واقعنا السياسي والقومي ؟ »

ولقد تتابع النقاش بين الاساتذة في جو من الثقة والتفاؤل . ونحن نحرص هنا على نقل هذه الجلسة الجديدة من نوعها لاهمية الافكار التي تعرض المتناقشون لها ولما تنطوي عليه من محاولة لايضاح نقطة الانطلاق هذه لتأسيس تفكير عربي قويم .

بعد ان طرح الموضوع تناوله الاستاذ الجمالي قائلا :

ـ ان حركة التفكير العربي الجديد لا يمكن ان تكون مهيأة بشكل مصطنع ، بل هي نتيجة تفاعل حضاري يصل بحركته العفوية الىمستوى الابداع المطلوب . ونحن في ذلك لا نخالف مثلا انطلاقنا الحضاري القديم في القرنين الثالث والرابع الهجري عندما كان مستوى الحضارة قد مكن من ظهور علماء ومفكرين لفتوا انتباه العالم . فلا اظن انبوسع فئة من المثقفين ان تتفق فيما بينها مثلا لتخطيط هذا التفكير المنشود.



الدكتور هاشم : نريد للفكر العربي شمولية وكونية تثبت انسانيته



الدكتور كيلاني : على الفكر العربي أن يحدد مواقفه من تيارات الثقافة الغربية

وأما المفكرون الذين نصبو اليهم فان ظهورهم على مسرح تاريخنا لا يتوقف علينا ، انه مرتبط بحركة الحضارة العفوية .

وانتقل الحديث الى الدكتور هاشم فقال :

انا لا احب كلمة الفراغ الفكري لانها تذكر بالفراغ السياسي الذي حاول البعض ايهامنا به لاغراض استعمارية معينة ، وافضل كلمة التفاعل الحضاري ، لانها تفي بالمطلوب . انني اتصور هذا التفكير العربي الذي نحن بصدده يجب ان يكون آخذا معطيا من حضارة الانسانية كلها . اي يجب ان يكون فكرا شموليا وانسانيا معا . والسؤال الذي علينا معالجته بالفعل الان هو : كيف سيكون هذا التفاعل الحضاري ؟

وقال الدكتور كيلاني :

انا مع زميلي الدكتور هاشم في نكران وجود فراغ فكري . وعلى العكس فان الفكر العربي سائر في طريقه ، كما انه في طريقالتفاعل مع الحضارات التي يتأثر بها في الوقت الحاضر . ولكنني اتمنى ان تحدد الطليعة الفكرية موقفها من قضايا كثيرة عالمية تعترض المفكرين العرب ، وبصورة أدق اقول يجب الا يترك الفكر العربي الان في شبه تفاعل حر يخضع لتيارات معينة دون اخرى . فلا مانع من ان تحدد الطليعة هذه موقفها من قضايا كثيرة اجتماعية فكرية ، او حضارية ،فترسم بذلك الطريق القويم الذي يمكن أن تسلكه الجماهير العربية في الوقت الحاضر .

وقال الدكتور يافي : اعلق على ما سمعت : الموضوع كما اعتقد هو موقف الفكر العربي : الفراغ والتفاعل الحضاري مع الحضارات الاخرى . وانني اتجاوز المفهومين وأقول بأنني متفائل بأن الفكر العربي بمظاهره المختلفة ذو اصالة واضحة ، فلا ينبغي ان نقف عند حدود التجريدات بل علينا ان نتميز مجاليه في السياسة والادب والاندفاعات القومية الكبرى .. ان الظاهرة التي تبرز الان في واقعنا العام تتميز بالتمرد ، التمرد على كل شيء ، التمرد على الاطر القديمة في حياة الشعبالعربي، وعلى الصيغ الاجنبية المعاصرة . فهناك اذن خصائص يمتاز بها الفكر

النشاط الثقافي في الوطن العربي



الاستاذ الجمالي : ان الفعالية الحضارية هي التي تخلق المفكرين والفكر العربي بعفويتها الطبيعية ودون تهيئة سابقة

العربي ، كما تمتاز بها فعاليتنا السياسية . ولقد بلغ هذا التمرد درجات رائعة من البطولة . ونحن اذا لاحظنا الطابع العام للفكر العربي وجدنا ان موقفه يقوم على التفاؤل البناء في حين نلقى الكتب الاوروبية مشوبة بروح انحلال واضحة . فالفكر العربي هو في صعود وانطلاق ، ولا اجد فيه ما يعرب عن التشاؤم .. الا بعض ما يصدر عن المتأثرين بالحضارات الاجنبية . بينما نستطيع أن نحدد وضعنا الفكري الحاضر بأنا على اهبة بناء وخلق ... ولو تركنا السياسة الى الادب فانني رغم اعجابي بالادب القديم الا انني احب المحدثين مع انهم متأثرون بتيارات الادب الاوروبي. انني اجد ادباءنا المحدثين مبتكرين مجددين . وعلى هذا فانا متفائل بتمرد الفكر العربي الحديث والمستفيد من غيره ، ضمن موقفه البطولي الرائع.

وتحدث الجمالي : اظن ان المشكلة بدأت تتضح ، فليس الموضوع هو البحث عن اصالة الفكر العربي . ان الحديث ينبغي ان يدور حول ما يستطيع ان يقدمه المفكرون من مؤازرة للنهضة العربية الحديثة .فالادب متعلق بالحياة الاجتماعية في جميع مظاهرها من عمق او سطحيةوتفاهة. والسؤال هو هل نستطيع ان نفرض على المفكرين والادباء تآزرا وتعاونا مع حركة النهضة العامة يفضيان الى نموها والتعبير عنها في الوقت ذاته .

وقال الدكتور هاشم : هل نعني نحن بتجرد الفكر العربي انه ثورة على جميع القيم التي اتت بها الحضارة الغربية او انه تمرد على شكل من اشكال هذه الحضارة ؟

وأجاب الدكتور يافي : ما زلت عند كلامي عن اهمية دور النقل والتأثر البعيد ... ان اكثر النظريات الاجتماعية والادبية التي وجدت فياوروبا انما مردها الى النظم الاقتصادية السائدة . فينبغي لنا ان نوضح مواطن الضعف في النظريات الاوروبية البورجوازية . ان هذا الضعف يظهر خاصة تلقاء النظريات الاشتراكية . والفرق بين الاتجاهين البورجوازي والاشتراكي يتجاوز الادب وعلم الاجتماع الى علم الحياة (البيولوجيا).

ولذلك لا بد لنا من الدقة في تلمس خصائص الفكر العربي وما يحتاجه من الغرب وما عليه ان يتحاشاه .

الدكتور كيلاني : اعود الى الفكرة التي طرحها الاستاذ الجمالي . فهل يجب ان يكون دور المفكرين العرب قائما على المساهمة في تكوين المجتمع العربي وخلقه . ام انه يقتصر على ان يصوروا مظاهره ويعبروا عنه .. اقول الفكرتان متشابهتان فاذا كان لا بد من خلق تيارات فان المفكرين هم الذين يعكسونها على المجتمع . فالفكر العربي لا يعاني في الحقيقة فراغا ، بل ازمة خلقتها التيارات المختلفة . والعالم اليوم يعاني من التغيرات والتطورات المتأزمة ما يوجب على الفكر العربي ان يحدد موقفه من تياراته اجتماعية ام اقتصادية .. هناك نظم عالمية قائمة لا يمكن للفكر العربي ان يقف منها محايدا .. فهو لا بد له من ان يلجأ الى اسلوب انتخابي اصطفائي يناسب العبقرية العربية وروح النهضة الحديثة ، يستفيد منها في سيره النضالي ... ان الازمة هي ازمة ابداع . فلا مانع ان يأخذ العرب من الغرب ما يناسب رسالتهم التاريخية . اعود فاقول ماذا يجب على الفكر العربي ان يفعله تجاهالقيم التصاعدية .

الدكتور هاشم : نحن متفقون على ضرورة اتخاذ موقف واضح للفكر العربي وأود ان ألح على انه لا ينبغي ان تذكر الصيغ الحضارية وتلحق بصفة معينة ، كأن نقول الفكر الاوروبي منهار او غير ذلك . ان الفكر العربي يجب ان يشارك في جميع التيارات ، فلا يقف موقف المعادي من كل فكر في الغرب تبعا للعداء السياسي . فالشمولية والكونية هي الصفة التي يجب ان يمتاز بها الفكر العربي .

الاستاذ الجمالي : ان كلام الدكتور هاشم صحيح . ولكننا ما زلنا مع ذلك امام نفس الموقف ونفس السؤال فهل يمكن ان ندعو الى ان يلتزم المفكر كما يلتزم الاديب ، ام ان المشكلة تتوقف على مجموعة الشروط الحضارية والاجتماعية التي تدفع الى ظهور فكر معين ومفكرين .. انا احب ان يكون المفكرون جديين يرتفعون الى مستوى الحضارة التي



الدكتور اليافي : طابع الفكر العربي اليوم هو التمرد وتلك هي بطولته واصالته

يعيشونها وأن يهبوا انفسهم لها . وأما ان تفرض على المثقفين منذ الان واجبات معينة او دعوة ما فانا ارى ان ذلك يتجاوز طاقة كل مثقف في الوقت الحاضر .

دكتور يافي : قد نستمر طويلا ما دمنا نخوض في التجريدات . علينا ان نمارس الواقع ونصب فعاليتنا ضمن جذور الواقع هذا .فنميز بين التيارات العالمية حتى يتضح موقفنا .

وعند هذا انتهى الوقت المحدد للندوة في تلك الجلسة التمهيدية ، واتفق على متابعة الحديث في جلسة قادمة حول موضوع ما يجب على الفكر العربي ان يأخذه عن التيارات العالمية وما عليه ان يهمله .

★

مع الدكتور ... زكي نجيب محمود !

بقلم خليل هنداوي

كان المحاضر ، هذه المرة ، في موسم المحاضرات الذي تعده دار الكتب الوطنية بحلب الدكتور زكي نجيب محمود :

ونزل الدكتور مدينة الشهباء ، حين كانت الشهباء غارقة في احتفالات زيارة الرئيس جمال عبد الناصر . لذلك ضاع صدى نزول الدكتور على المدينة في تلك الاصداء البعيدة . ومن الحق ان يكون يوم زيارة الدكتور عيدا . عيدا للادب الذي يمثله الدكتور بنضجه وذوقه وسلامة تعبيره ، وعيدا للفلسفة التي يحمل الدكتور صولجانها ، ايام لم يكن للفلسفة عندنا صولجان . ومن ذا ينكر ما قدمه الدكتور من آثار خصبة ، ودراسات فلسفية غصت بها مجلة الرسالة يوم كانت هذه المجلة رائد الادب الصحيح والثقافة العميقة . ثم مجلة الثقافة ، ثم دور النشر الكبرى التي تتولى اليوم نشر ترجماته ودراساته .

أقبلت على النزل للقاء الضيف ، وانا على ثقة باني لن استقبل ضيفا غريبا ، وانا استقبل اخا حبيبا ، تزاملنا على صفحات مجلة واحدة ، وترافقنا في موضوعات واحدة . دون ان اراه ، ودون ان يراني .

لقد كان السلام موجزا ، كان سلام اصدقاء لم يطل فراقهم ، ثم ابتدرني سائلا :

ـ لا ازال اذكر كلمتك الرقيقة في مجلة الرسالة ..!

وحقا ، لقد نسيت تلك الكلمة ، ان لم انس تقدير الشخص الذي قلت فيه كلمتي ...

وابتدرته سائلا :

ـ ما حال الادب الان في مصر ؟

اجاب :

ـ كما تعهد ... الا تجد الجواب الشافي في تلك المجلات الدسمة التي توارت ؟ كالرسالة ، والثقافة ، والمقتطف ، والكتاب ؟ لقد فكرنا ان نعيد اصدار مجلة الثقافة ، ولكن الخوف غلب علينا ... هل تستطيع الثقافة الاصيلة ، الصافية ان تزاحم هذه المجلات الفانيات ، الفاتنات ؟

سألته :

ـ الى اي شيء تعزو ذاك؟ وهل هذه «الفتنة» هي كل شيء في الموضوع

فأجاب الدكتور ، وكان صريحا في اجابته ، مصيبا قلب الحقيقة :

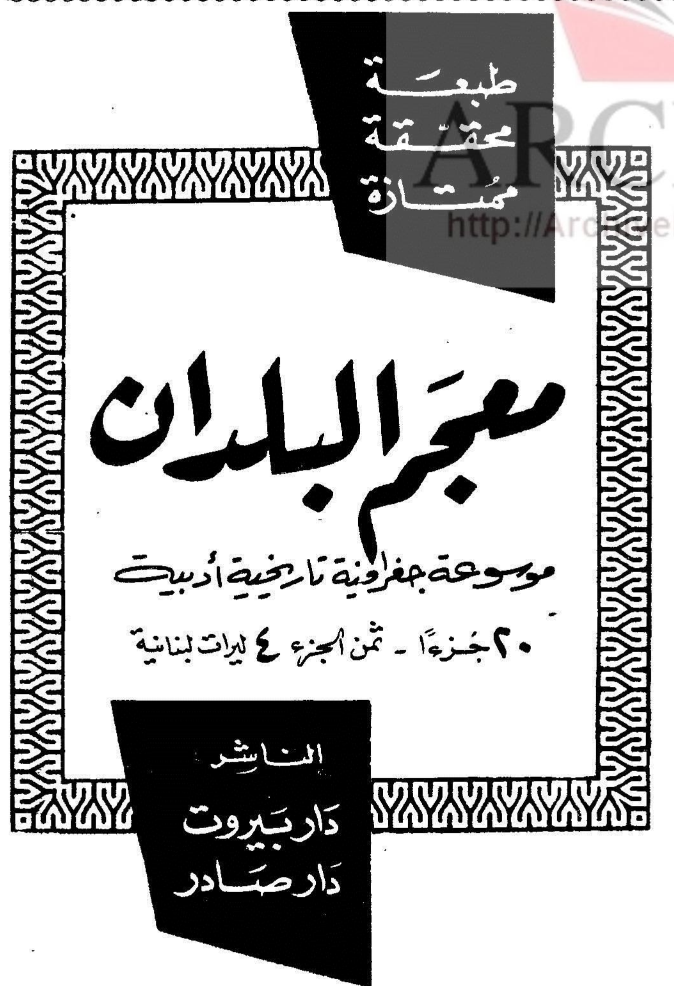
ـ لنعترف بان ، هنا ، جيلين : الجيل الصاعد وهو جيل الشباب . والجيل « النازل » او « الهابط » كما يدعوننا ... ولنفرق بين اسلوبين مختلفين في الكتابة عند هذين الجيلين : فالجيل الصاعد ان يكتب بأعصابه ، وقلبه ، ويحيا مع مشاكل اليوم ، ويتحمس لما يتمخض به المجتمع ... ولكنه ـ ويا للاسف ـ لا يأخذ عقله بالتفكير والتهذيب كما يأخذ قلبه بالحماسة . فهو يحسن مرة ، ومرة ثم يقف عند الحد الذي وصل اليه ، لانه يبدأ يكرر نفسه ، ويعيد صوره ، وسيظل يفعل ذلك ما دام لا يغترف من مناهل الثقافة مثل ما يغترف من مناهل المجتمع الحي ، لان عالمه ، في هذه الحالة ، سرعان ما يتقلص او يتكلس .

بينما نحن ـ الجيل الهابط ـ كنا نكتب بعقولنا وحدها ، بدراستنا ، ومطالعتنا ، ولذلك بتنا بعيدين عن تيارات المجتمع ، غرباء عن مشاكله ...

فأجبته :

ـ ذاك حق ... لان الكتابة كانت ، آنذاك ، تتمثل في هذا الضرب من الثقافة والتفكير « السماوي » ! وقد عشنا ادبيا في الجيل الذي تصدرت فيه المدارس الفنية ، وغلبت على كل شيء ... والنظرات تتبدل ، والحاجات تتبدل . وتاريخ الادب يحفظ هذه التبدلات ، كما تحفظ الارض طبقاتها ! وماذا ندري عن خصائص الادب الاتي ؟

ـ لقد كان شوقي وحافظ يستجيبان في شعرهما لكل حادثة من حوادث عصرهما ، فاخذ عليهما الناقدون فيما اخذوه « ان شعرهم شعر مناسبات ، ومثل هذا الشعر يطوى مع المناسبة التي يجيء معها ... »



وكان اليوم ، ان عاد الادب الى « المناسبات » يستوحيها ... والا ... فما هو هذا الادب ! وما هو هذا الشعر ؟

ونرى الدكتور طه حسين يتأثر بالجو الفني العالي ، فيقدم ١٩٣٣ على تعريب كتاب « النفس والرقص » لبول فاليرى ... ولكنه بدأ فصلا او فصلا ولم يكمل ... ونحن لا ندري لماذا فعل ؟ ولماذا وقف ؟ ولكن نعتقد بانه كان يود ان يغني المكتبة العربية ، او الفكر العربي « بهذه النظرات الفنية الواسعة » التي يفتقر اليها الادب العربي . ولعله لم يجد صدى لهذا النقل ، فأهمله .. ومثل هذا اللون « الفني » هو غذاء ذاتي ، او حلوى فاخرة لا يأكلها الا صفوة مختارة . وليست من الاطعمة الفردية الشاملة .... ولكن هذا لا يمنع ان يأخذ بهذا اللون بعض الادباء ، ليعملوا على تطوير الاسلوب ، وتنمية الذوق الفني .

ثم كررت عليه هذا السؤال :

ـ وما هو الحل للمشكلة ... الحل للقاء الجيل الصاعد بالجيل الهابط ؟

وطبعا ضحكنا لهذه النكتة ، لاننا ، على حد قوله « نمثل الجيل الهابط » فاجابني :

ـ خير حل هو الحل الوسط ، هو الحل الذي يلتقي عنده الصاعد بالهابط .. هو دور « بندول » الساعة حين يقف بين اليمين والشمال ، ليخلق جيلا وسطا ، يحترم عقله ، ولا يهمل قوت العقل والثقافة ، ويلبي قلبه ، ويستجيب لاعصابه ، حتى يعيش المشكلة التي ينصب عليها .

وسألته :

ـ انني اعرفك يا دكتور ذا نشاط فلسفي يتمثل في دراساتك الحديثة وترجماتك الكثيرة . وقد عرفت ان لك نشاطا في مجلس الاداب والفنون .

فأجاب :

ـ انني مع لجنة الشعر .. ومثلك لا يستغرب ان يشترك في الشعر من عمل للفلسفة ... ولكني من مستهلكي الشعر ، لا من منتجيه ، ونحن الان في الطريق الى احياء دورة شعرية في القاهرة ، يتمثل فيها الشعراء العرب . وقد انتهينا من طبع المجموعة الاولى التي كان المشتركون فيها قلة ... ولذلك لن تكون ممثلة لالوان الشعر العربي كله ... وما نشرنا الا ما ورد علينا ... وخشينا ان نتصرف بانفسنا ... فتركنا الامر للواقع ...

وسألته :

ـ ومن يرأس هذه اللجنة ؟

فقال :

ـ الاستاذ عباس محمود العقاد ، وله شعر منشور كما تعرف . وقد ترجمت له مقاطيع كثيرة الى الانجليزية ... والعقاد ـ عندي ـ يمثل الشخص الاول الذي يطالع كثيرا ، ويتمثل ما يطالعه بقوة ، ويكون لنفسه رأيا حصيفا فيما يطالع ... والعقاد شخصية قوية ـ في تفكيرها وتعبيرها ومنطقها ـ لا يرقى اليها الكثير من ادباء اليوم .

وجاء ـ هنا ـ دور المحاضرة التي تناولت الحديث عن « اتجاهات الفلسفة المعاصرة » :

بعد مقدمة « تحليلية » برر بها دراسة الفلسفة باعتبارها (ابراز الجانب المضمر في احاديثنا لعرضه امام الابصار صراحة وعلانية) تساءل المحاضر:

« في اي عصر من عصور التاريخ نجد ان التفكير في كل عصر منها على تعقده وكثرة عناصره ، انما تدور رحاه حول قطب رئيسي او اقطاب قليلة العدد ـ العصر الواحد تسوده فكرات رئيسية قليلة العدد جدا ... يظل الناس يبدئون فيها ويعيدون ـ حتى اذا ما دامت هذه الفكرات الرئيسية بضعة قرون وحلت محلها فكرات رئيسية كان ذلك ايذانا بعهد فكري جديد .

الفلاسفة يتناولون او يؤثرون الافكار الرئيسية ... خذ عصر اليونان مثلا نجد مشكلة الكبرى هي الاخلاق ... فكرة الخير او الفضيلة .

ثم ظهرت المسيحية والاسلام ـ اصبحت للعصر فكرات امهات ـ فلبثت الفلسفة اكثر من عشرة قرون ـ هنا وهناك ـ تدور حول هذه المدركات الرئيسية تحليلا وتوضيحا ، شرحا وتعليلا ... الناس يتبادلون الفكر على عجل ـ والفلسفة تتمهل وتتروى لتشرح للناس فكرهم .

ذهب العصر الوسيط ـ ونهضت اوروبا الى عصر جديد ... فرخالة وعلماء يتطلعون وراء مناظيرهم ـ « الطبيعة واسرارها » تلك هي انشودة اوروبا في عصر نهضتها « خروج الانسان عن حدود نفسه الى هذا الكون الفسيح ـ ولكن اين يقع الانسان في هذا كله ؟ ... ها هنا جاءت المهمة الاولى للفلسفة الحديثة ـ وهي ان توضح كيف يتاح للانسان ان يدرك ما يدركه عن العالم المحيط به » .

بدأ عهد جديد من تعاون العلم والفلسفة في الفترة الواقعة بين القرن

السادس عشر الى اواخر القرن الماضي .

وجاءت المائة سنة الاخيرة من منتصف القرن التاسع عشر الى منتصف القرن العشرين ، وفيها من نتائج العلم ما انبث بجذوره في جوانب الفكر كلها . ومعها نظرية التطور في علم الحياة ، ونظرية الذرة في علم الطبيعة ، ونظرية اللاشعور في علم النفس .

اما نظرية التطور في علم الحياة : فقد اذابت الفواصل التي تميز الانواع الحيوانية بعضها عن بعض . وجعلت هذه الكائنات حلقات من سلسلة ، كل حلقة منها تؤدي الى الحلقة التي تليها . وبهذا تداخلت الانواع القديمة بعضها في بعض. وهكذا لم تعد حقيقة الكائنات الحية شيئا ثابتا جامدا ذا حدود وفواصل ، بل هي متطورة متغيرة بحب قانون صلاحية البقاء .

واذا كانت صلاحية البقاء وحدها هي المقياس في علم الحياة ، فهي وحدها كذلك معيار الحق . فالحق هو اي شيء يمكن ترجمته في الحياة العملية سعادة وخيرا للبشر اجمعين . وهذا هو لب الفلسفة البرجمانية المعاصرة ... انه لم يعد معنى لقولنا ان هنالك حقيقة خارجة عن الانسان وحياته ، وان واجب الفلسفة هو البحث عنها . بل الحقيقة هي نفسها ما يخدم صالح الانسان ..

ولئن كانت نظرية التطور في علم الحياة عاملا من العوامل التي قضت على « السكونية » ، فقد جاءت نظرية الذرة ، فأكملت هذا الاتجاه . والقول بالذرة قديم قدم اليونان . لكن اصحاب مذهب الذرة كانوا يعتقدون ان تلك الذرات الصغيرة هي أجسام صلبة ، محددة الاشكال ، ثابتة الصفات ، متميز بعضها من بعض . ثم جاءت النظرية الذرية الحديثة في علم الطبيعة ، تذيب هذه الذرات الصلبة ، وتجعلها وحدات من طاقة بعد ان كانت وحدات من جماد .. والذرة الواحدة شحنة كهربائية !

وما مغزى ذلك بالنسبة الينا ؟ مغزاه ان حقائق الطبيعة اصبحت احتمالية ، يقينية . نسبية لا مطلقة . ان الطبيعة لم تعد شيئا مصمتا ساكنا ، ثابتا ، نستخرج له قوانينه الثابتة المطلقة ، بل اصبحت حركة دائبة ، ونشاطا متصلا ، وتغيرا لا يثبت على حال .

واذا كان ذلك صحيحا بالنسبة للطبيعة ، فماذا تقول في الانسان ؟ ايمكن ان يكون في وضع من اوضاعه الفردية او الاجتماعية ثابتا ثبات الابد ساكنا سكوت الموت والعدم ؟ كلا ، بل الفرد الواحد ، والمجتمع كله يستحيل عليه الجمود والركود . وليس هنالك من الحقائق الا هؤلاء الافراد وهذه الجماعات في حيويتها وتغيرها .. لم يعد باستطاعتنا ان نقول : ان للانسان حقيقة ثابتة ، وان للمجتمع حقيقة ثابتة ... وان الانسان الفرد او المجتمع ، اذا اراد لنفسه كمالا فليقترب ما استطاع من تلك المثل الثابتة بل كان الانسان - ايام اليونان الاقدمين - لم يكن له وجود في هذا الواقع المحسوس ، وانما هو حقيقة عقلية مجردة .. ولما كانت العبرة عندهم هي بالحقائق العقلية المجردة الثابتة ، فقد كان الافراد لا قيمة لهم ، بل ليس لهم وجود حقيقي . وقد استغلت بعض النظريات السياسية في القرن التاسع عشر ، وفي القرن العشرين هذه الفلسفة المثالية ، فجعلت فكرة الدولة هي الحقيقة المثلى ، واما الافراد فلا شيء ...

جاء العلم الذي فغير من صورة الحقيقة الموضوعية ، فجعلها تغيرا لا ثباتا ، وحركة لا سكونا . وبذلك اتجهت الفلسفة ، في احدى نواحيها ، نحو العلم ، بحيث تجعل «الوجود الحقيقي لهؤلاء الافراد الذين يتعاورهم التغير والتقلب » وهذه هي الوجودية في مذاهب الفلسفة المعاصرة ، ومؤداها ان نعترف « بالوجود الحقيقي للفرد الجزئي المحسوس » لا للفكرة المجردة .

هكذا فعلت نظرية التطور في علم الحياة ، ونظرية الذرة في علم الطبيعة ، فعلهما في التفكير الفلسفي ، ثم تأتي الى جوارها نظرية اللاشعور في علم النفس ، التي مؤداها « أن حقيقة الانسان ليست في عقله الواعي بمقدار ما هي في دوافعه المندسة ، خفاياه التي لا يكون على وعي بها .. ان حقيقة الانسان انما تكون في حالة الاحلام كما تكون في حالة الصحو.. ومن هنا تغيرت - الى حد كبير - وجهة النظر الى الشعر والى التصوير وغيرهما من الفنون . « اذ اصبحت القطعة الفنية كائنة ما كانت ، لفظا او نغما ، ولونا ، تقاس - لا بمطابقتها للواقع - بل باخراجها لما هو باطن ...

ومهما ذهبت اليه الفلسفة الحديثة فهي تتفق كلها على اسس واحدة ، اهمها ان الحقيقة متغيرة ، متحولة ، نشيطة فاعلة .. فالمذهب البراجماني هو في حقيقته تطبيق نظرية التطور في المجال الفلسفي . والتجريبية العلمية والواقعية الجديدة هما شعبتان من الفلسفة تعكسان نظرية الذرة. والوجودية اتجاه نابع من صميمه من اللفتة الجديدة لعلم النفس .

ولو جاز لي ان الخص هذه الاتجاهات الفلسفية كلها في عبارة واحدة لقلت انها جميعا صور مختلفة لمعنى واحد ، هو الحرية .. فاذا كانت الطبيعة المادية نفسها قد سال جامدها - في ضوء النظرية الذرية - واذا كانت الفواصل الحادة بين انواع الكائنات الحية قد ذابت حدتها - في ضوء النظرية التطورية - واذا كان الانسان قد كشف له علم النفس التحليلي عن كوامن نفسه فاخرجها على حقيقتها ادبا وفنا .. اذا كانت فروع العلم قد تآزرت كلها على بيان ما في الكون باسره من نشاط وحركة وضرورة وتغير وتطور فهل تكون الفلسفة التي تساير هذه العلوم الا توكيدا للحرية باوسع معانيها ؟ حرية الذرة ، حرية النبتة الصغيرة والحشرة الضعيفة في ان تكيف نفسها ، وحرية الانسان فردا وجماعة في ان يعبر عن رغباته ودوافعه ..

ومن هنا يجب علينا - نحن المشتغلين بالفكر والفلسفة - ان نقطر في نفوس شبابنا وعقولهم هذه الاتجاهات كلها .. ليزدادوا ايمانا بالتغير، والتطور والسعي في سبيل الحرية .

خليل الهنداوي

من الاصدقاء

الفنون العربية في شهر

تأملات .. في معرض الرواد

بقلم جليل كمال الدين

ان معرض الرواد هذا هو اول معرض تقيمه جمعية الفنانين العراقيين لجماعاتها ، بصورة مستقلة ، في معهد الفنون الجميلة . وسيتبعه في ١٨ نيسان معرض جماعة بغداد للفن الحديث ، وبقية المعارض ، حتى تكتمل، كلها ، في المعرض السنوي العام ، في سنته الثانية .

يقول الرواد : « في اواخر سنة ١٩٥٠ ، وفي دار صغيرة على شاطيء دجلة اقام جماعة من الفنانين اول معرض تحت اسم جديد هو«الرواد »، ولم يدر بخلد اولئك الذين ساهموا فيه،حينذاك بأن معرضهم هذا سيكون بداية لمرحلة جديدة للفن العراقي ، مرحلة مشبعة بالحركة والنشاط والابداع .. لقد كانوا مجرد جماعة من الاصدقاء جمعتهم ميولهم المشتركة في الحياة ورغبتهم القوية في تطوير الفن العراقي اوانمائه .. لقد انصرمت ثماني سنوات على اقامة ذلك المعرض تطورت خلالها مفاهيم الناس والفنانين على السواء . واذا جاز لنا ان ننسب (للرواد) بعض التقاليد الفنية فانه من الواضح جدا انهم عكسوا في اتجاههم الفني الذي قدموه خلال هذه الفترة انعطافا قويا للتعبير عن محيطهم ، وارتباطا وثيقا بالتربة التي ترعرعوا فيها ، وادراكا عميقا للعصر المضطرب الذي يعيشون فيه .. ان ذلك المعرض الصغير الذي اقيم في امسية مطيرة على شاطيء دجلة سيبقى دائما النقطة التي انطلق منها الفن العراقي المعاصر في بعثه الجديد » .

فماذا استفدنا من هذا التقديم الرشيق « للرواد » ؟ وماذا سنهضم من حقائق ومعطيات فيه ؟

★

ان جماعة « الرواد » قد حققوا شيئا ، وقدموا ، اخر الامر ، شيئا نستطيع الفخر به والاشارة اليه باعتزاز .

ولكن تفاؤلنا هذا ، ذاته ، قد لا يستديم ، طيلة الدراسة .

قبل كل شيء نحتاج القول ان هذا المعرض جاد .. فليس فيه هزل ولا اضاعة وقت بالقدر الذي يجعلنا نقرف ونشمئز ، كما لحظنا ، بألم كبير في اعمال فنانين آخرين ، في معارض اخرى ، او في اعمال بعض اعضاء « الرواد » في معارض سابقة . ان الجدية في عمل فكري عربي معاصر ، كسب رائع لا حد لروعته . كما ان الهزل ، في وقت كوقتنا ،وفي عصر كعصرنا هذا ، هو انتهازية وخيانة فكرية وفنية فظيعة . والحق ان « الرواد » كانوا ، منذ ان بزغ نورهم ، على قدر من الجدية لا بأس به ، وان ضاع بعضهم ، في بعض المعارض . وللايضاح ، اقصد بالجدية ابعادها كلا . فمن ناحية الموضوع ، كان الموضوع « الروادي » ــ ان صح التعبير جادا .. ومن ناحية مضمون ذلك الموضوع ومحتواه ، كان هو الاخر جادا .. في بعض حالاته ــ ويتراوح بين الجدية والتعجل والتفاهة في حالات اخر .. واخيرا التكنيك ، كان هو الاخر محترما وجادا .. وان كان ثمة فيه ثغرات وكوى ، لا بد من ردمها في اعمال « الرواد » المستقبلة، كما تنبئنا قابلياتهم الفنية معروضة في معرضهم السنوي .

كان الموضوع « الروادي » في مائة لوحة ، موضوعا واقعيا ، شعبيا .. اقانيمه الانسان الكادح ، الطيب ، العامل ، الشريف .. وكساؤه الحياة الدفيقة بالسخاء المنتج . ولست اريد القول ، بذلك ، ان كل هذه المائة لوحة كانت كما اسلفت . ولكني اقول ان ثمة رصيدا محترما لهذا الموضوع الواقعي ، الانسان . فمن « حاملات الروبة » و « بائعة الحليب » و « ملايات » و « حديث » و « حريق » لاسماعيل الشيخلي ، الى « سوق الفواكه » ، و « جاي العصر » و « شارع في بغداد » و « بائعات اللبن » و «قرويات» لسوزان الشيخلي الى «في الانتظار» و «في السوق» و «الارض الطيبة»، و «السماك الفقير»، و «ليلة القدر»، و «مشهدقروي»، و « الامل » ، و « اهل الصحراء » ، لفائق حسن ، الى « من الريف » لخالد القصاب، الى « مجزرة في الجزائر » ــ زيتية ، وتخطيط ، ــ و« ملايات » ، و « عائلة عربية (١) و (٢) » و « ثلاثة اشخاص » ، و « بناؤون » و « منظر ريفي » ، و « عمال » لمحمد صبري ، الى « المضيف في الطنوبة » (١) و (٢) ، و « بائعة البيض » و « بائعة الدجاج » ، و « عمال انابيب المجاري » (١) و (٢) ، و « السماكون » ، و « مقهى الجانه » لزيد صالح ، الى « النجف » لقحطان حسن فهمي .

لا اظننا نحتاج ان نقول ان وثبتنا العربية الحديثة غنية بمعطياتها لدرجة انها توجب علينا نحن ، الفنانين العرب ، ان نلتزمها كل الالتزام ، وان نتطور بها ، وان ننمو بها نسغا وحياة وواقعا ومستقبلا . وليس ثمة اروع مما في سمفونيتنا العربية الهدارة من جزائرنا الانسانية المجاهدة. فان كان بعد كل التقتيل والتذبيح والارهاب الوحشي الاسود الذي يقوم به سفاكو حرية فرنسا والجزائر ، وجلادو استقلال فرنسا والجزائر ، ان كان ثمة تشكيك او شك في انسانية عروبتنا الجزائرية ، وفي ايمانها بالحياة ، وفي حقها في الوجود ، فمعنى ذلك ان عصرنا يرجع ولا يمضي ، ولما كان التطور مطلقا ، لا سبيل الى وقفه ، كان الفن ، بطبيعة الحال ، في ركاب هذا التطور ، ومن اسلحته ومن جذوعه التي يعتمد عليها ، كفاعلية حياتية مطواعة ، خلاقة ، موارة بالبناء والانشاء ، والعدوى ، والتعقيل ، والانسنة الشفيفة .

ومعنى ذلك ان فننا العربي الحديث في خدمة السمفونية الجزائرية العربية ، كسب نبيل جدا ، قدر ما هو واجب لا مناص من القيام به . وان كان فنانونا ، هنا ، قد تكاسلوا في بحر عشرة اشهر عن تقديم شيء ما للجزائر ، وبوحيها ، وعلى هدى وثبتها العملاقة فان ذلك يرجع ، في عميق التمحيص ، الى عيش هؤلاء ، للاسف على هامشنا ، على هامش وثبتنا ، على هامش حياتنا وجودنا . وان كان « للرواد » ان يفخروا بشيء ، في مقابل ذلك ، فليفتخروا « بمجزرة في الجزائر » ــ لوحة الفنان الواقعي التعبيري الجاد .. محمود صبري.

وهذا من ناحية الموضوع والمضمون . اما من ناحية التكنيك فيستطيع الرواد ان يرفعوا رؤوسهم عاليا بوجود الفنان فائق حسن بينهم ، والذي هو ، بحد ذاته ، اكتمالة تكنيكية رائعة ، وانطلاقة فنية جسورة في واقعنا الفني المعاصر . وهو في ذلك يستند الى الخبرة الطويلة ، والدراية المتطورة



«مجزرة في الجزائر» ـ لمحمود صبري

باصول فنه ولكنه يحتاج من ناحية اخرى ، الى قدر من الثقافة العلمية والانسانية لترفع من تكنيكه وتؤنسنه ، كلا ، في تعاون عضوي ووظيفي حي للموضوع والمضمون .

بين موضوع صبري والشيخلي وتكنيك فائق حسن ، يعيش الرواد معرضهم . وبين واقعية صبري والشيخلي والوان وروعة شكل فائق حسن ينطلق فن الرواد جسورا ، متعاونا باخاء مع فن خير من في الجماعات الاخرى ، في سبيل فن عراقي عربي مستقل الشخصية ، واضح السمات.

يأتي اسماعيل الشيخلي « بحاملات الروبة » و « بائعات الحليب » فلا نملك الا ان نصيخ السمع لاصواته التي تهدر عبر الالوان والفرشة ، بكل رشاقة وحب. ولكننا اذ ندقق في العجان والتسوية اللونية ، قد لا نجد انفسنا مرتاحين كل الراحة . ثمة ما ينغص علينا استمتاعنا باللوحتين وثمة ما يجهض ، او يحاول ان يجهض ، في صدرنا الفرحة . انه التعجل لا اكثر . لقد تعجل الشيخلي في « الاستيج » وتعجل في التلوين ، فاتت النتيجة موضوعا طيبا ، ومضمونا سليما ، ولكن بشكل غير متكامل . على اننا سنرتاح راحتنا التي نريد ، حين نتسمر امام « ملايات » للشيخلي. فهنا وفي « دراسات » و « في الجادرية » وفي « حريق » ، ينطلق الشيخلي . هنا تنبسط الالوان حارة ، دفيقة ، مشرقة ، وهنا تجد شمس الشيخلي تشرق ، ابدا رغم الظلاميات الكثر

ولو ان زوجته سوزان كانت جادة مثله ، لاتى الحصيل الشيخلي ، عائلة ، رائعا لكن سوزان لم تكن ، كما كانت في اعمالها في العام المنصرم ، مثابرة دؤوبة . ف « سوق الاقمشة » و « صفارون » و «سوق الشورجة » لسوزان في عامنا الماضى كانت جميعا ، معرضا لتكاثف الموضوع والمضمون في اطار شكل جيد مبدع ، كما درسناها . على ان سوزان تنتصب في لوحة واحدة هي « جاي العصر » ، فتقدم لنا عيشا طيبا لواقعنا ، باسلوبها الخاص ، وتقدم لنا رصيدا ، لا عبرة بكميته ، غنيا بالنوعية السليمة . هنا تتعانق الوان ومضمون وموضوع سوزان ، سوية، لتكون آخر الامر ، اغنية محبة ، وزغردة سلام . وليس لنا ان نذكر « قرويات » ولا « سوق الفواكه » ولا « منظر من الجادريه » ، فكل هاته اللوحات كانت ، للاسف حصيلة تأثر بالغ بفن الشيخلي اسماعيل،وباسلوبه وبواقعيته . ومن الجدير بالذكر ان سوزان هذه اجنبية ، الا انها تبدع ، احيانا ، حين تستوعب واقعنا ، كانسانة ، فتأتينا بما نريد وننتظر من اجادة .

وقد لا نجد في بعض مواضيع الفنان المجيد فائق حسن الا شعبية مجتلبة او مصنوعة ، الا اننا ، مرتاحون ، اخر الأمر ، للكسب الذي يكسبه فننا العربي المعاصر بفائق وصبري وامثالهما . ان « عصرية في الغابة » و « اهل الصحراء » و « شهر رمضان » امثلة للشعبية الموضوعية المصنوعة . ولكن لوحات اخرى لفائق تنتصب لنقدم لنا شيئا جادا .«ففي الانتظار » و « في السوق » و « الارض الطيبة » ، نجد فنا .. وفنا سليما يرفع الرأس ، كما يقولون . ان تكنيك فائق الجيد يطغى على موضوعه ومضمونه فيكسبه فخامة وروعة فريدة الا انه قد يخنقه احيانا ، فيعطيه ديكورا يفقد الحياة ونسغ الحياة ، ليقف في ذلك مع افلام هوليود العظيمة القيمة الفنية والديكور والفقيرة الموضوع والمضمون .ان خشيتنا هذه على فن فائق ومستقبله تتنامى حين نراه يهرب في « لوحاته الطبيعية » ـ ان صح التعبير ، وهي ما يحاول بها التملص من « أ... وعناق التربة بشكل سلبي ذاتي .. بشكل « شكلي » . وهذا ما تقدمه لوحات « بعد المطر » و « ساحل الاطلسي » و « غروب » و « حافة الغابة » و « الوادي الاخضر » و « الصباح » و « غابة الصنوبر » . وثمة ملاحظة ان اكثر لوحات فائق الطبيعة ترتاح ، مائية ، بينما لا ترتاح لوحاته الاجتماعية الا زيتية . الا ان تكنيكه يبقى هو هو زيتيا ام مائيا . وفي رأيي ، ان لوحات فائق لهذا العام معطاء اكثر من لوحاته للعام السابق . وفي هذا مصداق تطور للفنان فائق ، وهو شرف له ولنا ولفننا المعاصر .

على ان « السماك الفقير » وهي لوحة فريدة لفائق ، تقدم لنا تعجلا ، يشوب تكنيك فائق لاول مرة . ومع ان فائق لا يرتاح الى الرمز كثيرا ، الا ان لوحته « الامل » وهي لوحة تحتاجنا دراسة مدققة ـ في عدد قادم ـ ،

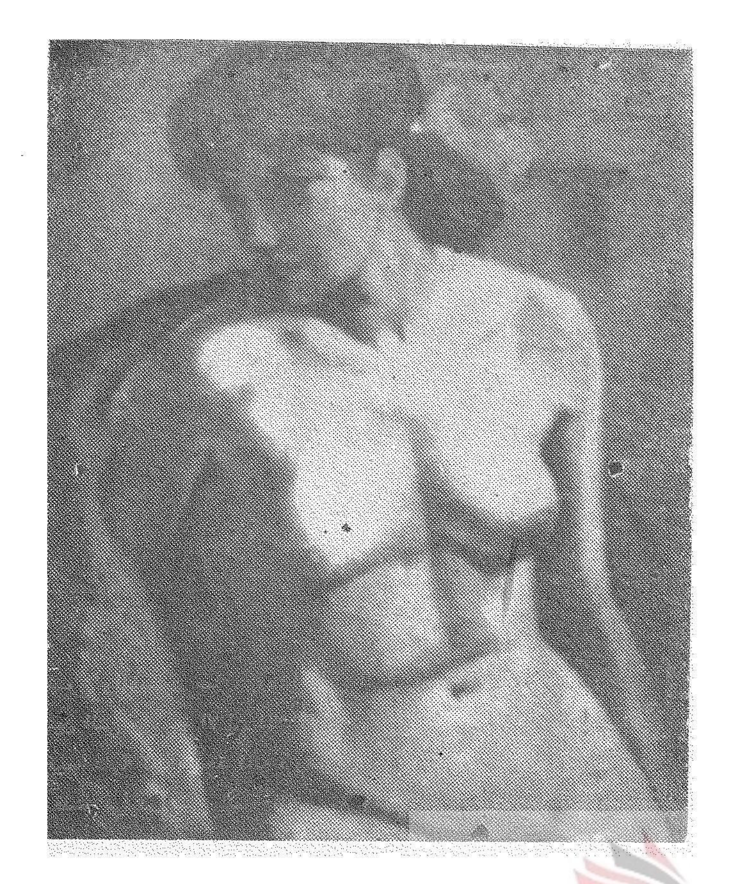
تقدم فائقا جديدا ، فائقا فيه تفتح لعمق ثقافي يبشر بخير كبير ، ويدفعنا في الوقت ذاته ، للايمان بان مستقبل فائق هو في التفتح الثقافي الاجتماعي مع التقنية الفردية التي يتميز بها . والاسطورة مع الرمز تعانق فائقا ثانية ، في لوحة « ليلة القدر » ، وقد عاونت الوان فائق المنتقاة جيدا ، والتسوية الفاخرة ، والتوزيع اللوني الرشيق ، في اكسباب الاسطورة بعدا شموليا رهيفا .

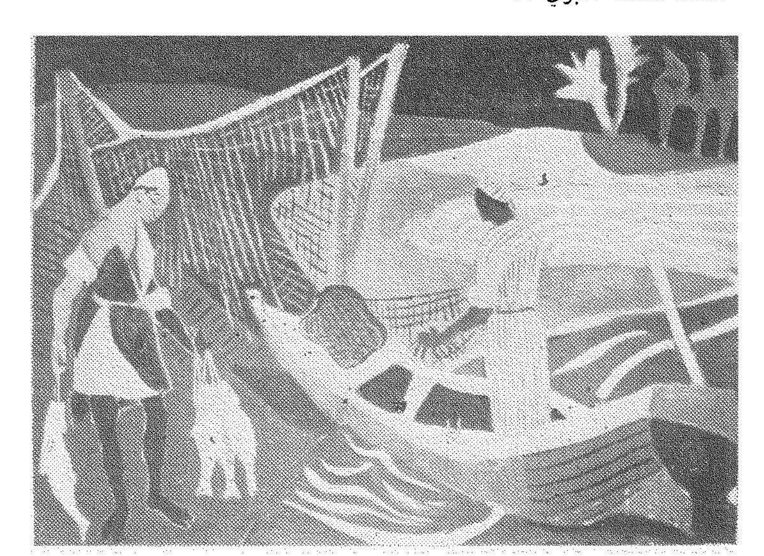
ويسلمنا خالد القصاب ، عاجلا ، الى فناننا الواقعي المجيد محمود صبري والذي تأملناه ، فاحصين ، في دراستنا السابقة في العام الماضي . ولن يترشح في ذهننا للقصاب سوى لوحة واحدة هي « اربيل » . « فأربيله » هذه كانت لوحة طيبة ، جال فيها تكنيكه جولة موفقة ، واستطاعت ان تريحنا من تكلفه وعدم انطلاقه مع التشويه في لوحته من « الريف » .

يطل علينا الفنان محمود صبري واقعيا تعبيريا مجيدا ، كما عهدناه في عموم لوحاته واسكيجاته ، طيلة ما مر من السنين . وجدية والتزام صبري نموذج يصح ان يحتذي به . ان الدروس التي يلقيها التزام صبري ، عبر لوحاته ومواضيعه ، بليغة ، بدرجة مذهلة ، وبدرجة لا يمكن لاخوته الفنانين الاخرين الا ان يفيدوا ، ومن اخطائها ان كان فيها اخطاء .

والغنائية التي لدى صبري والشيخلي وفائق فريدة حقا . الا ان الانسانية حين تعانق الغنائية في موضوع واقعي ، ومضمون واقعي سليم، تكون حصيلة ذلك كله ، عملا فنيا رائعا ، وعملا لا يمكن الا الفخر به ، والاعتزاز بمعطياته . واول ما يرفع صبري وفنه هو لوحتاه « مجزرة في الجزائر » – الاولى تخطيط ، والثانية زيتية . ففي « مجزرة في الجزائر » تتجلى كل المحبة التي يكنها انساننا العربي للحرية والاستقلال والوجود المؤنسن . وفي هاته اللوحة وتضاعيفها سمفونية رائعة ، من نوع الذي شهدنا لصبري في « جحيم دانتي » في العام الماضي . وفي رأيي ، ان لوحات مثل « جحيم دانتي » و « كانون » و « ومجزرة في الجزائر » ، يجب ان يحتضنها «المتحف الوطني» ، الذي لا زلنا نعيشه خيالا لا واقعا .

ويبدو على صبري انه فنان جداري رائع ، فمجزرة في الجزائر وهي لوحة ضخمة (قياس ٣ متر طولا ١٫٨٠ عرضا) ، كان ممكنا ان ترتاح على جدار، وعلى جدار متحفنا الوطني ، على وجه الدقة . وفي هذا كسب جديد لفناننا المثقف صبري ..



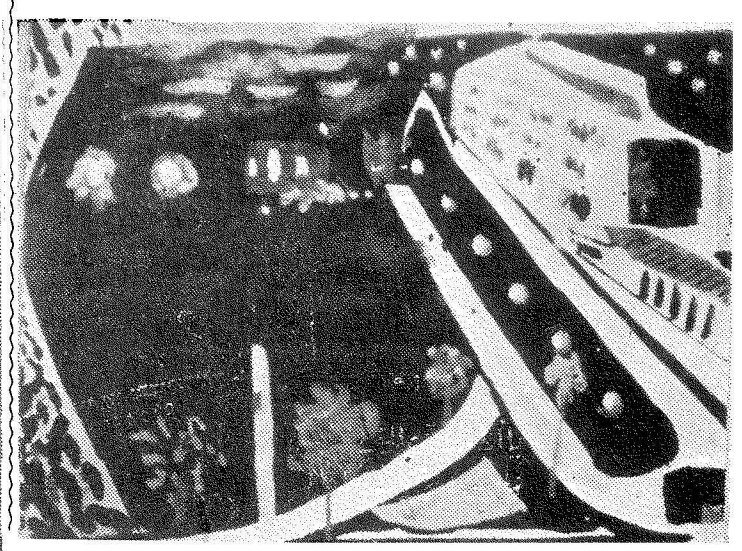


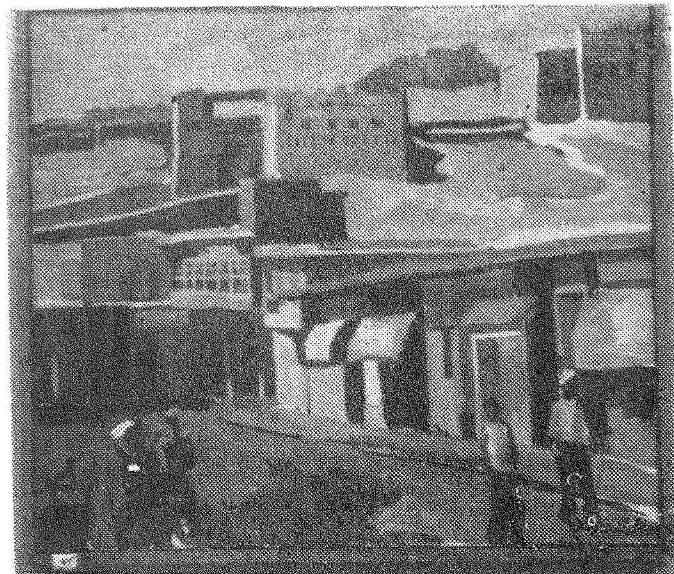
على ان ثمة فارقا بين تخطيط « مجزرة في الجزائر » ولوحتها الزيتية، وهي الاجزاء المحذوفة ، على ما يظهر ، من اللوحة الزيتية ، والمثبتة في التخطيط ، وذلك مثل منظر رأس مجاهد ومجاهدة رفعا على حراب المجرمين الفرنسيين ، ومنظر السلام الذي اجهض واعدم بعد ان ذبحت حمامته .

ومع ذلك فان روح المأساة الانسانية تحتضن اللوحة الزيتية بكامل ابعادها، ومنطلقاتها . فالضحايا على المشانق وهم يرفعون راية الثورة ، والتعذيب البربري الذي يقوم به غستابو فرنسا ومظليوها تقتيلا للآمنين العزل من شعبنا العربي في الجزائر ، والسبر الابي الحرون للمأساة ، وابطالها ، من شعبنا ، هناك ، الى الامام ، والاصرار في هذا السير ، والايمان المرتسم على الوجوه السمر ، وراية السلم ، والشمس والاطفال .. كل ذلك قد اكسب اللوحة ابعادا شمولية خصبة ، ومنطلقات انسانية شفيفة قدر ما هي رهيفة وواقعية فالثورة الجزائرية نموذج للثورة الانسانية ، من الاعماق، ومن الجذور ، وعلى يد الشعب الواعي ، الخالق ، الفاعل ، في سبيل وجود مشرق وواقع فاضل ، نبيل . والثورة الجزائرية كما عكسها اللوحة هنا انطلاقة ثورية ، تقدمية ، بحد ذاتها ، وانفتالة صداحة بالحياة . ولست اريد بذلك ان اقول انها كانت قمة اعمال صبري فحسب ، بل اني اود القول انها كانت قمة اعمال الرواد ، ولربما ، الفنانين العراقيين جميعا لهذا العام .

ان صبري هنا ، يستحق التهنئة والشكر . فلقد اتى بجديد . لقد اتى بشيء نرتاح اليه ونؤمن به ، ونقتدي ، كلا ، بمعطياته . ان صبري هنا انسان فنان باتم ابعاد ذلك .

ومع ان صبري يموسق كل لوحاته بلحون التعبيرية ، ومع انه يعطي نظره ، ويقيم واقعه ، عبر لوحاته ، الا انه لا يهتم بالتكنيك قدر اهتمامه





بالموضوع والمضمون معا . وهذا رأيي الذي تصدقه اعمال صبري طيلة السنين التي مرت . الا ان ذلك لا يغض من قيمة صبري الفنية ، فصبري هو قيمة فنية كبيرة بحد ذاته ، وهو نموذج للفنان الواقعي العربي الانسان، كما قلت في دراستي للعام الماضي ، وكما اكرر ، مستندا الى اعماله الان .

ثمة شيء يفيد منه صبري كثيرا هو البساطة والعفوية والتشويه. كل فنانينا يحاولون الافادة من الغنائية والبساطة والرموز والاساطير ، وكلهم يحاولون الشعبية موضوعا ومضمونا ، الا ان شخصية صبري تتميز بالتشويه الفني في لوحاته ، فهو ، كبوتشيلي ، يتعمد اطالة وتضخيم اجزاء معينة من العمل الفني ، او المضمون ، لابراز صفة معينة ، او للتأكيد على قضية معنية . ولو اتيح لصبري ان يطعم فنه بتكنيك واقعيي المكسيك كرفيرا مثلا ، لاستطاع ان يأتي بذخيرة لن ينساها فننا العربي الحديث البتة .

على ان ذلك لن يعفي صبري من كسله . فبعض لوحاته معادة ، وهذا يعني انه يجتر . ولن يشفع لذلك عمله ، فالفن الانسان الذي نذر نفسه لاجله يتطلبه ان يكون جادا حقا حتى في الكمية ، بله النوعية . والارهاق واليأس والتعب (وكلها ملامح رومانسية — واقعية معا) تلون ابطال ومرسومات صبري الاجتماعية ، الا ان ثمة شيئا يظلل كل هاته الملامح ، هو الايمان . فالايمان يتجلى في النظرات ، وفي العيون ... في شكل تحديقة واعية ، مثابرة ، عاقلة . الا ان صبري يغرق في الوان قاتمة،كئيبة، فلا يعطينا التكامل الفني في اسمى درجاته . وهذا لا يعني، بطبيعةالحال، ان صبري ينتهي حيث يلح في كآبة الوانه ، بالعكس من ذلك ، انه ينطلق من هناك الى حيث اشراقة رصينة ستأتي بتشكيلات واقعية طيبة جدا في الاعوام القادمة .

وفنانونا الاربعة الذي تبقوا لا يقدمون العطاء المنتظر ، موضوعا ومضمونا وتكنيكا ، بالقدر الذي نريد . ومع ذلك فزيد صالح وهو « فنان اختص بتصوير الخيول » كما درسنا في العالم الماضي ، يأتي بجديد حين يقدم لنا « بائعة البيض » و « بائعة الدجاج » و « عمال انابيب المجاري »، انه في الحقيقة يخطو خطوة جبارة نحو ما يجب ان يسوقه اليه منطقة الواقعي . وتكنيكه مسماح لدرجة نستطيع ان نقول معها انه يتطور سراعا وبشكل بهج .

اما عادل صالح فتصميمه « لكنيسة » شيء فاخر حقا ، ومثل ذلك « نجف » الفنان قحطان حسن فهمي التي افاد فيها من الرمز والاسطورة كثيرا ، فقدم لنا تعاونية رائعة للموضوع والمضمون . ويأتي عيسى حنا اخيرا ليقدم لنا « دراسة » وهي لوحة تسجل له دأبا كبيرا ، وجها مثابرا. ولن يحتاج هؤلاء الفنانون الثلاثة سوى الامعان في التجربة، والتأني والعناية بالتكنيك .

وفي معرض الصور الفوتوغرافية يجيد ناظم رمزي في التقاطته الثرة الابعاد حقا في « ضابط الايقاع » و « الطفولة في راوة » و « رقص الحصاد » . ولعله سيفيد من الوقت والخبرة في قابل ايامه ، فيقدم لنا صورة رائدة في هذا الميدان الذي تتعاون فيه الصناعة والفن معا.

وختاما ، اود ان اقول ، ان الرواد قد تعاطوا ، كلا وافراد ، مع مجتمعهم الصغير والكبير في وطن العروبة ، وبشكل يختلف باختلاف ثقافة كل منهم ، وايمانهم بالقضية . الا ان الشيء الاهم من ذلك هو كونهم قد تطوروا موضوعا ومضمونا ، فكان معرضهم ، لهذا العام ، خطوة لا بد منها نحو تكاملهم الفني الرحيب ، لا بد من اجل ذلك ان تتعاون انسانية وواقعية صبري ، وغنائية الشيخلي ، وتكنيك فائق لتقدم ، معا ، انطلاقة فنية معطاء سيكون لها اثرها وسهمها في بنائنا الفني الحديث .

بغداد **جليل كمال الدين**

حقائق ... واكاذيب

- تتمة المنشور على الصفحة ١٠ -

ان تطالب بهما فيما بعد . (ص ١٤٣) وبناء على ذلك اقترحت على رئيس الوزراء ان ترسل قوة رمزية الى الرملة قبل ان تبدأ الهدنة باربع وعشرين ساعة . ذلك انه اذا ما بدأت الهدنة فقد تحظر التحركات العسكرية . ولو ذهبت هذه القوة الى الرملة قبل الهدنة فاننا نستطيع ان نعيد تنظيم الحرس والادارة حالما يتوقف القتال . ووافق رئيس الوزراء ، الا انه لم يرسل حاكما . وفي التاسع من حزيران تحركت شلة المشاة المستقلة الخامسة - وهي لا تكاد تتجاوز المئة - نحو الرملة . (ص ١٤٣ ، ١٢٢ ت . دار العلم) معنى اقتراح غلوب ان اللد والرملة اذا استطاعتا ان تدافعا عن نفسيهما ، وتسلما الى وقت الهدنة ، فلا بأس ان لم تضما الى الاردن التي لم ترد ان تطلق في سبيل الدفاع عنهما طلقة واحدة . قد يقال : ولكن الاردن قررت ان تتحمل مسئولية الدفاع عنها فيما بعد الهدنة . فنقول : ان الاردن ، عندما قررت ضم هاتين المدينتين العربيتين ، كانت تقدر انها لن تضطر للدفاع عنهما . والدليل على ذلك ان الحكومة الاردنية كانت واثقة ، كما يؤكد غلوب في مواضع عديدة (ص ١٤٥) ، بان الهدنة ستكون الخاتمة النهائية للخلاف بين العرب واليهود ، وان الحرب لن تتجدد بعدها ابدا . بقيت اللد والرملة ، طوال الشهر الاول من القتال ، دون حكومة تديرهما ، ولا شرطة تشرف على شئونهما ، ولا جيش نظامي يدفع عنهما غارات اليهود . وانما كان يحميهما سكانهما وعدد من الجنود العرب غير النظاميين (ص ١٥٧) ان مسؤولية غلوب ، والحكومة الاردنية ، في اضاعة اللد والرملة تبدأ من هنا ، من يوم ان قرروا عدم الدفاع عنهما . فقد اضاعوا شهرا كاملا دون ان يقوموا بأدنى مجهود لتنظيم سكان المدينتين ، وتسليحهم ، وتدريبهم على اساليب الدفاع . لقد اثبتت الوقائع ، خلال غارات اليهود على المواقع الامامية في الاردن بعد الحرب ، ان بامكان سكان القرى ، يقودهم ويعاونهم بعض الجنود النظاميين ، ان يصدوا هجمات اليهود المركزة .

امدت الاردن اللد والرملة ، بعد ان قررت ضمهما ، ببعض وسائل الدفاع ... « وبذلنا كل ما في وسعنا لتقوية اللد والرملة . فأرسلنا الى هناك عدة مئات من رجال العشائر الاردنيين مسلحين ببنادق قديمة كانت للجيش العربي . ولم يكن يوجد اي رئيس لا في اللد ولا في الرمله. كما ارسلنا الى اهالي المدينتين كل ما توفر لدينا من السلاح الاضافي. ولكن بالرغم من ذلك فقد كنا نخشى سقوط هاتين المدينتين فيما اذا تعرضنا لهجوم جدي » (ص ١٥٨ ، ١٢٤ ت . دار العلم) ولكن ما ان تجدد القتال بعد الهدنة الاولى حتى قرر غلوب ، ومعه بطبيعة الحال الحكومة الاردنية ، عدم الدفاع عن هاتين المدينتين . ما هي الحجج التي استند عليها غلوب في عدم الدفاع عنهما ؟ يقول : ان اللد والرملة واقعتان في السهل ، وان جازف فوج من قوات شرق الاردن بالنزول الى السهل فسوف تحدق به قوات العدو من جميع الجهات . واذا ما نجح في رد هجمات العدو عليه فان خطوط مواصلاته عبر الصحراء ستنقطع » (ص ١٤٤)

ويقول في موضع آخر (ص ١٥٧ ، و ص ١٣٤ ت . دار العلم) «... ما دامت المدينتان العربيتان اللد والرملة صامدتين فان الجناح الايمن للجيش العربي في اللطرون كان محميا . كما ان الفجوة بينه وبين الجيش العراقي كانت مسدودة ايضا . وكانت قد وردتنا اشارة بان القوات الاسرائيلية سوف توجه هجومها هذه المرة على اللد والرملة ، فلو ارسلنا احد الفوجين من اللطرون الى المدينتين لفصل عنا ، وحوصر في الحال خاصة وان مستعمرة « بن شمن » اليهودية تقع غير بعيد عن الطريق ، وعندئذ تحاصر القوات الاسرائيلية اللد والرملة ثم تتجمع ضد الفوج الباقي في اللطرون . هذا وتجدر الاشارة الى ان اللطرون هي مفتاح طريقين هامين : طريق رئيسية تؤدي الى القدس وطريق اخرى فرعية من اللطرون الى رام الله . فلو هزم الاسرائيليون سريتنا في اللطرون اذن لفتحوا امامهم طريق القدس . ليس هذا وحسب بل لكانوا توجهوا توا الى رام الله ، ثم لداروا جنوبا ليطوقوا القدس ، او شمالا الى نابلس وراء الجيش العراقي. وهكذا لكانت النتيجة ان حلت الهزيمة ليس بالجيش العربي وحده ، بل بالجيش العراقي ايضا . كما ان فلسطين كانت فقدت برمتها . ان اللطرون هي مفتاح الجبهة كلها ، فاضعاف حاميتها ضرب من الجنون لا غير » .

توهم كلمة غلوب السابقة ان الجيش الاسرائيلي بأسره سوف يقوم بالهجوم على اللد والرملة ، كما توهم بأن اضعاف حامية اللطرون سيؤدي الى انهيار مواقع الجيش الاردني ، وتطويق الجيش العراقي ، وذهاب فلسطين برمتها . وهذه حجة يكررها غلوب في كل مناسبة تدعوه للدفاع عن نفسه . فهو يتريث في ارسال الجيش الاردني الى القدس بحجة انه يريد المحافظة على الجيش لانقاذ مناطق اخرى من فلسطين ، وهو لا يدافع عن اللد والرمله بحجة انقاذ اللطرون ، وهو يسلم لواء الجليل بقصد انقاذ البقية الباقية من فلسطين . والحقيقة ان الاسرائيليين هاجموا اللد والرملة بجزء من جيشهم فقط. يقول غلوب : ان البلماخ وهو طليعة الجيش الاسرائيلي ، كان يتألف من ٦٥٠٠ رجل ، منظمين في فرقة مؤلفة من ثلاثة الوية. وكانت مهمة هذا الجيش الاستيلاء على اللطرون « ولقد

كرر الاسرائيليون خلال الشهر الاول من القتال هجماتهم ليلة بعد ليلة على مواقع الجيش العربي في اللطرون دون ان يحرزوا اي نجاح .فكانوا بعد كل كرة يتراجعون تاركين وراءهم المئات من القتلى » (ص ١٥٩ ، ١٣٥ ت دار العلم) لاحظ كلمة « مئات القتلى » هنا فهي نموذج على اسلوب غلوب في المبالغة عندما تكون المبالغة في صالحه . ان جيشا مؤلفا من ٦٥٠٠ رجل لا يحتمل ان يفقد كل يوم مئات القتلى ، مدة شهر كامل ، ثم يدخل الميدان من جديد ويحتل قسم منه اللد والرملة. اما عدد الجيش الاردني في اللطرون ، الذي صد هجمات البلماخ المتكررة ، وكبده في كل هجوم مئات القتلى ، فكان ١٢٠٠ جندي ، اي بنسبة جندي اردني واحد الى كل خمسة جنود يهود (ص ١٥٩) وبعد ان عجز اليهود عن احتلال اللطرون قرروا مهاجمة اللد والرملة . فتوجه لاحتلالهما لواءان من جيش البلماخ ، في اليوم التاسع من تموز ، اي ان الجيش اليهودي المهاجم كان يبلغ ثلثي الجنود الذين كانوا يهاجمون اللطرون ، اي اقل من ٥٠٠ جندي . وقد استطاعت الثلة الصغيرة من الجنود الاردنيين ، التي ارسلها غلوب الى الرملة والتي كانت يوم الهجوم متحصنة في مركز بوليس اللد ، ان تنازل القوات الاسرائيلية المهاجمة ، وترغمها على التراجع ، مدة اربع وعشرين ساعة(1) . (ص ١٥٩) ولكن غلوب قرر ان يسحب هذه القوة الصغيرة بحجة تأمين خطوط الدفاع في مكان اخر . وهرب الجنود الاردنيون من اللد في ليلة ١١ – ١٢ تموز، وبسلاحهم الكامل ، ووصلوا الى بيت سيرا سالمين . (ص ١٦٢) وفي صباح يوم ١٢ تموز احتل اليهود اللد والرملة . وقاموا بتفتيش المنازل، وقبضوا على كل الرجال الذين هم في سن الجندية ، وساقوهم الى المعتقلات ثم طافت في جميع الشوارع وحدات من الجيش الاسرائيلي مجهزة بمكبرات الصوت تنذر من بقي من السكان بالرحيل في مدة نصف ساعة . كان اليهود يدخلون المنازل ويخرجون النساء بعنف وقوة ليرهبوهن ويرغموهن على الهرب. وقد ارغم اليهود ، بقسوتهم وارهابهم، ما يزيد على ثلاثين الف شخص ، معظمهم من النساء والشيوخ والاولاد، على الهرب ، وسار اللاجئون متجهين الى اقرب قرية عربية ، حاملين على اكتافهم ما استطاعوا حمله من متاعهم الضئيل واطفالهم . وكم هلك، في تلك المسيرة ، من اطفال !

يلوم الجنرال غلوب الحكومة البريطانيةعلى سحب الجيش البريطاني من القدس ، وعدم سماحها للجيش الاردني بارسال بعض وحداتها اليها، ويلقي عليها تبعة ما اصاب القدس من تخريب ودمار . ومما قال : « ان وجود عدد من الجنود الاردنيين في القدس كان سيقوي معنويات المدافعين عن المدينة ، ويبعثهم على القتال بحمية واطمئنان . »

الا يحق لنا ان نوجه مثل هذا اللوم للجنرال غلوب ، عندما قرر سحب هذه القوة الاردنية الضئيلة من اللد ، وترك المدينة دون حامية ؟ الم يعلم بان وجود هذه الحامية الاردنية يقوي معنويات المدافعين عنها من سكانها ، ويطمئنهم الى ان الحكومة الاردنية لم تنسهم ؟ وما هي الضرورة العسكرية لسحب هذه القوة ؟! ام لعل غلوب كان احرص على جنوده من انقاذ المدينتين بسكانهما ، فلم يرد ان يترك مئة من جنوده يخوضون معركة خاسرة ؟ وتلك الالاف من المجاهدين والشيوخ والنساء والاطفال الم يكونوا بشرا يستحقون ان يحموا من الوقوع بايدي السفاحين من اليهود ؟ يقول الجنرال : انه لم يكن يتوقع ان تنتج عن سقوط اللد والرملة فاجعة بشرية كتلك التي حدثت فعلا .(ص ١٦٤) ان من شاهد مجزرة دير ياسين ومذابح القدس لا يحق له ان يحسن الظن باليهود .

ويقول غلوب : انه لم يستطع ان ينجد اللد والرملة بقسم من القوات الاردنية المرابطة في اللطرون لاهمية هذه المدينة العسكرية . ولكننا نراه، بعد سقوط المدينتين ، يفرق حامية اللطرون ، ويبعث بوحدات منها شمالا وشرقا لتأمين خطوط تموينه التي هددها سقوط المدينتين . ولم يكن الدفاع عن اللد والرملة اضمن للدفاع عن خطوط التموين واجدر في الابقاء على الاتصال بالجيش العراقي. هذه ملاحظات يثيرها في نفسي الم هذه الفاجعة التاريخية ، ولم ارد ان اناقش بها خطط الجنرال غلوب العسكرية ، فانا لست من اصحاب هذا الفن . ولم ارد ان احمل غلوب مسئولية هذه الفاجعة بكاملها ، فهذه الفاجعة ، كنكبة فلسطين باجمعها ، ليست من عمل شخص واحد . وعندما نسأل من هو المسؤول الحقيقي ؟ يدور على افكارنا فيض من الاسئلة الحائرة التي تطلب جوابا. هل المسؤول عن سقوط اللد والرملة الجنرال غلوب الذي سحب القوات الاردنية من المدينتين بعد ان اوقفت الهجوم اليهودي مدة اربع وعشرين ساعة ، بدل ان يعززها بقوات اخرى ؟ ام هو توفيق ابو الهدى الذي رفض السماح بزيادة عدد الجيش الاردني اثناء الهدنة الاولى بحجة ان القتال لن يتجدد (ص ١٥٨) ؟ ام الجامعة العربية التي رفضت ان تمد حكومة الاردن بالمساعدات المالية التي وعدتها بها فلم تتمكن من تقوية الجيش وزيادة عدده بعد الهدنة الاولى ؟ ام الجيش العراقي ، الذي كان عالما بحقيقة الحالة العسكرية في المدينتين لانه كان يتبادل المعلومات مع الجيش الاردني ؟ لماذا لم ينجد الجيش العراقي هاتين المدينتين ولو بجزء صغير من قواته الضخمة البالغ عددها في فلسطين يومئذ ١٩٠٠٠ جندي ، على الاقل لحماية جناحه الايسر من اليهود ولضمان اتصاله بالجيش العربي في اللطرون ؟ ام ان الحكومة العراقية هي المسؤولة بعدم اذنها للجيش بانجاد المدينتين ؟

ام الدول العربية جميعا هي المسؤولة حين استأنفت القتال مرغمة بعد الهدنة الاولى ، لكي تحافظ على سمعتها بين شعوبها ، دون ان تكون لها نية مصممة على القتال ؟(ص ١٥٠) . اغلب ظني ان هؤلاء جميعهم كانوا المسئولين عن ضياع هاتين المدينتين العربيتين المجاهدتين، وتشريد اكثر من ثلاثين الف انسان عربي ، مسؤوليات متفاوتة الدرجات ، نرجو ان يكشف عنها ما عسى ان ينشر في المستقبل من وثائق .

ان نقطةالضعف في الجنرال غلوب هي انه، مثل جميع بناة الامبراطورية لم يستطع ، او لم يرد ، ان يفهم معنى هذا الوعي القومي المتعاظم في العالم العربي عامة ، وفي الاردن خاصة . لم يستطع ان يدرك اصالة

(1) لم يكن الجنود الاردنيون وحدهم هم الذين صمدوا لليهود .فقد دافع عن المدينة المجاهدون الفلسطينيون، بينما فر من القتال البدو الذين ارسلهم غلوب

الحركات الوطنية في العالم العربي التي تستهدف التحرر التام ، والعدالة الاجتماعية ، والرخاء المادي والروحي ، والوحدة . لم يستطع الجنرال غلوب ، او لم يرد ، ان يفهم الحركات الوطنية التحريريةفي العالم العربي لانه كان يحلم ان يظل قائد جيش من ابناء العشائر ، يخدم الامبراطورية البريطانية، في بلد راكد السياسة ، بعيد عن العمران. وقد ايقظتــه الحركات الوطنية من حلمه هذا الجميل ، لتسلمه الى واقع الامبراطورية المهلهل ، المضطرب ، البائس ومن هنا كان تحليله لمشاكل الاردن ، والعالم العربي ، بعد نكبة فلسطين ، تحليلا ضحلا اشبه باللغو الصحفي منـــه بالتفكير العلمي المسؤول . ومن هنا ايضا كان حقده ، الذي يظهر فـي معظم صفحات كتابه ، على مصر وسوريا ، وقادتهما الوطنيين ، وعـلى المثقفين العرب الذين يحملون مشعل التنوير والوعي الوطني امام جمهور الشعـب .

ولكن الجنرال غلوب ، على الرغم من فهمه الخاطيء المغرض للحركات الوطنية في العالم العربي ، وعلى الرغم من عدائه السافر لقادة القوميـة العربية المتحررة ، قد ادي للقضية الفلسطينة خدمة مشكورة . لقد بين، بادلة قوية واضحة ، ان الصهيونية حركة عدوانية لا سند لها من التاريخ والاخلاق والحق . وفضح مؤامرات اليهود وخدعهم ، ومنظمـــــاتهم العسكرية والسياسية واساليبها في العمل ، والجهات التي تمدها بالمال والسلاح . وذكر ارهابهم الوحشي الذي ارغم الفلسطينيين على هجـر بيوتهم وقراهم . وعدد هجماتهم على حدود الاردن ومصر وسوريا ، وفضح مقاصدهم منها . وصور مأساة اللاجئين في صفحات مؤثرة تبعث اقسى القلوب تحجرا على الشعور بمرارة الفاجعة ، وبشاعة الجريمة . وقد تبدو هذه القضايا من البديهيات المسلمة في العالم العربي ، ولكنها ليست كذلك في الغرب حيث تسيطر الدعاية الصهيونية على مصادر الاخبار ، وتصور العرب جهلة متخلفين ، همهم العدوان على دولة اسرائيل المحبة للسلام والانسانية والتقدم

★

وقد صدر في بيروت حديثا ترجمتان عربيتان لهذا الكتاب . اصدرت الاولى دار العلم للملايين بعنوان « جندي بين العرب » ، واصـدرت الثانية دار النشر للجامعيين بعنوان « جندي مع العرب » ، وقام بالترجمة السيد عفيف حسن الصمدي. والترجمتان تنقصان عن الاصل كثيرا . يبلغ عدد كلمات الاصل نحو ١٩٠،٠٠٠ كلمة ، بينما يبلغ عدد كلمـات ترجمة دار العلم نحو ٩٣،٠٠٠ كلمة ، اي نحو نصف الاصل ، وترجمة الصمدي نحو ٦٧،٠٠٠ اي نحو ثلث الاصل . وقد اشارت طبعة دار العلم الى مواطن الحذف بعدة نقاط ، ولم تشر الى ذلك الطبعة الاخـرى. وحجة دار العلم على حذف اقسام ومقاطع من الكتاب انها رأت فيها « مـا يمس المصلحة العربية القومية مسا قويا . » ويضيف السيد عفيف الصمدي الى هذه الحجة قوله انه اختصر بعض مقاطع الكتاب ، وبعض الفقرات المكررة التي لا غنى عنها للقاريء الاجنبي بينما هي معروفة عند القاريء العربي .

على ان الناشرين ، على ضعف الحجج التي استندا عليها لتبرير حذفهما لاقسام كبيرة من الكتاب والتي لا تقرها المناهج العلمية ولا مصلحة القاريء، لم يقتصرا على حذف الفقرات » «التي تخالف المصلحة القومية » فقط،بل حذفا فقرات لا تمت الى المصلحة القومية بصلة . واليك بعض الامثلة من ترجمة دار العلم . حذفت فقرات على ص ١٦٧ و ١٦٨ و ١٧٠ مـن الاصل يصف فيها المؤلف شجاعة الجنود الاردنيين وحسن بلائهم في القتال ضد اليهود . وحذفت فقرة على ص ١٩٠ يذكر فيها المــــؤلف انشـــاء حكومة عموم فلسطين ، وفقـرات علـى ص ١٩١ و ١٩٣ و١٩٥ – ١٩٦ يذكر فيها المؤلف ان اليهود كانوا يتلقون المساعدات مـن الدول الشيوعية . وحذفت فقرة ص ٢١٣ يذكر فيها المؤلف برقية شكر بعث بها بن غوريون الى ستالين ويقول فيها : ان الشعب الاسرائيـلي لن ينسى المساعدة والتأييد اللتين قدمتهما له روسيا عام ١٩٤٨ .وحذفت فقرة ص ٢١٦ – ٢١٧ يذكر المؤلف ضم الضفة الغربية الى الاردن ، وموقف الدول العربية من هذه القضية ، وانتقال حكومة عموم فلسطين الى القاهرة ورفضها الاعتراف بالمملكة الهاشمية الاردنية .

والجنرال غلوب كاتب يتقن فن الكتابة . عبارته بسيطة ، دقيقـة ، محدودة، تبلغ احيانا مرتبة النثر الجميل . وهو يجيد وصف المشـاهد وخاصة المعارك الحربية حتى ليخيل للقاريء انه يشاهدها بعينيه ، ويسمع ضوضاءها باذنيه، على ان اسلوبه لا يخلو من تكرار وسطحية وثـرثرة وخاصة عندما يحاول ان يفلسف الاحداث ويستخلص النظريات والنتائج الكلية من الامور الجزئية المتفرقة . وقد ادت ترجمة دار العلم معاني المؤلف بامانة ودقة ، الا انها لم تسلم من اخطاء كان بامكان دار العلم ، وهي التي التزمت الاتقان فيما تنشر ، ان تتجنبها . (انظر مثلا ص ٨٣ ، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٩٠، ١٢٢، ١٣٣، ١٠١ . ويقابلها في النص الانكليزي على التوالي ص ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١١، ١٤٣، ١٥٧ ، ١٦٨)

اما ترجمة دار النشر للجامعيين فتعوزها الدقة،وتكثر فيها الاخطاء حتى لتكاد ان لا تخلو منها صفحة . وقد ارفق المؤلف بكتابة نحو ثلاثين خارطة، تبين المعارك المهمة ، والنقاط العسكرية ، وتحركات الجيوش . ولم تنشر طبعة دار العلم شيئا منها ، بينما نشر طبعة دار النشر صورة عشر منها باصلها الانكليزي دون ترجمة .

محمد توفيق حسين